أيمن الشايب

360

ثلاثمائة وستون درجة

رواية

٣٦٠ درجة

تأليف: أيمن الشايب

تصميم الغلاف : محمود حميدو

رقم الإيداع: ٢٧٠٢٨ / ٢٠١٦

الترقيم الدولى: ٥ - ٠٦ - ٦٥٩٨ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الطبعة الأولى: ديسمبر ٢٠١٦

مدير النشر: أحمد خطاب

إشراف عام : أحمد عبد الجواد

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

01007677910 - 01111883712

3aberorg@gmail.com

www.3aber.org

3aber عابر

جميع الحقوق محفوظة، وأى اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو إلكترونية أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابى من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

360

ثلاثمائة وستون درجة

أيمن الشايب

مؤسسة عابر للنشر والتوزيع

أجر كاتب هذة الرواية تم تخصيصه لصالح مستشفى بهية للإكتشاف المبكر لسرطان الثدى، أى أن الثمن الذى دفعته عزيزى القارىء فى هذة الرواية ليس فقط للقراءة ولكنك أيضاً شاركت به فى علاج سيدة من سيداتنا فى هذا المجتمع،،،

أتمنى لكم قراءة ممتعة وثواب متقبل إن شاء الله.

إهداء

إلـى كل الذيـن قـرروا أن يكسـروا تلـك الدائـرة التـى يـدورون فيهـا ويخرجـون إلـى عالـم أكثـر رحابـة وإتسـاعاً.

صديقى القارىء ...
فى عام ٢٠٠٥ دخل شاب صغير فى السابعة عشرة من عمره إلى غرفته وشىء مجهول يشعره بالاضطراب والقلق ، شىء غامض سيطر على عقله وتفكيره ، دفعه إلى أن يبحث عن قلماً وبعض الأوراق ، ويجلس ليبدأ – دون أن يعى – فى رسم الخيوط الأولى لرواية أدبية كبيرة يحلم بكتابتها ، لا يعلم متى سينتهى منها ، فى يوم ، أسبوع ، شهر ، سنة ؟
ولكن ...
لم يكن هذا الشاب الصغير يعلم أن هذة الرواية سينتهى من كتابتها بعد عشرة سنوات كاملة ، نعم الرواية التى بين يديك الآن كتبت فى عشر سنوات ، (وهى أول رواية فى التاريخ تكتب فى هذة المدة) ، حيث بدأت رحلتى الغامضة والمثيرة فى كتابتها وأنا فى سن السابعة عشرة من عمرى (٢٠٠٥) ، وانتهيت منها وأنا فى السابعة والعشرين (٢٠١٥) ، وتم تغيير اسمها حوالى عشر مرات ، أى بمعدل اسم كل عام ، عشت بين صفحاتها أجمل سنوات الصبا والتكوين ، وعاشرت شخصياتها أكثر مما عاشرت أهلى ، كبرت ونضجت معهم ، ضحكت وبكيت معهم ، فرحت وحزنت معهم ، غصت فى دهاليز عقولهم وقلوبهم ونفسياتهم .
فأرجو أن تتقبل منى مجهود العشر سنوات التى قضيتها وأنا أكتب لك رواية لتحتفظ بها كصديقة لك ، ولتساعدك على أن ترى الدنيا والناس وكل الأشياء من حولك بشكل مختلف ، ولتصبح رفيقتك فى القادم من حياتك ، فهذة الرواية كتبتها لكى تعيش ولا تموت ، وأنت – وحدك – من سيعطيها الحياة .

(١)

غرفة نومه مظلمة تماماً ...

أشعل شمعة بعود كبريت وأمسك بها فى مستوى صدره ، فرأى نفسه واقفا أمام مرآة التسريحة ، وبسبب الظلام الحالك من حوله ، جعلت الشمعة ضوئها يحيط بوجهه ويبرزه بملامح مخيفة ، حيث ظهر أمامه فى المرآة وجه تحيطه هالة برتقالية اللون يأتى مصدرها من أسفل ذقنه ، وتبرز وجها حليقا يجاهد صاحبه فى الهروب من رؤية أية شعرة بيضاء فيه بحلاقته الدائمة ، خشية أن تذكره بأن قطار العمر يشق طريقه مسرعا للدخول إلى المحطات الأخيرة ، كما يظهر ضوء الشمعة أنفاً بارزاً كأنف عبد الناصر الذى كان يعبده فى الماضى ، أخذ يتأمله صاحبه ويتذكر كيف كان شأن هذا الأنف فى سنوات العزة والكبرياء ، عندما كان الزمان زمانه ، يشعر الآن بأن هذا الأنف قد أصبح فى وجهه كما الأهرامات فى صحراء الجيزة ، مجرد شاهد على وجود حضارة مندثرة كانت فى يوما ما ذات شأن ، والآن ما هى إلا حجارة ، وجاءه إحساس مفاجىء بأن أنفه قد تحول بالفعل إلى حجر ، وبرد فعل تلقائى رفع يده الأخرى وأخذ يتحسس أنفه بها ، ولكن الشىء الغريب أنه لم يستطع التحقق من أن الذى تلمسته يده هو أنفه بالفعل أم قطعة حجر باقية من آثار حضارته الشخصية القديمة ؟

بعدها أخذ يتحسس بنفس اليد على رأسه وهو يتأملها جيدا فى ضوء الشمعة ، تذكر كيف كان شعره غزيرا ويختال به أمام الناس فى زمانه الذى ولّى ، عندما كان الزمان زمانه ، قبل أن يسقط نصفه بسبب العامل الوراثى ، ويسّاقط النصف الأخر بفعل الاشعاع الكيماوى الذى كان يتعالج به سراً منذ سنوات قليلة ، حتى أصبحت رأسه بالكامل صحراء جرداء بلا شعرة واحدة .

عندما انتهى من تأمل كامل وجهه ، انتبه فجأة لعينيه ، وشعر برغبة مفاجئة فى أن يتأملهما جيدا ، نظر إليهما فى المرآة بتركيز وكأنه يحاول الغوص فيهما ، هاتان العينان اللتان كانتا لهما شأن فى زمانه - وأى شأن - كانتا كلمة سره فى فهم الحياة والأشخاص ، كانت نظراته هى سلسلة مفاتيح القلوب والعقول التى كان يقابلها ويتعامل معها .

كل من عرفه أقر بفراسته ، وتمكنه من قراءة الشخصيات والوصول إلى مكامنها الداخلية من أول لقاء ، وهى الميزة الوحيدة التى ظلت حية ولم تمت فيه – كما ماتت أشياء كثيرة فى حياته – ولم يتبقى له من إمكاناته ومهاراته سوى تلك المقدرة الغريبة والممتعة فى آن على فتح عقول وقلوب الشخصيات

الانسانية المختلفة والغوص داخل نفسياتهم ، ولا شك أن ذلك قد ساعده كثيرا فى كتاباته - عندما كان يكتب – قبل أن يتوقف عن الكتابة منذ سنوات لسبب غامض هو وحده يعلمه ؟

أيضا ساعده ذلك بشكل كبير عندما كان يهوى التمثيل ، فقد كان عاشقا – ولا يزال – لفن التمثيل ، بدأ كهاو ثم كمحترف على مسارح الاسكندرية وباريس ، فى صدر شبابه ، عندما كان الزمان زمانه ، ثم أصبح بعد ذلك ممثلا على مسرح الحياة يتنقل فيها من دور إلى دور ، ومن شخصية إلى شخصية ، ومن قناع إلى قناع ، حتى أصبح نجم مسرح الحياة الأول وبدون منازع ، كانت أمامه الفرصة لأن يكون قنبلة العالم العربى الجديدة فى التمثيل على شاشات السينما ، ولكنه توقف ، لسبب غامض هو وحده يعلمه ؟

حتى عندما أخذه الحلم الأمريكى إلى هوليوود فى الستينات مع صديقه عمر الشريف ، والذى كان زميلا له فى الاسكندرية ، وتم ترشيح أدهم لأداء دور هام فى الفيلم الحربى الكبير(أطول يوم فى التاريخ) عام ١٩٦٢ ، ولكنه وبعد أن نجح فى الاختبارات ، إعتذر وترك هوليوود بل والولايات المتحدة كلها وهرب ، وفى العام نفسه نجح عمر الشريف فى الحصول على فرصته الأولى بالسينما الأمريكية فى فيلم (لورانس العرب) وبدأ به مشواره هناك ، بينما أدهم طواه النسيان واختاره القدر لأداء دور آخر كان يتطلب منه السرية والإختفاء ، وظل يحتفظ بنسخة من هذا الفيلم لا تفارقه أبدا ، يشاهده كلما أخذه الحنين إلى زمانه الذى ولَى رغم مدته الطويلة ، ويظل حبه لهذا الفيلم سرا كبيرا فى حياته ، ليس فقط لأنه كان سيصبح ممثلا فيه ، ولكن لسبب آخر هو وحده يعلمه ؟

أخذ يركز النظر أكثر فى عينيه ، وكأنه قد أصبح فجأة وجها لوجه أمام نفسه المعذبة ، فسألها :

" أأنت هو أنت ؟

أم أصبحت شخصا آخر ؟

أوجهك هو وجهك ؟

أم أى وجه هذا من مئات الوجوه التى عشت تتنقل بينها فى عمرك الماضى ؟

الليلة هى المتممة لعقدك الخامس ، أصبحت تجلس على قمة الستين ، فى عرف بلادنا أنت الآن على المعاش ، لم تعد تصلح للعمل ، ولا للحياة ..

أين عمرك ؟

فيما أضعته ؟

أين بصمتك ؟

ماذا فعلت ؟

ماذا قدمت ؟
وماذا ستترك ؟
ولمن ؟
أين عائلتك ؟
لماذا فشلت فى تكوين أسرة وعائلة ؟
لازوجة قاسمتك ، ولا أبناء حملوا اسمك ، حتى الكتابة التى تركت لأجلها كل شيء ليس لك منها أعمالاً تحمل اسمك ...
" أدهم الكاشف " .
ياله من إسم خادع ، لقد عشت عمرك كله فى رحلة إكتشاف ، عشت لتكتشف ، وفى النهاية ماذا اكتشفت ؟
وعن ماذا كشفت ؟
ترى أتكون قد فقدت كل معانى الأشياء بما فيها معنى اسمك ؟
هل أنا حىّ حقا ؟
هل تحولت إلى شبح لا وجود له ؟
هل تحولت إلى خيال ؟
هل أصبحت مسخا ؟
هل أصبحت لا شيء ؟
شعر فجأة بتوتر أعصابه ، ولا يدرى لماذا شعر برعشة تسرى فى جسده ، ظهر أثرها عندما وصلت إلى الشمعة والتى أخذ يضغط عليها بقوة كادت تحطمها ، وبدأ ماؤها السائل الساخن يتساقط على يده وسرعان ما يتجمد فوقها ، فاهتزت الشمعة أكثر فى يده ، وأدى إهتزازها إلى تراقص الضوء حول وجهه ، فظهر انعكاسه فى المرآة مما أوحى له بأنه يرى أكثر من وجه يتحرك يمنة ويسرة ، مما عزز من شعوره بأنه قد تحول بالفعل إلى شبح حتى وصل توتره إلى أقصاه عندما ركز فى عينيه أكثر وأكثر ، ولم يدرى بنفسه إلا وهو يصرخ إثر إحتراق باطن يده وهى تطبق على الشمعة فأطفأتها ، وأطفأت معها معارك كانت تدور رحاها داخل عقله ونفسه ، ففتح الباب وخرج من غرفته ..
ولكنه – وكالعادة – لم يستطع أن يخرج من ذاته.

(٢)

من فوهة البراد نزل الشاي المغلى، واستقر في ثلاثة أكواب، قبل أن يحملها صبي المقهى على الصينية ويضعها أمام الأصدقاء الثلاثة الذين اعتادوا هذا اللقاء بالمقهى التجارية بالمنشية مساء كل يوم جمعة عقب الندوة الأدبية بنادى

القصـة والتـي يقـرأون فيهـا أخـر مـا كتبـوا مـن قصـص؛ فبعـد بلـوغ سـن المعـاش شـعر كل منهم بـأن للحيـاة طعمـا آخـر وانتابتهـم رغبـة ملحـة فـي التمتـع بـكل لحظـة فيهـا؛ فليس فـي العمـر أكثـر ممـا مضـى كمـا كان يقـول دائمـاً أسـامة التونـي، والـذي افتتـح مؤخـراً مـع ابنـه مكتبـاً للدعايـة والإعـلان بالأزاريطـة بعـد خروجـه علـى المعـاش. أمـا سـالم مدكـور لـواء الشـرطة المتقاعـد وهـو أكثرهـم بدانـة ًوأخفهـم دمـاً فـكان يلعـب الطاولـة ويراقـب الفتيـات الحسـناوات اللاتـي يمـررن أمـام المقهـى، ومـن بيـن مـا تبقـى فـي فمـه مـن أسـنان يغازلهـن كمراهـق عجـوز قائـلاً:

ـ حلاوتك يا جيل الـ (باديهات) والـ (استريتشات).

ويمصمص شفتيه في حسرة، وهو يرجع بظهره إلى الخلف ويقول:

ـ رحم الله جيل الملاية اللف ؟

كان المقهـى بالنسـبة لثلاثتهـم بمثابـة الصخـرة التـي يكسـرون عليهـا الملـل والروتيـن اليومـي الـذي يعيشـون فيـه؛ شـعور قـاس عندمـا تجـوب الدنيـا طـولا وعرضـا ثـم تحبـس فجـأة داخـل جـدران الشـيخوخة ، وتشـعر بـأن دورك فـى الحيـاة قـد انتهـى فـى نظـر كل مـن حولـك ، كانـت فرحـة أسـامة وسـالم بعـودة صديقهمـا أدهـم إلـى الاسـكندرية كبيـرة لا تقـدر ، فلقـد افترقـوا جميعـا وهـم فـى بدايـة العمـر ، وتقابلـوا مـرة أخـرى فـى آخـره ، ولكـن مـا كان يدعوهمـا دائمـا للدهشـة والاسـتغراب ، هـو عـدم معرفتهمـا مـاذا كان يعمـل أدهـم طيلـة هـذة السـنوات ؟ وأيـن ؟ كلمـا سـألاه تهـرب منهمـا ، ولـم يحصـلا منـه علـى إجابـة واضحـة ، وعندمـا فقـدا الأمـل فـى الوصـول إلـى معلومـة ترضـى فضولهمـا ، صمتـا ، وقـررا فقـط الاسـتمتاع بصديقهمـا الغامـض ، العائـد مـن رحلتـه التـى تبـدو وكأنهـا لـم تكـن بسـيطة علـى الاطـلاق ، ولا تقـل غموضـا عنـه ، أمـا عـن أدهـم فكانـت لقاءاتـه بصديقيـه سـواء فـى نـادى القصـة أو علـى هـذة المقهـى بمثابـة نافـذة يطـل منهـا علـى عالمـه القديـم الـذى تركـه وراءه وهاجـر ، كمـا أصبحـت أيضـا هـى فرصتـه الوحيـدة فـى الخـروج مـن صراعاتـه الداخليـة وقضـاء بعـض الوقـت بعيـدا عـن عزلتـه ووحدتـه ، فجميـع أيامـه أصبحـت متشـابهة منـذ أن عـاد مـن الهجـرة ، الصبـاح يقضيـه فـى مقاهـى محطـة الرمـل القديمـة ، قارئـا للصحـف ، أومتنـاولا للقهـوة فـى محـل البـن البرازيلـى ، ومقلبـا فـى الكتـب القديمـة علـى أرصفـة شـارع النبـى دانيـال ، والعـودة إلـى بيتـه حامـلا غنيمتـه مـن الكتـب الصفـراء ، وبالمسـاء يسـهر أمـام التلفـاز يتنقـل بشـكل سـريع بيـن نشـرات أخبـار الجزيـرة والعربيـة وسـكاى نيـوز ولكنـه يتوقـف بشـكل خـاص أمـام قنـاة بـى بـى سـى البريطانيـة ليتذكـر أيامـه الغامضـة عندمـا كان يعمـل مراسـلا صحافيـا بهـا هنـاك فـى لنـدن والتـى لا يعلـم عـن هـذة الأيـام أحـد ، وفـى السـهرة إذا جـاد عليـه عقلـه بفكـرة قصـة جديـدة يكتبهـا، ولكنـه كالعـادة لايسـتطيع أن ينشـرها لأسـباب هـو وحـده يعلمهـا. فقـط يكتفـي بـأن يقرأهـا علـى أصدقائـه مسـاء

الجمعة التالية بندوة نادي القصة وقبل أن يسهر معهم على المقهى.
وبعد انتهاء السهرة يتسلل إلى حجرة مكتبه والتي بها مكتبة ضخمة تضم آلاف الكتب التي جمعها طوال حياته من جميع البلدان التي زارها، ويجلس إلى مكتبه ويضيء (أباجورة) صغيرة، ثم يدير (جرامافونه) القديم والذي لا زال يحتفظ به ويستمع إلى أسطوانة أوبرالية، ثم يخرج كشكول مذكراته ليسجِّل به اللحظات التي قضاها مع أصدقائه، وما حدث له طوال اليوم من مواقف تستحق أن تسجل، ولكن كما تعود فى حياته السابقة أن يكتب مذكراته بألغاز هو وحده من يعرف شيفرتها ، ولا يكتب أى كلام صريح حتى ولو كان بسيطا وليس له أهمية ، وهذا مما علمته الأيام ورغم عدم وجود جدوى أو أهمية لهذا الأمر إلا أنه تعود عليه ولا يستطيع تغييره ، وبعد أن ينتهي ينصرف إلى النوم ، يضع رأسه على الوسادة وثمة دمعات قليلة تتولد فى عينيه كما فى كل ليلة ، وهى أيضا لسبب غامض هو وحده الذى يعلمه .

(٣)

وفي مساء الجمعة التالية، اجتمع أدهم الكاشف وسالم مدكور على المقهى التجارية ـ كعادة كل أسبوع بعد حضور ندوة نادي القصة ـ وقد تغيَّب عنهما أسامة التوني على أن يلحق بهما بعد قليل نظراً لظروف عمله. وكان أدهم قد ازداد عليه تعكر مزاجه بشكل بدا واضحا وملحوظاً، وذلك لعدم كتابة قصة جديدة هذا الأسبوع، وأرجع ذلك إلى عدم وجود شيء جديد في حياته، فالرتابة والملل والروتين هم أبطال جميع أيامه.
وحاول سالم بخفة دمه المعهودة أن يُخرج أدهم من هذه الحالة؛ فقال:
ـ فرصة ألاعبك طاولة وأنت متعكر المزاج.. لعلي أكسبك ولو مرة واحدة في حياتي.
فابتسم أدهم ابتسامة باهتة، ولكنها أسعدت سالم وأشعرته بنجاحه في إضحاكه وزادته حماساً وبدآ في اللعب، ولكن سرعان ما جاء صديقهما أسامة وأغلق الطاولة وأفسد عليهما اللعبة وقال لأدهم:
ـ عندي لك عرض سيعجبك كثيراً.
فاستغربا من دخلته عليهما، وكنوع من الاعتراض لم يردا عليه؛ فتابع أسامة حديثه غير عابيء باعتراضهما:
ـ لقد كلفتني عائلة كبيرة وثرية أن أعلن لهم في مكتبي عن احتياجهم لرجل في مثل عمرك تقريباً للعمل عندهم.
فقال أدهم بنفاد صبر:

- خادم ؟
- بالطبع لا، ولكن جليس.
لم يستطع سالم أن يمنع نفسه من السخرية؛ فقال:
- جليس صالح أم جليس سوء؟
وانفجر في الضحك، ولكن أسامة قاطع ضحكه قائلاً:
- هذه عائلة كبيرة مكونة من أربعة أخوة - رجلان وامرأتان وأسرهم - أما عن والدهم - وهذا هو الموضوع ، رجل مسن ويعاني من المرض ولا يستطيع التحرك بمفرده، وأبناؤه مشغولون عنه في حياتهم ومسئولياتهم، ويريدون رجلاً في مثل عمرك ليجلس معه وأنا أرى أنها فرصة مناسبة لك.
فثار أدهم عليه قائلاً:
- أنا لست خادماً، ابحث لهم عن شخص غيري. أنا لا أدري كيف سمح لك عقلك أن تتخيلني في مثل هذا الموقف؟
- أنا لم أقل خادماً، فقط قلت جليساً.. كل ما عليك فعله هو أن تسلى الرجل وتقرأ له الجرائد وتناوله الطعام والدواء وتسنده عند دخوله دورة المياه.
فقاطعه أدهم ساخراً:
- وأحضِّر له الرضعة وأنيمه في سريره.
هنا نهض أسامة معترضاً وقال:
- أنا غلطان لأني أريد مساعدتك وإخراجك من الملل الذي تعيش فيه وتشتكي لنا منه.
نهض أدهم هو الآخر ونظر له نظرة حادة، ثم تركه وانصرف، ولحق به سالم مسرعاً وأخذه ومشيا سوياً على كورنيش البحر في اتجاه قلعة قايتباى ، وتأبطه سالم بذراعه قبل أن يقول:
- أنا لا أدري سر كل هذا الغضب. هذا عرض من حقك أن تقبله أو أن ترفضه.
رد عليه أدهم بنظراته قبل كلامه، وقال:
- هل على أخر الزمن أعمل خادماً يا سالم؟ أنا عندما سمعت منه هذا الكلام شعرت بإهانة شديدة.
فقال سالم مؤكداً:
- أنت فقط حساس زيادة عن اللزوم، وبصراحة أنا أراها فرصة جيدة لكسر الملل وقضاء وقت الفراغ الكبير بجوار رجل ستتقاضى عنه أجرا، هذا بالإضافة إلى أنها تجربة من المؤكد أنها ستضيف إليك ككاتب.
سرح أدهم بخياله قليلاً متأملاً كلام صديقه، والذي أصاب مكمن جرحه الحقيقي، ثم قال:
- ولكن يا صديقي أنا أريد كسر الملل والروتين بصفاء الذهن وروقان البال

وليس بتحمل مسئولية رجل مريض.
فقال سالم محاولاً إيجاد مخرج:
ـ اذهب وتحدث معهم وانظر كيف تسير الأمور، وإذا وجدتها لا تتناسب معك تقدم بالاعتذار وكأن شيئا لم يكن.
عاد أدهم إلى بيته مرهق العقل من كثرة التفكير، وتسلل بهدوء إلى غرفة مكتبه، نظر إلى نفسه فى المرآة يحدثها كما يفعل دائما عندما يريد التحاور مع نفسه ، وقلَب الأمر فى رأسه فشعر بأن نصف عقله يقبل والنصف الآخر يرفض ، قال لنفسه « أبعد كل هذا العمر ، وكل هذة الرحلة ينتهى بى الحال خادما عند رجل مريض ؟ أم أنظر للأمر على أنه مجرد تجربة جديدة لى ككاتب ستظهر لى أشياء لا أعرفها ؟ ، لالا أنا اكتشفت من الحياة ما يكفينى ويزيد ، ستكون مهانة لى أن أضع نفسى فى مثل هذا الوضع بعد رحلة عمرى الفائتة ، صحيح أنه لا أحد يعلم عنها شيئا ولكنى فخور بها على أى حال ، لن أقبل هذة الفرصة ، ولكن كما قال لي صديقي سالم سأذهب إليهم وأرى الوضع وبعدها سأعتذر لهم بأية حجة حتى لا أظل ألوم نفسي بعد ذلك وأقول كان لابد أن أذهب قبل أن أرفض ”..
هذه نفسي وأنا أعرفها جيداً..
لوَّامة .

(٤)

في الخامسة من فجر اليوم التالي دق جرس المنبه، وعلى اثره استيقظ أدهم من نومه المتقطع، وفي حماس ونشاط استغرب ـ هو ـ لهما، كان قد أنهى إفطاره وارتدى ملابسه وصلى الصبح ونزل.
ركن سيارته الصغيرة «وفاء» ـ هكذا يطلق عليها ـ ومرَّ على صديقه أسامة، وبعد أن اعتذر له عن سوء معاملته بالأمس انطلقا بالسيارة إلى فيلا العائلة بالأنفوشى ، وهى فيللا من فيلل الأسكندرية القديمة تحمل رقم ١٨ وتطل على شاطيء البحر وتقع فى منتصف الشارع الذى يبدأ من حلقة الأسماك وقصر ثقافة الأنفوشى ، وحتى قصر رأس التين.
كان شعور أدهم المسيطر عليه هو أنه يدق أبواب تجربة جديدة في حياته يشعل غموضها الحماس والفضول في نفسه. كانت الفيلا الصغيرة التي تقطن بها وتملكها العائلة قديمة، تبدو وكأنها أثرية من عصور ولّت وتركتها شاهداً على ذلك التاريخ العريق.
كانت مكونة من طابقين وتبدو وكأنها آيلة للسقوط، كل شيء بها ينطق بالقدم

وبالماضى الذى ولى، بدءً من البوابة الحديدية الصغيرة والمتهالكة بالخارج والتى غطتها الأشجار المتدلية فوقها،واللافتة النحاسية القديمة المعلقة عليها والمكتوب فيها «فيلا ١٨» والتى لم تتغير منذ أن كان الإنجليز يحتلون المدينة، مروراً بالحديقة الصغيرة التى تتقدم مدخل الفيلا والتى كان يشعر أدهم وهو يسير فيها بأن كل شىء بها ينطق بالموت والذبول،حيث الأشجار الكبيرة التى جفت عروقها وأصبحت كجسد العجوز، والزهور التى فقدت إخضرارها، والأوراق التى تساقطت وأصبحت تتطاير مع أرق نسمة هواء، كانت الفيلا تطالعه وهو يقترب من مدخلها كوجه عجوز أصابتها الشيخوخة رغم ما تبقى منها من مسحة جمال تشعره بأنها كانت صبية جميلة فى يوم ما، حيث يذكره معمارها بتلك الواجهات الجميلة التى تبقت لنا من الصبغة الأوروبية التى كانت تصبغ كل مبانى الاسكندرية القديمة، كانت وكأنها كتاب تاريخ قديم إصفرت أوراقه، ولكنه يحوى بداخله فصولا من تاريخ لم يمحى، فقط يحتاج لمن يقوى على فتح ذلك الكتاب وتقليب صفحاته، وقراءة ما فيه وما بين سطوره،وما أكد له أيضاً قدم هذه الفيلا أرضيتها المكسوة بالألواح الخشبية، وذلك بعد أن دقا جرس الشقة الموجودة بالدور الأول منها وقابلهما وجه امرأة، سرعان ما لفتت نظر أدهم، وكانت نظرة واحدة بينهما كافية لأن يكوِّن أدهم فيها وجهة نظر؛ فأعطاها سناً هو حوالي الثامنة والثلاثين أو يزيد ، وأنها تبدو من الطبقة الأقل من المتوسطة. ولكي لا تطول بهما الوقفة أمام الباب أبلغها أسامة بسبب الزيارة، وسرعان ما رحبت بهما وأدخلتهما إلى الصالون.

أخذا يجيلان البصر بجنبات الفيلا، فإذا كان منظر الفيلا من الخارج يوحي بما تبقى من التاريخ القديم، فهى من الداخل تجسيد حي لكل ما هو قديم وأصيل.. الأرضية الخشبية، الجدران المشروخة، السقف العالي في مهابة قلما نجدها في بيوتنا المعاصرة، حتى الشرفات ذات الأسوار الحديدية القديمة، رائحة غريبة احتلت نفس أدهم، رائحة الماضي التي تفصح له بأن ثمة حكايات وأحداث حدثت هنا في نفس هذا المكان الذي يجلس فيه. فقط لو أخذت تلك الجدران فرصتها في الإفصاح عما جرى هنا وما شهدته من أحداث؛ لنطقت بما لم تنطق به كتب التاريخ عن تلك العائلة وتاريخها وأسرارها ، والتي تبدو له كأشباح في عقله لم تترجم بعد إلى واقع ملموس.

ولم يُفق أدهم من شروده إلا مقدم تلك المرأة، وهي تحمل صينية الشاي وتقدمه لهما، فاختار كوباً صغيراً ووضعه أمامه على المنضدة.

مرت فترة صمت قضوها في ارتشاف الشاي، ثم قطعتها هي قائلة:

ـ من منكما الذي سيعمل معنا؟

فأشار أسامة إلى أدهم، وقال:

ـ إنه صديقي.. الأستاذ أدهم الكاشف.
فقالت له، وهي تتفحصه من أعلاه لأسفله:
ـ وفيم كنت تعمل قبل ذلك؟
فرد عليها أدهم بابتسامة هادئة سبقت كلامه، وقال:
ـ قضيت معظم حياتي بالخارج، وأنا الآن على المعاش.
نظرت له المرأة نظرة جريئة ذات مغزى، وقالت:
ـ لكنك تبدو أصغر من سن المعاش بكثير.
اضطرب أدهم قليلاً بعدما لاحظ نظرتها، وانتابه شيء من القلق لا يدري سببه فقال مؤكداً:
ـ لست ممن يظهر عليهم أى شيء عن حقيقتهم ، وأعتبر ذلك ميزة.
واشترك أسامة في الحديث محاولاً امتصاص قلق وتوتر صديقه؛ فقال:
ـ الأستاذ أدهم كان فى الأصل فنانا ، ممثلا وكاتبا ، وله العديد من المجموعات القصصية والروايات ولكنه لم يرد نشرهم نظرا لأسباب خاصة به ، وهو واسع الثقافة والمعرفة وله صولات وجولات في جميع أنحاء العالم.
فقالت المرأة، وثمة سخرية تعلو شفتيها:
ـ وما الذي اضطره لمثل هذا العمل طالما أنه يمتلك مثل هذه المكانة؟
لم ترق لأدهم هذه السخرية، وحاول أن يرد عليها معنفاً إياها، ولكن أسامة لحقه، قائلاً:
ـ الأستاذ أدهم نظر للأمر نظرة إنسانية بحتة. هذا بالإضافة إلى أنه يمتلك الكثير من أوقات الفراغ.
فابتسمت وقالت:
ـ على العموم من ناحيتي فأنا أراه رجلاً مناسباً؛ حيث يبدو عليه الوقار والعلم والثقافة، وهذا سيساعد أبي كثيراً.
فسألها أسامة مبتسماَ:
ـ واضح أن حضرتك ابنته.
ـ نعم، أنا ابنته الثانية سلوى.. متزوجة هنا بنفس البيت، ولكني لا أستطيع خدمته؛ لإصابتي بانزلاق غضروفي.
واستأذنتهما وذهبت لترى أباها هل استيقظ أم لا.. وبعد قليل عادت ودعتهما إلى غرفته.
دخل أدهم غرفة الرجل الكبير لأول مرة، وأول ما وقعت عليه عيناه، مكتبة ضخمة تحوي مئات الكتب، سال لعاب أدهم لها؛ فالكاتب دائماً عندما يرى مكتبة يصاب بنفس حالة الانبهار التي تصيب من ينظر إلى امرأة صارخة الجمال والأنوثة. ثم رأى صورة كبيرة تتصدر الحائط المواجه للباب، وعلى

ما بدا له أنها صورة للرجل في صدر شبابه وهو يرتدي بذلة قبطان بحري بجوار إحدى الباخرات الكبيرة، ثم وقع بصره أخيراً على رجل عجوز يجلس في سريره، ولكن شتان بين ذلك الوجه والآخر الذي طالعه في الصورة المعلقة. إنه الآن يرى وجهاً تملأه التجاعيد ورأس قد اشتعل شيباً، وما لفت نظره أيضاً ذلك الراديو القديم والصغير الحجم الذي يمسكه الرجل في يده، والذي انتقل منه إلى مسامعه صوت أم كلثوم تغني، وتقول:

"عايزنا نرجع زي زمان.. قول للزمان ارجع يا زمان" *

لماذا هذه الأغنية بالذات، وهل تعبر عن حالة الغربة الزمنية التي يعيشها هذا الرجل الآن. لا يدري أدهم لماذا خطر له هذا الخاطر، ولكنه أفاق منه على صوت ابنته سلوى تقول له:

ـ هذا هو الرجل الذي جاء ليخدمك يا أبي.

لم تعجب أدهم هذه الكلمات الأخيرة، ولكنه ابتسم عندما نظر نحوه الرجل، وسرعان ما زالت الابتسامة بعدما قابلها الرجل بنظرة تهكم وعدم اهتمام، وغرق مرة أخرى مع الأغنية وصوت أم كلثوم.

أخذتهما سلوى وخرجت إلى الصالة مرة أخرى، واعتذرت لهما عن سوء مقابلة الأب لهما، معللة ذلك بأنه دائما غاضب وصامت ولا أحد يعلم لماذا. ولكنها أكدت على أنه طيب القلب وحنون. واتفق معها أدهم بأنه مستعد للعمل من الغد ـ على عكس ما كان ينوي ـ وخرج من البيت وسؤال واحد يسيطر على عقله، وهو :

"ما حكاية هذا الرجل؟"

أسرة سلوى

(الفقر)

(٥)

لـم يسـتطع أدهـم النـوم فـي تلـك الليلـة مـن كثـرة التفكيـر فـي هـذا الرجـل، ومـا الـذي يجعلـه حزينـا ومهمومـاً بهـذه الصـورة، ولمـاذا هـو صامـت بهـذا العمـق. أحيانـا يكـون رنيـن الصمـت أبلـغ وأكثـر تأثيـراً مـن الـكلام، وتسـاءل فـي نفسـه أيضـا:
"مـا حكايـة هـذه المـرأة والتـي كانـت تنظـر لـي نظـرات جريئـة كانـت تهزنـي مـن الداخـل وتقلقنـي ومـا مصيـري معهـا، وكـم عـدد الأشـخاص فـي تلـك العائلـة الذيـن لـم أقابلهـم بعـد" ؟

.. كل تلك الأسئلة كانت كفيلة بألا تذيقه طعم النوم حتى الصباح.

كان أدهـم قـد قـرر مـن قبـل عـدم قبـول هـذا العمـل، ولكنـه بعـد أن قابـل هاتيـن الشـخصيتين أثارتـا فيـه فضـول الكاتـب فـي معرفـة حكايـات تلـك العائلـة ومـا بحيـاة أفرادهـا مـن أسـرار.

وعندمـا انتـزع الصبـاح خيوطـه البيضـاء مـن خيـوط الليـل السـوداء قـام أدهـم وتوضـأ وصلـى الصبـح ثـم نـزل واشـترى الجرائـد القوميـة وبعـض الجرائـد المسـتقلة والمعارضـة، فهـو لا يـدري أيهـم يـروق لهـذا الرجـل، ولكنـه فكـر فـي أنهـا سـتكون مدخـلا جيـدا لـه.

وفـي تمـام الثامنـة صباحـا دق جـرس البـاب، وتقابـل وجهـه بنفـس وجـه المـرأة عندمـا فتحـت لـه فألقـى عليهـا تحيـة الصبـاح فتلقتهـا منـه بوجـه بشـوش وابتسـامة توحـي بفرحتهـا بقدومـه، وأجلسـته بالشـرفة المطلـة علـى البحـر ليتنـاول كوبـا مـن الشـاي بالحليـب، بعدمـا أقسـم لهـا أنـه تنـاول إفطـاره.

جلست معه بالشرفة وكانت قد أتمت ارتداء ملابس الخروج فسألها قائلاً:

ـ أنتِ خارجة؟

ـ نعم ذاهبة إلى العمل

ـ وأين تعملين؟

ـ بعيادة في محطة الرمل.

ـ وهل استيقظ يوسف بك؟

ـ نعم. إنه يستيقظ مبكراً، ولقد ساعدته في تناول الإفطار.

وقادته إلى غرفة أبيها، وودعته بنظرة أربكته، وانصرفت.

وجـد أدهـم نفسـه لأول مـرة بمفـرده مـع هـذا الرجـل؛ فألقـى عليـه تحيـة الصبـاح

فنظر له بوجه عبوس لا ينُم عن أي استعداد للود، ولم يرد؛ مما أزاد ارتباك أدهم، وظل عقله يدور في رأسه محاولاً إيجاد أي مدخل للحديث ولكنه لم يجد. ومرَّ أكثر من ساعتين، والوضع باق كما هو عليه حتى استسلم أدهم لسِنة من النوم جاءته وهو جالس على كرسيه.

نظر يوسف بك إلى أدهم وهو نائم، وأخذ يتفحصه ويتأمله جيداً فوجد وجها لرجل يبدو عليه الوقار، وأوحت له نظارته الطبية بأنه مثقف وواسع الاطلاع، حتى ملابسه وإن كانت بسيطة ومتواضعة فهي لا توحي بأنه فقير.. «فما الذي جاء به إلى مثل هذا العمل؟».

وأثناء تفحصه لأدهم لمح الجرائد التي اشتراها له موضوعة على (كومودينو) صغير بجوار سريره فحاول جاهداً أن يمد ذراعه ويلتقط إحداها بهدوء دون أن يوقظ أدهم، ولكن محاولته باءت بالفشل حيث اصطدمت يده بكوب الماء الذي سقط على الأرض، والذي على أثر صوت ارتطامه بالأرض هبَّ أدهم مفزوعاً، وعندما رأى ما حدث اعتذر للرجل عن نومه ووبّخ نفسه على إهماله وأخذ يرفع الزجاج المتناثر على الأرض.

أما يوسف بك فشعر بحرج شديد وبعجز في نفس الوقت، وأخذ أدهم يكرر اعتذاره له، ثم أخذ يقرأ له عناوين الأخبار في الجرائد حتى إذا وجد على وجه الرجل اهتماماً بأحد العناوين قرأ له تفاصيل هذا العنوان حتى انتهى من قراءة جميع الجرائد.

وعندما أذن لصلاة الظهر قام أدهم فتوضأ وصلى بجوار سرير الرجل الذي ظل يتأمله وهو يصلي وتدور في عقله أسئلة كثيرة عنه.

وعندما انتهى من الصلاة أشاح الرجل وجهه عنه بسرعة حتى لا يعلم أدهم أنه كان ينظر إليه.وانتهى وقت العمل بحلول المساء ومر اليوم دون أن ينطق الرجل بكلمة واحدة، ونزل أدهم في نفس الوقت الذي كانت سلوى عائدة فيه من عملها، فتقابلا على السلم الداخلى للفيلا، وكانت في عينيها آثارٌ لدموع حاولت أن تخفيها وتسأله عن الأخبار وعما فعله أبوها معه، ولكن أدهم لاحظ ذلك فسألها عن سبب هذه الدموع؛ فانفجرت في البكاء وتركته وصعدت مسرعة إلى الشقة.

ضرب أدهم كفا بكف من الغموض الذي يحيط بهذه العائلة، وعاد إلى بيته بعد أن تملك منه الشغف في كشف كل الأوراق الغامضة التي قابلها بعد أن أصبحت المسألة بالنسبة له مسألة تحدي.

(٦)

فـي الصبـاح دق أدهـم جـرس البـاب، وعندمـا فُتـح تقابـل وجهـه بوجـه فتـاة جميلـة سـرعان مـا أعطاهـا سـن الثامنـة عشـرة مـن عمرهـا، وقبـل أن يحـاول البحـث عـن أي كلام يبـدأ بـه حديثـه بادرتـه الفتـاة، وسـألته:

ـ عمو أدهم؟

ـ نعم.

ـ تفضل.. أمي بانتظارك.

ـ أأنتي ابنة مدام سلوى؟

ـ نعم، أنا ابنتها نهى.

أدخلتـه نهـى، وصاحـت علـى أمهـا؛ فخرجـت سـلوى مـن غرفتهـا واسـتقبلت أدهـم واسـتأذنتهما نهـى فـي النـزول للحـاق بمدرسـتها، وقبـل أن تنـزل ابتسـمت لأدهـم وقالـت:

ـ فرصة سعيدة يا عمو أدهم.. لا بد وأن أجلس معك لاحقاً لأتعرف عليك أكثر.

فابتسم أدهم، وقال:

ـ على الرحب والسعة يا جميلتي.

أنعشت تلك المجاملة، الحماس في نفس نهى وانطلقت كالفراشة.

وما أسـعد أدهـم فـي هـذه اللحظـة هـو ظهـور عضـو جديـد مـن أعضـاء تلـك العائلـة التـي لـم تكشـف عـن باقـي أعضائهـا بعـد.

أبلغتـه سـلوى أن أباهـا تنـاول إفطـاره وطلـب أن ينـام قليـلاً، وأخذتـه إلـى الشـرفة المطلـة علـى شـاطيء البحـر، وقالـت:

ـ لنجلس قليلا بالشرفة حتى يستيقظ أبي.. هل يضايقك هذا؟

ـ بالعكس؛ فأنا أريد التحدث معك.

فابتسمت في نفسها ابتسامة حاولت أن تداريها، وقالت:

ـ في أي شيء يا ترى؟

ـ أريد أن أسألك عما كان يبكيكِ بالأمس.

وسـرعان مـا زالـت الابتسـامة مـن علـى شـفتيها، وتملكتهـا الحيـرة والخـوف مـن شـيء مـا لا يعلمـه أحـد سـواها، وجاهـدت فـي أن تـرد وتقـول:

ـ أبداً لا يوجد شيء.

ـ إذا كنت لا تثقين فيَّ؛ فاسمحي لي أن أعتذر لك. ما قصدت أبداً اقتحام حياتك.

فسارعت مؤكدة:

ـ ليسـت مسـألة ثقـة، ولكنـه أمـر أخجـل أن أحدثـك فيـه.. اتركـه حتـى يـزول الحـرج بينـي وبينـك.

وقعت جملتها الأخيرة في نفس أدهم كوخزة دبوس وشعر باضطراب وقلق عندما قالت له «حتى يزول الحرج بيني وبينك»، فهو دائما يشعر أن القدر يسوقه مع تلك المرأة إلى طريق غير واضح النهاية، وحاول أن يخرج من اضطرابه باحثاً عن أي سؤال حتى قال:

ـ ابنتك جميلة ، في مثل جمال أمها.

ابتسمت سلوى؛ فاستغل أدهم ابتسامتها وسألها:

ـ ولكن لماذا لم أرها من قبل؟

ـ كانت عند خالها فريد بـ «لوران» * .. تجلس مع ابنة خالها سالي نظراً لمرضها.

ـ وأين زوجك.. أنا لم أره حتى الآن؟

فنظرت إلى البحر الخامد المفروش على بعد النظر منها، وسرحت بخيالها وتنهدت بألم وأسى قبل أن تقول:

ـ زوجي مع زوجته الثانية، ولا يأتي إلينا إلا يوما واحدا في الأسبوع للاطمئنان على الأولاد.

هنا شعر أدهم بأن الطريق في كشف غموض تلك المرأة، وما يعتريها من حزن ونظرات متقلبة، قد بدأت ملامحه في الوضوح؛ فسألها قائلاً:

ـ وأين يعمل زوجك؟

ـ موظف بميناء الإسكندرية * .

ـ وهل حدث بينكما طلاق؟

ـ لقد طلبته مرارا، ولكنه رفض أن يطلقني.

واستسلمت سلوى للراحة التي يشعر بها كل من جاءته فرصة للفضفضة؛ فأردفت تقول:

ـ طول عمره بعيد عني حتى منذ فترة زواجنا الأولى بل بعيد عنا جميعاً. كان يعاملني معاملة سيئة بسبب وبدون سبب، دائما ما كان يقابلني بوجه عبوس ، لا أذكر أنه قال لي كلمة أحبك أكثر من ثلاثة مرات: الأولى أثناء الخطوبة، والثانية أثناء الزفاف، والثالثة عندما أنجبت نهى.

لا أدري لماذا تغيَّر من ناحيتي..

واستسلمت للبكاء..

مدّ أدهم يده ليجفف دموعها؛ فسرت في جسدها قشعريرة سرعان ما انتقلت إليه وشعر بها؛ فسحب يده بهدوء، فقالت:

ـ أنا آسفة.. ما كان يجب أن أثقل عليك بهمومي.. لقد ارتحت لك.

ـ لا تعتذري، فأنا منذ دخلت هذه الفيلا وأنا أريد التعرف على كل من فيها، ولكن ألا تريدين أن تحكي لي عن سبب بكائك بالأمس؟

عادت إليها الحيرة مرة أخرى، وبدا عليها الخوف وسرحت بخيالها في البحر، وقالت:
ـ صدقني.. سأخجل من الحديث في هذا الأمر.
ـ أتعدينني بأنك ستخبرينني به في وقت لاحق؟
ظهر عليها التردد للحظات ثم أومأت برأسها، وقالت:
ـ أعدك.
وانطفأ الحديث بينهما وساد الصمت لفترة، وحاول أدهم قطع هذا الصمت فقال:
ـ أريد الآن أن أسألك عن أبيكِ. هذا الرجل يثير فضولي بشدة. لماذا هو دائم السكوت ولا ينطق بشيء.. هل هو غير مرتاح لوجودي؟
ـ لا، ولكن أبي بداخله حزن عميق، ولا أحد يعلم سببه، ولكني أظن أن السبب هو هجر إخوتي له حيث تركوه وحده وانشغلوا عنه، وأصبح بالنسبة لهم في ذاكرة النسيان، غير أن تصرفات أخرى صدرت منهم مؤخراً تجاهه أحدثت بداخله جرحا شديداً؛ فأغلق قلبه وفمه وأصبح لا يتحدث إلى أحد.
ـ أريد التعرف على أولاده.. حدثيني عنهم.
ـ نحن أربعة أخوة: رجلان وامرأتان، الشقيق الأكبر لنا هو فريد، يعمل قبطاناً مثل أبي، ويقطن بلوران، وهو أغنانا وأيسرنا حالاً، والشقيق الثاني هو الدكتور بلال، أخر العنقود يمتلك معرضا للسيارات بجليم * ، ولا يأتي لزيارتنا إلا في أوقات الضرورة القصوى. أما عن شقيقتي الوحيدة فهي تدعى شهيرة وهي تمتلك محل كوافير حريمي بكليوباترا * ، وتصغرني بنحو ثلاث سنوات، وجميعنا متزوج ومستقر إلا أن بلال دائما ما يعكر صفو استقراره بنزواته وحياة العهر والمجون التي يحياها بالطول والعرض.
قال أدهم بلهجة يقصدها:
ـ وأنتِ؟
صدمتها الكلمة وهزتها:
ـ ماذا عني؟
ـ لماذا تعيشين هنا بمفردك؟
رجعت بظهرها إلى ظهر الكرسي، وأسندت رأسها إلى حافته العلوية حتى أصبح وجهها يقابل سقف الشرفة التي تعلوها، وقالت:
ـ أنا كُتِب عليّ الفقر في كل شيء. الفقر في الحب، الفقر في السعادة، والفقر أيضا في المال.
لقد تزوجت من عاصم وكان فقيرا وكنت وقتها غنية جدا نظرا لغنى أبي، وقد اخترت عاصم رغم فقره لأني أحببته ولكن أبي عارضني بشدة؛ فقلت له:
ـ الفقر ليس عيباً وأنت بدأت فقيراً حتى وصلت لما أنت عليه الآن؛ فقال:

ـ لو تزوجتِه سأحرمك من ميراثي ولن أعطيكِ شيئاً
ولما كان حبي لعاصم أقوى من حبي للمال وافقته وتزوجت من عاصم في شقة أبيه وكان عمري وقتها سبعة عشر عاماً، ولكن وجود زوجة أبيه الصغيرة معنا في الشقة كان سببا لافتعال المشكلات الدائمة بيني وبين عاصم من ناحية، وبينه وبين أبيه من ناحية أخرى، حيث كانت امرأة شيطانية الطباع والنفس، دائما ما كانت تختلق لي المشكلات، وعندما توفي والده طردتنا من شقتها لتتزوج فيها رغم أن عمر ابنها لم يكن يتجاوز العام والنصف، ووجدنا أنفسنا في الشارع خصوصا بعدما اكتشفنا أن أباه كان قد كتب الشقة باسمها. وقتها جئت إلى أبي وقبَّلت يده ليوافق أن نعيش معه هنا في الفيلا، خصوصاً أنه يعيش بمفرده بعد أن طرد أخي بلال منها لسوء سلوكه،وعرضت عليه أن أكون خادمة تحت رجليه على ألا يتركنا في الشارع، وبعد جهد طويل وافق أخيرا على أن نعيش هنا، ولكنه ظل يعامل عاصم معاملة جافة جعلته يتأفف مني ومن البيت.
وفي يوم من الأيام كنت أنظف الفيلا، والماء والصابون يملآن كل أرجائها، وبينما أنا أمسح الأرض انزلقت قدماي وسقطّتُ على ظهري وأصبت بانزلاق غضروفي جعلني لا أستطيع القيام بواجبات البيت الثقيلة، بالكاد أصنع الطعام.
ـ ولماذا تعملين؟
ـ حتى لا أضطر إلى سؤال أبي أو زوجي عن مال، رغم أن زوجي يرسل لي أول كل شهر مصاريف دراسة الأولاد، ولكنه لا يترك لي مصروفا للبيت لعلمه بأنني أعمل ـ وهذا أكرم عندي ـ ورضيت بحالي وبهذه الشقة التي دُفنت فيها وفى الفيلا كلها بالحياة، والتي كادت أن تطبق على أنفاسي وتخنقني ولكن لا مفر.
ـ ولكنها شقة رحبة وجميلة كما أن الفيلا رحبة وجميلة ويكفي أن روحك تملؤها.
شعرت سلوى بتلك الانتعاشة التي تشعر بها الأنثى عندما تسمع ما يغذي أنوثتها، وامتلأت روحها بالبهجة؛ فقامت فجأة وسحبته من يده قائلة:
ـ قم لتأخذ جولة بالشقة وتراها كلها.
لم يستطع أدهم مقاومة رغبتها وقام معها ليتجولا في أنحاء الشقة كلها والتى تحتل الدور الأول علوى من الفيلا بأكمله، فقالت له:
ـ انظر إلى هذه الشقوق الموجودة في الحائط.. دائما ما أشعر أن بداخلي شقوقا مثلها .
ـ بالفعل .. إنها تريد الترميم.
فقالت سلوى بلهجة خبيثة ونظرة ماكرة تقصدها:
ـ أية شقوق. الموجودة في الحائط أم الموجودة بداخلي؟
فقال أدهم مؤكدا، وهاربا من تلك النظرة:

ـ الإثنان يريدان الترميم.
فقالت سلوى، وهي مازالت تسدد له نظراتها الجائعة:
ـ ولماذا لا تحاول أن ترمم أنت تلك الشقوق؟
شعر أدهم بقشعريرة تسري في جسده؛ فقال محاولا إخفاءها:
ـ أية شقوق؟.. الموجودة على الحائط أم التي بداخلك؟
فقالت بخبث وبلهجة مؤكدة:
ـ الإثنان يريدان الترميم.
حاول أدهم أن يخرج من تلك اللحظة الآسرة، وسألها عن باقي الغرف فقالت، وهي تشير إلى إحداها:
ـ هذه غرفة السُفرة التي (كنا) نجتمع فيها لتناول الطعام.
دخلها أدهم ففاجأته خيوط العنكبوت التي تكتسي بها الجدران والسقف، ولفتت نظره كمية التراب التي تغطي الترابيزة وكراسيها؛ فقال مستغربا:
ـ منذ متى لم تجتمعوا على هذه السُفرة؟
فأجابت بحسرة:
ـ منذ سنوات الزمن الجميل.
وخرجا من غرفة السفرة ودخلا الغرفة المجاورة لغرفة الرجل الكبير، فوجدها غرفة جميلة ومرتبة غير تلك الغرفة السابقة، حيث تبدو عليها العصرية والنظام. وجد صورا لبعض المطربين الجدد تعتلي الحائط وتلفازا صغيرا ومكتبا رُصّت عليه بعض الكتب بنظام،وجهاز (لاب توب) صغيرا، وبعض الكتب متناثرة على السرير فقالت سلوى:
ـ هذه غرفة نهى.
وأخذت تجمع الكتب المتناثرة على السرير، وهي تقول:
ـ انظر.. إنها تذاكر في كل مكان ثم تترك كتبها دون اهتمام، ولكني ألتمس لها العذر لأنها في الثانوية العامة، وأنت تعلم مدى الاضطراب الحياتي والفوضى التى تسيطر على الطلبة في هذه المرحلة.
خرجا من غرفة نهى، واقتربا من غرفة مفتوحة؛ فدخل أدهم وهي من خلفه، فقالت بصوت متهدج:
ـ أما هذه فغرفة نومي.
أصيب أدهم باختلال في رجليه للحظة، ولكنه حاول التماسك وأخذ يجول بنظره في الغرفة باهتمام، وهي تتابع نظراته بشغف وبأنفاس متلاحقة جعلت صدرها المنتفض يعلو ويهبط في سرعة ملحوظة. أما أدهم فظل يجول بنظره في أرجاء الغرفة فوجدها موحشة يبدو عليها الإهمال من تناثر الملابس في كل مكان وفساد الدولاب وبعض أبوابه المكسورة، ولم يدر لماذا ربط بين فضاء

هذه الغرفة وما يعتريها من كركبة ووحشة، وبين الفضاء الداخلي لنفسية سلوى وما يعتريها أيضا من كركبة ووحشة؛ فتلك الغرفة لا تصلح أبدا أن تكون غرفة نوم لامرأة في مثل جمالها وعمرها، حيث أحس أن كل شيء في هذه الغرفة ميت وبلا روح، حتى سمعها تقول:

ـ هذه الغرفة شهدت أتعس لحظات حياتي. لحظات الوحدة والهجر والعذاب. وهذا السرير الذي يبتلعني كل ليلة كقبر صغير داخل قبر كبير وهو الغرفة التي تمثل حياتي المغلقة والموحشة مثلها. وهذه الوسادة التي أحتضنها كل يوم متخيلة أنها زوجي عاصم الذي يمثل غيابه في حياتي نفس تلك الوسادة التي بلا قلب ولا روح ولا إحساس؛ فكلما دخلت إلى هذه الغرفة شعرت بأنني امرأة ممزقة، جسد بلا روح.

أكد هذا التعبير تصور أدهم عن تلك الغرفة ورأى أنه من الأفضل الخروج منها فخرجا سويا، وتبقت غرفة واحدة مغلقة، وعندما اقتربا منها صرخت فيه، وقالت:

ـ احذر هذه الغرفة.. لا أريدك أن تقترب منها.

تملكه العجب من تحذيرها وهمَّ أن يسألها عن السبب، ولكنها سبقته وقالت:

ـ أرجوك لا تغضب مني ولا تسألني عن السبب.

احترم أدهم رغبتها.. وذهبا معا ليريا هل استيقظ يوسف بك من نومه أم لا، ولكن عقله كان لا يزال مع تلك الغرفة المغلقة، وظل يتساءل في نفسه:

"ماذا وراء باب هذه الغرفة؟ وما الذي لا تريدني أن أعرفه؟"

وتعجب لأمر تلك العائلة؛ فكلما انكشف له غموض أمر حتى يقع في أمر أشد غموضا

(٧)

دخلا سويا إلى غرفة يوسف بك، فوجداه مستيقظاً. ألقت عليه سلوى تحية الصباح، ووجدته يحاول التحرك ففهمت أنه يريد الذهاب إلى دورة المياه؛ فطلبت من أدهم مساعدته، فطوّق ذراع الرجل حول كتفه وذهب به إلى دورة المياه، وبعد قضاء الرجل لحاجته دخل عليه وحمله وعاد به مرة أخرى إلى غرفته.

وهو يُجلسه على السرير لمح في عينيه دموعا تستحي النزول، فتأثر أدهم بها، وترجمها إلى شعور الرجل بالعجز والمهانة حيث لا يستطيع دخول دورة المياه بمفرده، ويساعده في ذلك رجل غريب عنه. ووجدها أدهم فرصة للحديث؛ فقال بعد أن جلس على كرسي بجواره:

ـ امسح دموعك يا أبي.. إنها إرادة الله.
نظر له الرجل لأول مرة نظرة ملأها الحب والتعجب، وكأن أدهم قد وضع يده على الجرح، وضغط عليه برقة، وكم راق له سماع كلمة «أبي» من أدهم وشعر بحنين شديد نحوه، وأنه لولا مرضه لقام واحتضنه كابن من أبنائه.
شعر أدهم بفرحة ملأت قلبه، فرحة من يصيب الهدف؛ فجملة واحدة صاغها وفق ما عرفه من معلومات وألقاها في لحظة مناسبة قرّبته من هدفه، فتحمس أكثر للحديث، وقال:
ـ كلنا معرضون لغدر الحياة، ولكن ألا ترى معي أن وضعك هذا طبيعي إلى حد ما.
لم يرد الرجل إلا بنظرة استفهام سرعان ما فهمها أدهم، فقال:
ـ طبيعي لأنها جاءت في وقت متأخر من العمر ولم تأت في مقتبله، وإلا كنت قد شعرت بأنها أكثر مرارة. بل لقد جاءت بعد رحلة جد وكفاح، وبما أنك كنت قبطاناً، فمعنى هذا أنك كنت كطائر ضرب الهواء بجناحيه ودار بهما حول العالم، وكل طائر لابد له في النهاية أن يعود إلى عشه، وهذا ما أنت عليه الآن، بعد رحلتك في الحياة تستقر الآن في عشك.
أعجب الرجل في نفسه بفلسفة أدهم للأمور، وشعر نحوه بحنين إلى الكلام، وهنا نطق الرجل لأول مرة، وقال:
ـ ماذا تريد مني بالضبط؟
كانت فرحة أدهم بكلام الرجل كفرحة الأب عندما ينطق ابنه لأول مرة بكلمة أبي، وشعر بأنه ماض في طريقه إلى كشف غموض حياة هذا الرجل، فقال:
ـ لا أريد لك سوى الراحة.
فابتسم الرجل ابتسامة مُرَّة، وقال:
ـ في كثير من الأحيان يظن الإنسان أن الراحة في الجلوس والنوم، أو في الوحدة أو في البعد والسفر، ولا يدري هذا المسكين أنه لا توجد راحة في الدنيا على الإطلاق.. الراحة هناك..
فسأله أدهم مستفهماً:
ـ هل تقصد الموت؟
ـ لا.. حتى الموت لا راحة فيه؛ كيف يرتاح الإنسان وقد انفصلت روحه عن جسده ودُفن بين جدارين ضيقين ويأكل الدود في جسده؟
ـ فأين تكون الراحة إذن؟
ـ هذا هو السؤال الذي ظللت أبحث له عن إجابة، ولم أتوصل إلى نتيجة حتى الآن. دائما ما أقول أنها هناك، ولكن أين.. لا أدري..
فقال أدهم على استحياء:

ـ هل تسمح لي أن أقل لك وجهة نظري في هذا الأمر؟
فقال الرجل ساخرا:
ـ وهل ستفلسفه هو الآخر؟
ضحك أدهم، ثم قال:
ـ أنا أرى أن الراحة تكمن في كيفية نظر كل شخص لها؛ فهناك من يرى أن الراحة في المال الوفير وهناك من يرى أن الراحة في النوم وهدوء البال وهناك من يراها في التفاف أولاده حوله.
التفت إليه الرجل التفاتة حادة شعر خلالها أدهم بأن السهم قد أصاب الجرح ففتحه واندفعت منه براكين الدماء ولم يدر كيف يتصرف في تلك اللحظة، وخصوصا بعد أن لمح دمعة تقفز من عين الرجل، فسارع قائلاً:
ـ هل ذكرتك بشيء يؤلمك؟
فقال الرجل بصوت يملؤه الألم:
ـ لقد أوجعتني عندما فتحت بكلامك هذا خراجا انتفخ وامتلأ عن أخره وكنت أحاول دائما ألا ينفتح.
تحمّس أدهم وشعر أنه اقترب من النجاح، وبلهجة اختلط فيها الذكاء بالترقب قال:
ـ ألا ترى معي أن الخراج إذا صفى مما فيه شفيت منه إلى الأبد؟
وبنجاح لم يتوقعه أدهم استطاع الرجل أن يتمكن من السيطرة على شعوره، ويغيّر مجرى الحديث، فقال متسائلاً:
ـ ماذا كنت تعمل قبل ذلك؟
وبرغم خيبة الأمل التي مُنِي بها أدهم من عدم نجاحه في معرفة ما بجعبة الرجل إلا أنه لم يفقد الأمل فأجابه قائلا:
ـ أنا على المعاش..
فاستغرب الرجل، وقال:
ـ لا يبدو أن عمرك قد تجاوز الستين عاماً.
ابتسم أدهم لهذا الإطراء، وقال:
ـ هذا صحيح.. أنا لا يظهر من حقيقتى شىء البتة ، ولكنى أتممت الستين بالفعل.
فسرح يوسف بك بخياله، وقال:
ـ أي تصغرني بنحو خمس وعشرون عاماً تقريباً؛ ففي مارس القادم سينتصف عقدي الثامن، وهي مدة رحلتي في الحياة قضيتها سائحا في دنيا الله.
فقال أدهم والأمل يملؤه:
ـ كم أتمنى أن تحكي لي ما تستطيع من هذه الرحلة.. ألا تريد أن تصفي الخراج؟

فقال الرجل ساخراً:
ـ وهل يهمك أن تعرف رحلة حياتي؟
فقال أدهم مؤكداً:
ـ هذا منتهى أملي. ولكن هناك اقتراح قد فكرت فيه. ما رأيك في أن آخذك إلى مكان آخر؟ أعتقد أن وجودك هنا لفترة طويلة سببٌ كافٍ لسوء حالتك النفسية. منذ متى لم تغادر هذه الغرفة؟
فأجاب الرجل بمرارة، وقال:
ـ منذ أن كانت بالحياة إنسانية.
تأمل أدهم إجابة الرجل، واستغرق فيها كثيرا واستسلم لما تولده من معان وصور، حتى سأله الرجل، قائلاً:
ـ وأين تريد أن تأخذني؟
فقال أدهم، ولمعة مكر في عينيه:
ـ بما أنك قبطان.. فما رأيك في البحر؟
نظر له يوسف بك نظرة إعجاب، ثم ابتسم قبل أن يقول:
ـ أنت أذكى رجل قابلته في حياتي، ولهذا قررت أن أصفي معك الخراج.

(٨)

ـ الفرق بيني وبين السمك أنه يعيش تحت المياه، وأنا أعيش فوقها.
هكذا بدأ يوسف بك المصري حديثه مع أدهم، بعد أن أصطحبه إلى مقهى قديم برأس التين يطل على فنار الإسكندرية القديم ، وتركه يحكي دون أن يقاطعه، فأردف قائلاً:
ـ كان أبي صياداً فقيراً أضاع عمره كله في البحر، يصطاد الأسماك ثم يبيعها، وعندما كنت طفلا صغيراً كنت أذهب معه لأساعده..علَّمني حب البحر قبل أن يعلمني الصيد ورمي الشبك، وكان يقول لي دائما:
«لا تطلب من البحر أن يهبك خيره، قبل أن تحبه وتعطيه أنت الإخلاص والصبر، فكلما رأى منك صبراً كلما كان خيره إليك مضاعفاً».
من هنا بدأت قصة حبي مع البحر والأسماك. أصبحت منه وأصبح مني، وكنت دائماً ما أقف فوق قلعة قايتباى أو فوق هذا الفنار وأحاول أن أصل بنظري إلى أخر هذا البحر ولكني كنت أفشل في ذلك دائماً. كنت أتمنى أن أصل إلى نهايته وإلى المجهول الذي يؤدي إليه. وكنت دائما ما أتخيل أن هناك عوالم وحيوات أخرى بعده وأناس آخرين يعيشون مثلنا، ومن هنا نبت في قلبي حلمُ أن أصبح قبطاناً لإحدى البواخر الضخمة وأقودها لأكتشف بها

ما وراء هذا البحر. ورغم فقر أسرتي إلا أنني استطعت أن أحقق هدفي وبنيت نفسي من اللا شيء إلى أن أصبحت قبطاناً.
قال أدهم وعلامات الشغف تملأ ملامحه:
ـ وهل وصلت إلى المجهول الذي كان يشغلك؟
ابتسم يوسف بك، وقال:
ـ كنت كلما أصل إلى ميناء إحدى البلاد أكتشف أنه يوجد بعدها بلاد أخرى ومجهول آخر، ولأن الأرض كروية ظللت أدور معها هائماً ومتمنياً أن أكتشف ذلك، ولكنني اكتشفت في هذه الرحلة أن الإنسان هو المجهول ذاته، يُولد ويموت ويظل المجهول الأكبر في هذا الكون.
قال أدهم محاولاً إخراجه من تلك اللحظة التأملية، والتي أخذت طابعا فلسفياً:
ـ وأي الشواطيء وجدت نفسك فيها؟
فقال الرجل، وتنهيدة سبقت كلامه:
ـ التي أحببتُ فيها.
هنا اعتدل أدهم في جلسته، وكأنه في انتظار قنبلة انتظر انفجارها كثيرا، وقال:
ـ وأين أحببت؟
نظر يوسف بك إلى البحر، وقال:
ـ في إيطاليا، كنت في أحدى رحلاتي البحرية، وكنت طوال الطريق أشعر بحالة غريبة تعتري قلبي لا أعرف لها تفسيراً.. حالة هي مزيج من الفرح والقلق، وكلما اقتربت بسفينتي من شواطيء إيطاليا، كلما ازدادت هذه الحالة في السيطرة عليّ، حتى نزلت ورأيتها لأول مرة في الميناء. كانت هالة النور التى تنبعث من وجهها تضيء المكان أكثر مما كانت تضيئه شمس ذلك الصباح.. كانت صفراء الشعر، زرقاء العينين، بيضاء البشرة.والتقت عيوننا؛ فأحسست برجفة عنيفة حدثت بداخلي، إذا قيست بمقياس ريختر لسجلت أعلى درجة سجلت لأخطر زلزال هز هذا الكوكب وشقق أرضه، وافترقنا مرة أخرى.. وقتها عرفت تفسير الحالة التي كانت تنتابني طوال الطريق، ولكن الحقيقة أنني وقتها ازددت فرحا وقلقا، وحزنت حزنا شديدا لفراقها رغم أنني لا أعرفها ولكني شعرت بأنها جزء مني. ظللت أبحث عنها ولكن دون جدوى وتمنيت أن أراها في المدة القصيرة التي كنت سأقضيها هناك وقبل أن أقلع بسفينتي مرة أخرى.
ـ وهل قابلتها؟
ـ مرّ الوقت سريعاً على عكس ما كنت أريده ولم أرها ثانية. كنت أقف في الميناء أبحث عنها بكل ذرة في كياني علَّها تظهر، حتى حان موعد إقلاعي بالسفينة والعودة إلى الإسكندرية، واستحثني الطاقم المصاحب لي على التحرك

ولم أجد أمامي إلا الرحيل. كانت كلما تحركت السفينة قدماً واحداً في المياه أحسست بأن جزءً من روحي يسحب مني، ورحلت وتركت روحي بالميناء تبحث عنها، ولكن القدر كان يخفي ما لم أكن أتوقعه!

كان أدهم يستمع إلى حديث الرجل، ووجهه ينطق بالشغف، وكان يقول في نفسه:

«كما كنت أتوقع فإن حياة هذا الرجل مليئة بالتجارب الزاخرة والذكريات الدفينة»

ولكنه أفاق من شروده، وقال والشغف مازال يملأه:

ـ وماذا كان يخفي القدر؟

ابتسم الرجل من شغف أدهم لمعرفة قصته؛ فحرص على زيادة جرعة التشويق في حديثه، وقال:

ـ توقع أنت ما الذي حدث!

فقال أدهم ساخراً:

ـ الحقيقة لا أدري؛ فهذه العائلة لا تجدي معها التوقعات.

ضحك يوسف بك ضحكة عالية لم يضحكها منذ سنوات، ثم قال:

ـ لقد رأيتها مرة أخرى.

برقت عينا أدهم دهشة، وقال:

ـ كيف؟

ـ بينما كنت في كابينتي شارد الذهن مسلوب الروح والإرادة، إذ بي أفاجأ بأحد مساعديَّ يخبرني بأن فتاة تريد مقابلة القبطان، وعندما رأيتها تدخل من خلفه شعرت فجأة كأن ذهني وروحي وإرادتي قد عادوا إليَّ في لحظة، وأنني استعدت الحياة بداخلي. ولم أصدق ما رأيت. هل هذا معقول، بعدما فقدت الأمل في رؤيتها تأتيني بنفسها إلى حيث مكاني؟ وكان هذا هو أول درس تلقيته في الحب.

ـ وما هو؟

ـ الأمل، فالحب الحقيقي هو الذي يعطيك الأمل في مواجهة ومواصلة الحياة والتمسك بها لتحياها بجوار من تحب.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

في تلك اللحظة استجمعت كل قواي في حنجرتي لأسألها:

ـ تحت أمرك يا سيدتي هل تريدين شيئاً؟

ولكني فوجئت أنها لم تفهم كلامي ففطنت لحظتها أنها لا تتحدث الإنجليزية.. ربما تكون إيطالية، ولحسن حظي كنت أتقنها؛ فسألتها قائلاً:

ـ هل تتحدثين الإيطالية ؟

فأشرق وجهها بابتسامة أقرب ما يكون ضياؤها للشمس، وقالت:
- نعم.
- هل باستطاعتي مساعدتك؟
- نعم.. لقد فقدت إحدى حقائبي بالميناء.
- هل بها أشياء ثمينة؟
- نعم بها بعض الأوراق الهامة الخاصة بعملى.
- لا تقلقي.. سأتصل بهم، وإن وجدوها فاعتبريها معك.
- شكرا جزيلا لك.
وبهمة عالية اتصلت بالميناء وتابعت معهم حتى توصلوا لها ووعدوني بإرسالها، وطمأنتها، وكنت سعيدا جدا أنني تمكنت من مساعدتها بنجاح، وبروح طفولية شكرتني.
كنت أنظر إليها، وبداخلي صرخة تريد أن تخرج وتقول لها أني أحببتها منذ النظرة الأولى.. أريد أن أعرفها وأتحدث معها، ولكن لساني عاجز عن النطق، والغريب أنها كانت تنظر لي نظرات مطولة وذات معان كثيرة، ولكنني كنت أخشى أن أفسرها تفسيرا لصالحي أو يخدم ظني حتى لا أصدم بعد ذلك. ولكن يمكن القول بأنها كانت نظرات توحي بأن هناك استجابة منها لمطلب قلبي وكنت أود أن أسألها عن اسمها ولكنني ترددت، وقبل أن تخرج من الكابينة استوقفتها، وقلت:
- من فضلك.
فاستدارت نحوي وقبل أن أسألها قالت:
- اسمي صوفيا.. هل تريد شيئا؟
تعجبت من ردها، فابتسمت وقلت:
- هذا فقط ما كنت أريد معرفته.
وكصفاء السماء في الربيع جاءت ابتسامتها.. استأذنتني لتستريح في غرفتها، وتواعدنا على اللقاء مرة أخرى ولكن دون أن نقول ذلك.
كنت أشعر أن قلبينا قد تواعدا والتفتُّ إلى قيادة السفينة بروح مختلفة.. كنت أشعر أنني أقود طائرة صغيرة خفيفة لا تحمل سوانا، أنا وهي فقط ، على متنها نطير ونحلق في السماء بجوار القمر والنجوم، وكنت أستحث الوقت ألا يمر سريعا والسفينة ألا تسرع في سيرها حتى أقضي بجوارها أكبر فترة ممكنة.
وبعد مرور بضع ساعات اختلست عدة دقائق في الصعود إلى سطح السفينة فوجدتها جالسة ترسم في لوحة وضعتها أمامها فاقتربت منها وأبديت إعجابي باللوحة، فقالت لي:
- كيف عرفت أنني هنا؟

فقلت لها مؤكداً:
- لقد ساقتني قدماي إلى هنا، ولم أكن أدري أنني سأراكِ.
فقالت بابتسامة صادقة:
- أنا أيضاً كنت أشعر أنني سأراكَ الآن، وتحوّل شعوري إلى يقين عندما رأيتك.
كانت هذه الجمل خير مفسر لي ولها عما وقعنا فيه، وعلمت منها أنها ذاهبة إلى الإسكندرية لعقد صفقات لتوريد بعض السلع من الشركة التي تملكها هي ووالدها بإيطاليا إلى شركة بالإسكندرية، بدلاً من أبيها نظراً لمرضه، وصارحتها بحبي وصارحتني واتفقنا على الزواج.
- بهذه السرعة؟
- عندما يدق الحب أبواب القلوب لا تملك سوى أن تُفتح له، ولكن كما كان اللقاء بسرعة حدث الفراق أيضاً بسرعة.
قال أدهم مستغرباً:
- كيف؟
- أخذتها في نزهة إلى الإسكندرية اشتملت الذهاب إلى السينما والتنزه بمحطة الرمل والإبراهيمية ؛ فلقد كانت الإسكندرية قديماً مختلفة تماما عن الإسكندرية المعاصرة.. كانت خليطاً من جنسيات العالم المختلفة، وكانت مقسَّمة إلى أحياء منها الحي اليهودي واللاتيني واليوناني. وكانت السينما تعرض الأفلام بمختلف لغات العالم ومن كل مكان، وكم أعجبتها الإسكندرية التي تضم كل هذا الزخم والتنوع البيئي والثقافي حتى أنها تمنت العيش فيها. وانتهت هذه النزهة بزيارتها معي لأهلي البسطاء ليتعرفوا عليها، وعندما كنت أودعها في ميناء الإسكندرية قالت لي:
- أهلك طيبون جداً ومتدينون أيضاً. كم كنت أتمنى أن أعيش بينهم. كنت سأشعر بالأمان.
فقلت لها وأنا أقترب منها محاولاً اختلاس قبلة:
- قريباً جداً سيتحقق ذلك.
ولكنني فوجئت بها تمنعني برفق من تقبيلها، وقالت لي وقد كسا الهم والأسى ملامح وجهها لأول مرة :
- جوزيف، هناك أمر هام وخطير يجب أن تعرفه عني.
هنا اضطربت قليلاً وانتابني القلق؛ فسألتها:
- وما هو؟
فقالت بتردد واضطراب:
- أنا يهودية.
سَرَتْ رعشة في جسدي وانتابتنى الدهشة للحظات، ثم إبتسمت قائلاً:

ـ لقد أحببتك دون أن أعرف جنسيتك أو ديانتك.
ـ وهل أهلك سيوافقونك على الزواج من يهودية؟
فقلت مؤكداً:
ـ أنا الذي سيتزوجك وليس أهلي، ومن الممكن ألا نعلمهم بهذا الأمر.
فقالت، وقد تملكتها الحيرة:
ـ ولكن أبي يهودى متعصب وسيرفض هذه الزيجة إلا إذا....
فقلت مستحثاً أن تكمل:
ـ إلا إذا ماذا؟
فقالت بتردد بدا واضحا عليها:
ـ إلا إذا غيّرت أنت ديانتك.
هنا ابديت إنزعاجى من ذلك قائلاً:
ـ ولماذا أغير ديانتى ودينى لا يمنعنى من الزواج بأى ديانة أخرى، هذا مستحيل.
فقالت وقد تبدلت الحيرة على وجهها بالتحدي:
ـ هذا شرطي الوحيد.
فقلت حاسماً:
ـ شرطك لا يناسبنى ولا أجد له مبرر عندى.
فقالت، وهي تحمل حقيبتها عن الأرض، وثمة دمعة تجري على خدها الرقيق:
ـ إذن فالقدر لم يرد أن يجمعنا.
وقبل أن أنطق بحرف اندفعت نحوي وقبلتني قبلة عنيفة ثم انتزعت نفسها مني، وخرجت مسرعة إلى السفينة، وقد انهارت من البكاء. وانتظرتها حتى صعدت ولوَّحت لي بيديها والدموع مازالت تتلاحق على خديها، وأنا لا أزال واقفاً في مكاني يتملكني الذهول والمفاجأة وكأنني أحاول استيعاب الموقف؛ فكل شيء حدث بسرعة.. رأيتها بسرعة وأحببتها بسرعة، وودَّعتها أيضاً بسرعة، وكانت أسرع قصة حب مررت بها في حياتي.
فقال أدهم متأثراً:
ـ وهل لازلت تذكرها؟
ـ حتى هذه اللحظة.
ـ بعد كل هذه السنوات؟
ـ لا تستهن بالحب الأول؛ فهو أول بذرة للحب تزرع في تربة القلب البكر الصغير.. تقويه وتهيئه لاستقبال حب آخر عن طريق جذوره التي تمتد وتكبر حتى يصعب اقتلاعها طوال العمر، حتى وإن ذبلت أوراقه وأعواده تظل الجذور في أعماقه حية لا تموت.
قال أدهم، وهو يحاول استيعاب ما حدث:

ـ وكيف داويت هذا الجرح؟
تنهد يوسف بك، قبل أن يقول:
ـ عندما أحببت زوجتي وأم أولادي.
اندهش أدهم، وقال:
ـ وكيف عرفتها؟
ابتسم يوسف بك، ونظر إلى البحر، قائلا :
ـ تلك قصة أخرى.

(٩)

عاد أدهم إلى بيته في المساء منتعش الروح والفكر، فلكم أسعده حديث يوسف بك معه، ولكم أسعده معرفة جزء من تاريخ حياته؛ فلقد أشعلت حكايته مع الإيطالية صوفيا خياله، وجعلته يتخيلها معه وهما يتجولان معاً فوق ظهر السفينة ثم في شوارع الإسكندرية وأحيائها القديمة الساحرة. وظل يسأل نفسه ترى ماذا أيضاً في جعبة هذا الرجل؛ فعالمه ثري وزاخر بالتجارب والحكايات التي تصلح للكتابة.. «أريد أن ألتهم منه بقدر ما أستطيع». ودخل غرفة مكتبه وأخذ يسجل كل هذه الخواطر والأسئلة في كشكول مذكراته بالألغاز والشيفرات ، وظل يستعيد ذكريات يومه من أول جلستهما معاً بالمقهى وتناولهما الغداء سوياً حتى أدائهما لصلاة الجمعة بمسجد أبي العباس المرسي ، وهنا تذكر أن اليوم هو موعد ندوة نادي القصة التي أهملها منذ فترة كبيرة؛ فنظر في ساعته فوجد أن وقتها قد مر، ولكن موعد اجتماع صديقيه بالمقهى التجارية بالمنشية لم يمر بعد؛ فقام وذهب إلى هناك.
دخل المقهى فوجدهما جالسين بنفس المكان الذي اعتادا الجلوس فيه، ويلعبان الطاولة سويا، فابتسم واقترب منهما بهدوء حتى فاجأهما وأغلق الطاولة وأفسد عليهما اللعبة، وقبل أن يتعصبا فوجئا به؛ فقاما إليه واحتضناه وعاتباه على ذلك؛ فقال وهو ينظر إلى أسامة:
ـ هذا دين قديم كان لابد أن يُقضى.
فقال سالم مدكور معاتبا إياه:
ـ من لقي أحبابه نسى أصحابه.
ـ أنا عمري ما نسيتكما ولا أستطيع.. فقط انشغلت مع تلك العائلة.
فسأله أسامة:
ـ وهل تجاوبت معها إلى هذا الحد؟

ـ وأكثر.. لقد خدمتني خدمة العمر عندما عرفتني على تلك العائلة.. إنها مليئة بالغموض والأسرار، وجميع شخصياتها تصلح لأن تكون شخصيات أدبية حيث تحمل كل شخصية أبعاداً كثيرة ومتناقضات أكثر.

ضحك سالم واهتز كرشه، وهو يقول لأسامة:

ـ صاحبك عادت إليه روح الكاتب بعد أن كان مدفونا في بئر الملل.

فقال أدهم مؤكداً:

ـ بتقول فيها..؟ بالفعل التجربة بالنسبة للكاتب كالوقود بالنسبة للسيارة، ورغم أنني لم أقابل كل أفراد العائلة حتى الآن، إلا أنني واثق من أن الذي اكتشفته أقل بكثير مما لم أكتشفه بعد.

فقال أسامة:

ـ وما الذي اكتشفته حتى الآن؟

أسند أدهم ظهره إلى الكرسي الخشبي، وقد تلبسته حالة تأملية:

ـ أسرار إنسانية أكثر منها أسرار شخصية.. دائماً ما كنت أجلس أمام المقهى وأتأمل حركة الناس وهم يمشون في كل اتجاه وفي رأس كل منهم تدور حكاية ما، ولكل منهم وجهة هو موليها، وكذلك عندما كنت أمشي وأجول في الشوارع والطرقات والأزقة متأملاً الدنيا والناس، ومتلمساً حكاية من الحكايات أو لقطة من لقطات واقعنا الإنساني كنت أرفع بصري وأجول به بين العمارات الشاهقة والشرفات المغلقة، وأقول في نفسي أن في كل بيت من هذه البيوت تعيش أسرة كجزء من عائلة لها جذور وأفرع، ولكل منهم قصة مختلفة ومليئة بالأحداث والحكايات. في أحيان كثيرة كنت أود أن أطرق أبواب كل البيوت وأسألها عن قصصها وحكاياتها، والعائلة التي أعمل عندها واحدة من هذا الفيض الكبير من العائلات أسعدني حظي باختراقها، ولكني أرجع وأقول سبحان الله رب كل هذا الكون، وخالق كل هذه الأنفس ورازقها وعالم بها.. إنه حقا رب عظيم.

قال سالم بدهشة:

ـ الله الله الله.. ما هذا كله؟ أنت قلت مونولوجا شاملا.. فلسفة على علم نفس على علم اجتماع على تصوف. كل هذا من تلك العائلة؟

وقال أسامة ساخراَ:

ـ والبقية ستأتي عندما يقابل باقي أفرادها.

فقال أدهم محذراً:

ـ إذا عدتما إلى أسلوبكما الساخر معي في الحديث، سأمضي.

فقال سالم:

ـ لا.. وعلى إيه.. نحن نمزح معك لا أكثر، لنا كثيرا لم نجلس هذه الجلسة سوياً، سأطلب لك القهوة التي تحبها.

وهمَّ أن ينادي الجرسون، ولكن أدهم قاطعه قائلاً:
ـ لا أريد قهوة حتى أستطيع النوم لأستيقظ مبكراً.
ثم سارحا بخياله:
"كلي شوق لأن أعرف كيف تعرَّف يوسف بك على زوجته وأم أولاده، بعد أن فشل في حبه لصوفيا الإيطالية" ؟
فنظر إليه صديقاه باستغراب ثم نظرا لبعضهما، وضربا كفا بكف بعد أن ترسّخ لديهما إحساس شبه مؤكد بأن صديقهما سيزور مستشفى المعمورة النفسية عما قريب.

(١٠)

ـ لقد أنقذتني من موت محقق...
هكذا قال يوسف بك لأدهم بعد أن أصطحبه في سيارته، ثم في قارب صغير من أمام قلعة قايتباى ، ثم تابع قائلاً:
ـ وجودك معي الآن أعاد إلىّ الحياة بعد أن كانت تسحب مني رويدا رويدا.. لم يفكر أحد من أبنائي في اصطحابي لنزهة بسيطة مثل هذه تخفف عن النفس ما تحمله من أعباء.
كان أدهم يجدف، والرجل سارح ومستمتع بالبحر والقارب يمشي بمحاذاة الكورنيش ووجه الإسكندرية يطالعهما بعماراتها القديمة المرصوصة إلى جوار بعضها البعض في تناغم ووحدة، فقال أدهم:
ـ لقد وقفنا بالأمس عند وداعك لصوفيا ومعرفتك بأم الأولاد.. فماذا بعد؟
ابتسم يوسف بك قبل أن يقول:
ـ يعجبني شغفك بما أحكي. الحكاية يا سيدي أنني بعد أن ودعت حبي الأول صوفيا، شعرت بالضياع لفترة طويلة وأثّر ذلك على عملي وعلاقتي بأسرتي، وذات ليلة من ليالي أجازتي، والتي كانت بسبب إحدى النوَّات، كنت أعبر طريق الكورنيش أمام محطة الرمل ، فصدمتني سيارة صدمة بسيطة، ولكنها تسببت في إحداث شرخ بإحدى رجليّ وسقطت على الأرض متألما والتف المارة، ونزلتْ من السيارة فتاة جميلة وأصرت أن تذهب بي إلى المستشفى، وهناك أخبرها الطبيب بضرورة عمل محضر بالحادثة ووضع رجلي في الجبس؛ فقالت أنها مستعدة لأي شيء مقابل شفائي وسلامتي. وظلت الفتاة جالسة بجواري حتى وقت متأخر من الليل، ورحلت. ثم فوجئت بها موجودة عندي مع أول إشراقة لشمس اليوم التالي، وظلت هكذا حتى اطمأنت أنني أصبحت بخير، وكان من الطبيعي أمام كل هذه الإنسانية أن أتنازل عن المحضر.. وظلت تشكرني كثيرا

علـى ذلـك رغـم أننـي كنـت أشـعر أن الشـكر لابـد وأن يكـون لهـا علـى اهتمامهـا ورقتهـا. وكتـب لـي الطبيـب إذنـا بالخـروج، وأصـرت علـى أن توصلنـي إلـى البيـت.
سأله أدهم:
ـ أي بيت؟
ـ الفيـلا التـى نعيـش فيهـا الآن. كان أبـي قـد ورث بعضهـا عـن أبيـه، والبعـض الأخـر اشـتريناه بعـد ذلـك مـن أعمامـي؛ فأصبـح كلـه ملكنـا.
ـ ولكن لماذا لم تعيشوا مع جدك في هذا البيت؟
ـ كانـت هنـاك خلافـات بينـه وبيـن أبـي؛ بسـبب عـدم موافقتـه علـى زواجـه مـن أمـي لأنهـا كانـت فقيـرة وابنـة لصيـاد فقيـر، فرفـض أن يسـمح لأبـي بالعيـش معـه عندمـا وجـده مصـراً علـى الـزواج منهـا وتركـه يعيـش مـع أهلهـا بالمكـس؛ فتزوجهـا أبـي وعـاش معهـا فـي بيتهـا وعمـل مـع أبيهـا فـي الصيـد وظـل فقيـراً رغـم أمـلاك أبيـه، ولكنـه ورثـه فـي النهايـة.
قال أدهم بلهجة اختلط فيها الخبث بالتعجب:
ـ مثلمـا رفضـت أنـت أن تعيـش ابنتـك سـلوى معـك عندمـا أصـرت علـى الـزواج مـن عاصـم لأنـه فقيـر.
وكأن الجملة قد صدمته؛ فنظر إلى أدهم نظرة ذات مغزى، وقال:
ـ أعلـم أن التاريـخ يعيـد بعضـه، وسـوف ترثنـي سـلوى يومـا مـا بعـد أن أمـوت وسـيعيش معهـا زوجهـا مثلمـا عـاش أبـي مـع أمـي فـي فيـلا أبيـه بعـد موتـه.
شعر أدهم بالحرج، وقال
ـ ما قصدت مضايقتك، ولكن....
فقاطعه الرجل قائلاً:
ـ لا عليـك.. الحقيقـة دائمـا موجعـة.. المهـم نعـود لموضوعنـا.. أيـن انتهـى بنـا الحديـث؟
حاول أدهم التذكر حتى قال:
ـ أنها أصرت أن توصلك إلى البيت.. بالمناسبة ما اسمها؟
ـ سلوى.
ـ ألهذا أسميت ابنتك بنفس الاسم؟
ـ نعـم.. لأتذكرهـا دائمـاً ولا يغيـب اسـمها عـن لسـاني؛ فلقـد كانـت جميلـة ورقيقـة وطيبـة وحنونـة، فبعـد أن أوصلتنـي إلـى البيـت ظلـت تزورنـي كل فتـرة حتـى تمـت معافاتـي تمامـا وفككـت الجبـس وبـدأت أعـاود المشـي مـن جديـد. وفـي هـذه الفتـرة كنـت قـد تعرفـت عليهـا جيـدا وعرفـت الكثيـر عـن حياتهـا واقتربنـا مـن بعضنـا أكثـر، وثمـة رابطـة حـب قويـة قـد ربطـت بيننـا وتوَّجنـا هـذا الحـب بالـزواج وكانـت هـي زيجـة العمـر. عاشـت معـي أجمـل أيـام حياتـي وأصعبهـا أيضـاً، شـاركتني

الرحلـة علـى سـفينة حياتـي وأنجبنـا أبناءنـا الأربعـة، ولكنهـا لـم تكمـل معـي المشـوار وسـبقتني إلـى الرفيـق الأعلـى منـذ سـنوات ، تاركـة وراءهـا عمـراً زاخـراً بالذكريات الجميلـة.

ـ وماذا عن أبنائك؟

سكت الرجـل قليـلاً وسـرح بخيالـه مـع البحـر، وكسـا الحـزن والألـم ملامـح وجهـه؛ فشـعر أدهـم أن هـذه هـي المعضلـة التـي تقـف فـي طريـق راحـة وسـعادة هـذا الرجـل وإصـلاح نفسـيته، فقـال:

ـ لقـد اتفقـتَ معـي علـى تصفيـة الخـرَّاج حتـى تسـتريح مـن آلامـه، وأعتقـد أننـا وصلنـا إلـى أهـم وأصعـب مـا بداخلـه.

أومأ الرجل برأسه، وقال:

ـ أولادي هـم ثمـرة حياتـي. أشـعر بالنجـاح كلمـا رأيـت منهـم مـن ينجـح، وأشـعر بالإخفـاق كلمـا رأيـت منهـم مـن يخفـق، رغـم أننـي لـم أقصـر فـي تربيتهـم أو تعليمهـم إلا أننـي أشـعر بالذنـب والتقصيـر كلمـا مـر أحدهـم بضيـق أو شـدة، ولكنـي لـم أجـد فـي النهايـة مقابـل لـكل ذلـك.

ـ هل لأنهم لا يزورونك؟

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة، وقال:

ـ المسـألة أكبـر مـن ذلـك بكثيـر. لقـد اتفقـوا مـع محامـيّ الخـاص علـى أن يرفعـوا علـيّ قضيـة حجـر، ويشـككوا فـي قـواي العقليـة.

ذُهل أدهم لما سمعه، فقال:

ـ قضية حجر.. لم؟

ـ لأننـي رفضـت بيـع الفيـلا التـى يريـدون هدمهـا لبنـاء بـرج سـكني جديـد سـيأتي بالملاييـن مـن وجهـة نظرهـم، كمـا يفعـل كل النـاس المالكـون للفيلـل القديمـة حتـى تشـوهت المدينـة وإندثـرت كل مبانيهـا القديمـة والعريقـة.

ـ ولماذا لم تفعل ذلك؟

التفت الرجل إلى أدهم التفاتة حادة، وقال:

ـ لأن هـذه الفيـلا جـزءٌ مـن كيانـي وحياتـي وجـزءٌ مـن تاريخـي وماضيَّ.أخـر مـا تبقـى لـي مـن أجـدادي، شـهد بعضـا مـن شـبابي ورجولتـي وزواجـي وأطفالـي، والآن يشـهد لحظـات مرضـي وشـيخوختي. بالفعـل هـى قديمـة وآيلـة للسـقوط، ولكـن ذلـك بسـبب إهمالنـا لهـا وعـدم محافظتنـا عليهـا أو تقويمهـا مـن آن لآخر،هـى ليسـت عصريـة كمـا يقولـون، ولكنهـا تحمـل عبـق الماضـي ورائحتـه، إن هدمناهـا وبنينـا برجـا مكانهـا سنكسـب مـالا ولكننـا سنخسـر هويـة. سنكسـب جسـدا ولكننـا سنخسـر روحـا. كنـت أحلـم أن يكـون لـي ابـن يتسـلم منـي الرايـة ويحافـظ علـى هـذه الفيلا،مثلمـا تسـلمها أبـي مـن جـدى ثـم سـلّمها لـي وحافظـت عليهـا.

- وكيف عرفت بموضوع القضية؟
- لأن المحامي صديق عمري أبلغني بما يسعون إليه ويحاولون تنفيذه، ولكن هيهات.. سأظل أدافع عن مبدئي حتى أخر نفس في عمري.
وسكت قليلا ثم ابتسم ابتسامة مريرة، قبل أن يقول:
- أتدرى؟ هناك حلم يراودني كل فترة، ورغم استحالة تحقيقه، إلا أنني لا أكف عن الحلم به.
- وما هو؟
- أن أستيقظ يوما فأجد أولادي ملتفين حولي مثلما كانوا وهم صغار وشباب، أن أصحو مبكرا وأحضر لهم الإفطار قبل أن ينزلوا إلى عملهم ولكن...
ولمح أدهم دمعة تقفز من عين الرجل، وانطفأ الحديث بينهما وشعر أنه من الأفضل أن يستدير بالقارب ويعود، ولكنه عزم في نفسه على أمر دعا الله أن يوفقه فيه.
ولمح يوسف بك يريد أن يقول شيء ولكنه متردد ، ثم قطع الرجل تردده مرة واحدة وكأنه يريد أن يتخلص من شيء ما بداخله وقال :
-أدهم ، هناك سرا كبيرا فى حياتى كنت أخشى أن أموت قبل أن أطلع عليه أحد ، وأعتقد أنك أنسب من أطلعه على هذا السر الآن ؟
إبتسم أدهم فى نفسه لنجاحه فى إكتساب ثقة الرجل ولكن الفضول كان سيقتله فقال :
-سرك فى بئر ، ولكن ما هو هذا السر ؟
فقال يوسف بك كمن يريد التخفف من حمل ثقيل عليه :
-السر ليس هنا ، السر فى صندوق قديم مدفون أسفل الفيلا

(٢٤)

خرج أدهم من غرفة «يوسف بك» بعد أن أذَّن لصلاة الظهر، ليتوضأ وأثناء عودته من دورة المياه لمحت عيناه باب الغرفة الذي كانت قد حذرته سلوى من الاقتراب منها، مفتوحا بعض الشيء؛ فتوقف للحظة يفكر هل يذهب إليها أم يتركها، ولكن غموض تلك الغرفة بالنسبة له وطريقة سلوى وهي تمنعه من الاقتراب منها أثارا فضوله في معرفة ما بداخلها، فذهب إليها واقترب من الباب ودفعه برفق ثم مد رأسه ونظر فلم يجد أحداً بها، فدخل ببطء شديد، ففوجيء بها غرفة منظمة ومرتبة، ثم رفع بصره فرأى صورا للاعبي كرة القدم متناثرة على الحائط بغير نظام، ثم وجد منضدة عليها جهاز كمبيوتر، ولكن لفت نظره أن الجهاز كان مفتوحا، بما يعني أن شخصا ما كان موجوداً

هنـا وخـرج.
وفجأة شعر بالباب يفتح، وجاءه صوت من خلفه يقول:
ـ ماذا تفعل هنا؟
فالتفت بسـرعة ونظـر خلفـه، فهالـه مـا رأى، حيـث وجـد صبيـا صغيـرا لا يتعدى عمـره الرابعـة عشـرة، يجلـس علـى كرسـي متحـرك ويبـدو عليـه أنـه مشـلول أو شـيء مـن هـذا القبيـل، فارتبـك أدهـم للحظـات ولـم يـدر مـاذا يقـول وحـاول أن يسـتجمع شـتات عقلـه، فقـال:
ـ آسف جدا، لقد وجدت الباب مفتوحا فظننت أن أحدا ما هنا.
فقال الصبي بحدة وصلابة:
ـ لا أحب أن يراني أحد، أو يدخل غرفتي أحد سوى أمي.
فقال أدهم بشيء من التحايل:
ـ ولمـاذا تخفـي وجهك الجميـل هـذا عـن النـاس؟ هـل لتحرمهم منـه؟ أم أنـك تخـاف مثلـي مـن الحسـد؟
راحـة غريبـة مـلأت نفس الصبـي وسـكَّنت أعصابـه الفائـرة، ولكنـه عـاد ليقول بحـدة وصلابـة أقل:
ـ بل أخاف سخريتهم.
شعر أدهم أنه أصاب الهدف، وأن الفرصة مواتية لهجوم آخر؛ فأسرع يقول:
ـ وممَ سيسخرون.. هل من وجهك الوسيم أم من عينيك الخضراوين؟
فنظر الصبي إلى رجليه بعين منكسرة، ثم قال:
ـ بل من عجزى.
فابتسم أدهم، وقال:
ـ وهـل كل مـن يجلـس علـى هـذا الكرسـي عاجـز؟ بالعكـس هنـاك أنـاس أصحـاء ويقفـون علـى أرجلهـم، ولكنهـم أشـد عجـزا منـك.
فنظر له الصبي نظرة استفهام، ثم قال:
ـ وكيف ذلك؟
فاستدار أدهم ووقف خلف كرسي الصبي ودفعه إلى داخل الغرفة، وهو يقول:
ـ مـا يجعل أي إنسـان عاجـزاً هـو الإرادة. تلـك القـوى السـحرية هـي التـي تجعـل مـن الإنسـان إمـا ميتـا وهـو حـي، أو حيـا بعـد موتـه، فـإذا سُـلبت الإرادة مـن أي إنسـان خـرَّ عاجـزاً، حتـى وإن كان واقفـا علـى قدميـه.
سـكت الصبـي برهـة وكأنـه يقلِّـب الـكلام فـي رأسـه، وانتابتـه حالـة مـن الانتعـاش الروحـي والنفسـي رغـم غضبـه ومفاجأتـه بوجـود أدهـم فـي غرفتـه التـي لا يدخلهـا أي غريـب.
وفـي نفس الوقـت ابتسـم أدهـم فـي نفسـه وأعجـب بقدرتـه علـى اختراقـه وسـحبه،

وكيف لا وقد فعلها مع أمه وجده، فهل سيعجز عن ذلك مع صبي صغير مثله؟ ولكن سرعان مازالت انتعاشة الصبي، وعاد لمثل ما كان عليه من الحدة، وقال:

ـ من فضلك لا أريدك هنا. أريد أن أكون بمفردي.

ـ على فكرة أنت لا تحسن استقبال ضيوفك. هل نسيت أني بغرفتك؟

فقال الصبي بحدة ووجوم:

ـ أنا لم أدعُكَ أصلاً للدخول حتى أضَيِّفك. أنت الذي اقتحمت غرفتي وخصوصيتي.

شعر أدهم بالحرج، ولكنه تدارك الموقف، وقال بلهجة ماكرة:

ـ ما قصدت اقتحام خصوصيتك وأعتذر عن ذلك. كنت أتمنى أن أعقد معك رابطة صداقة، ولكن على كل حال إذا أردت أن تعرف كيف تتخلص من هذا الكرسي اللعين وتقف على رجليك مرة أخرى؛ فلتأتني وأنت تعرف أين ستجدني.

خرج أدهم من الغرفة وأغلق الباب خلفه، وهو يبتسم في نفسه حيث أنه موقن من أن هذه الجملة ستجعله لن يكف عن التفكير ولن يهدأ له بال قبل أن يأتي إليه.

وذهب أدهم إلى غرفة الرجل الكبير. أطل عليه فوجده نائما ففرش سجادة الصلاة وبدأ في صلاة الظهر.

كان الصبي يجلس بغرفته أمام شاشة الكمبيوتر، ولكن عقله في دنيا أخرى، وما زالت كلمات أدهم يرن صداها في أذنيه، وتساءل في نفسه:

"لماذا قال لي هذا الرجل كل هذا الكلام؟.. وماذا كان يقصد به؟ وهل بالفعل يعرف طريقة لعلاجي مما أنا فيه بعد أن فشل أطباء كثيرون في علاجه؟"

ولما ازدادت حيرته ثار وغضب، وأطفأ جهاز الكمبيوتر.

انتهى أدهم من صلاة الظهر ففوجيء بوجود الصبي بكرسيه المتحرك بجواره في غرفة جده. وما أن رآه أدهم وابتسم له حتى قال الصبي:

ـ هل بالفعل عندك طريقة لعلاجي؟

تهلل وجه أدهم فرحا وشعر بطعم انتصاره ونجاح خطته فقام وطبَّق السجادة، وقال:

ـ ألا ترى أنه من الأفضل أن نخرج إلى شرفة الصالة حتى لا نزعج (جدو)؟

أومأ له الصبي برأسه؛ فدفع أدهم كرسيه أمامه، وخرجا سويا إلى شرفة الصالة.

وجلس أدهم أمام الصبي على كرسي متحرك، وقال:

ـ أنا اسمي أدهم الكاشف على المعاش. كاتب ولكني قليل الإنتاج.

فتجاوب معه الصبي سريعا، وسأله:
ـ ولماذا إنتاجك قليل؟
ـ نظـرا لبعـض الهمـوم والمشـاكل التـي كنـت أمـرُّ بهـا. هـذا بالإضافـة إلـى عـدم عثـوري علـى مـادة ثريـة لأكتـب عنهـا.
فقال الصبي بذكاء اختلط بالبراءة:
ـ ألا ترى معي أن هذا أيضا شيء من العجز مثلما قلت لي في غرفتي؟
ابتسم أدهم، ثم قال:
ـ إذن نحن متفقان.
ـ على ماذا؟
ـ على أننا، نحن الاثنان، نحتاج إلى نفس العلاج.
فقال الصبي بلهفة لم يستطع إخفاءها:
ـ وهل عندك بالفعل طريقة لعلاجي؟
ـ كل داء وله دواء.
فقال الصبي يائسا:
ـ عدا مرضي أنا، لقد فشل الأطباء في إيجاد دواء يشفيه.
ـ هذا لأن علاجك بيدك أنت ، وليس بيد الأطباء .
ـ كيف؟
ـ هـذا يحتـاج لوقـت طويـل لكـي أشـرحه لـك. ولكـن ألا تـرى معـي أنـه يجـب أن أعـرف المـرض أولا حتـى أتوصـل إلـى طريقـة لعلاجـه. دعنـا نتحـدث عنـك قليـلا. مـا اسـمك؟
ـ حمادة.
ـ هل أنت الأخ الوحيد لنهى؟
ـ نعم.
ـ وماذا تدرس؟
ـ فـي الصـف الثانـي الإعـدادي، ولكنـي لا أذهـب إلـى المدرسـة حتـى لا أتعـرض لسـخرية زملائـي.
ـ وهل ما أصابك جاء نتيجة حادث؟
ـ نعم.. لقد سقطت من فوق سلم فيلتنا.
ـ وهل تتذكر يوم الحادث؟
ـ بالتفصيل.
ـ هل تستطيع أن تحكيه؟
بدأ حمادة يحكي، وعيناه سارحتان مع البحر، حيث قال:
ـ كنـت أسـتعد للنـزول إلـى النـادي لممارسـة لعبتـي المفضلـة كـرة القـدم، علـى

فكـرة أنــا أيضــا موهــوب مثلــك، ولكــن فــي كــرة القــدم، وكان حلمــي أن أصبــح لاعبــا شــهيرا، المهــم تناولــت الغــداء علــى الســفرة الموجــودة بالغرفــة المجــاورة، وكانـت آخـر مـرة نـأكل فيهـا سويا، حيـث شـبَّ شجارٌ عنيـف بيـن أبـي وأمـي وعـلا صراخهمـا وانهـال أبـي عليهـا بالضـرب والـركل وقـام بتكسـير الأطبـاق والأكـواب، فأخذتنــي أختــي نهــى فــي حضنهــا، وظللنــا نبكــي، واختبأنــا تحــت الســفرة لنحتمــي بهـا. ثـم سـمعنا أبـى يقـول أنـه سـيترك البيـت ولـن يعـود إليـه مـرة أخـرى، وبالفعـل دخـل إلـى غرفـة النـوم وعبـأ ملابسـه فـي حقيبـة صغيـرة ثـم فتـح بـاب الشـقة ونـزل، فجرينـا وراءه أنـا ونهـى وارتميـت أنـا علـى ظهـره فدفعنـي، فأمسـكت بإحـدى رجليـه لأمنعـه مـن النـزول فركلنـي بعنـف فسـقطت علـى السـلم إلـى الأسـفل، ورغـم ذلـك تركنـي ولـم يطمئـن علـيَّ، وأخـذت أصـرخ وأتألـم حتـى حملتنـي أمـي وذهبـت بـي إلـى المستشـفى واكتشـفوا هنـاك أننـي أصبـت بالشـلل، وجربـوا معـي كل شـيء ولكـن دون فائـدة.

ـ الآن تأكـدت لـي حالتـك، وتأكـد لـي أيضـا أن طريقـة العـلاج التـي سـأقترحها عليـك سـتأتي بالمفعـول المطلـوب؛ وذلـك لأن مرضـك نفسـي وليـس عضويـا، ولكـن دعنـى أسـألك: هـل تتمنـى أن يعـود أبـوك ويعيـش معكـم مـرة أخـرى أم لا ؟

ـ هذا حلم حياتي. ولكن كيف وقد تزوج من امرأة أخرى؟

ـ إذن ستسـاعدني وسـتنفذ كل مـا سـأطلبه منـك، وأنـا أعـدك أنـك عمـا قريـب سـتعود مـرة أخـرى تجـري علـى قدميـك وتعـود إلـى الملاعـب لتصبـح لاعبـا كبيـرا.

ـ أنا؟

ـ طبعـا أنـت. أريـد أن أرى مصـر فـي كأس العالـم مـرة قبـل أن أمـوت، وأريـدك أن تكـون أنـت السـبب فـي ذلـك.

ضحـك حمـادة ضحكـة هـي مزيـج مـن الفرحـة والأمـل، وكان الشـعور المسـيطر عليـه فـي تلـك اللحظـة هـو أن يقـوم ويحتضـن هـذا الرجـل، ولكـن أدهـم فاجـأه قائـلا:

ـ أعلـم أنـك تريـد الآن أن تعانقنـي، ولكـن لنؤجلهـا حتـى تقـف مـرة أخـرى علـى رجليـك.

اندهش الصبي، وقال:

ـ أنـت رجـل عظيـم لأنـك تسـتطيع قـراءة مـن أمامـك. هـذه موهبـة أخـرى أحسـدك عليهـا، وأنـا قبلـت صداقتـك وسـعيد بهـا.

ـ إذن سـأوصلك الآن إلـى غرفتـك، وأطلعـك علـى مـا أريـده منـك حتـى أعـود إلـى عملـي، فأنـا الآن أعتبـر متهربـا مـن العمـل ومهـددا بالرفـت. هـل يرضيـك أن يرفتنـي جدك؟

فقال حمادة مؤكدا:

ـ هـذا علـى جثتـي.. كيـف نفـرط فـي رجـل كلـه أمـل مثلـك؟ أنـت نـادر الوجـود فـي

هـذا الزمـن وتحتاجـك كل عائلـة فـي هـذا البلـد.
ابتسم أدهـم لهـذا الإطـراء ودفـع الكرسـي إلـى غرفـة الصبـي، وعندمـا حـان وقـت الغـداء طرقـت سـلوى بـاب غرفـة أبيهـا، وكان أدهـم يدلـك لـه رجليـه، بينمـا كان الرجـل يمسـك بجريـدة الوفـد ويقـرأ فيهـا بعـد مـا عـوَّده أدهـم علـى أن يقـرأ الجرائـد بمفـرده، فابتسـمت سـلوى وقالـت:
- لقد تقدمنا وأصبحنا عال العال.
فضحك يوسف بك، وقال:
- البركـة فـي سـي أدهـم.. هـو الـذي صمـم علـى أن أقـرأ بمفـردي رغـم نظـري الضعيـف.
فقال أدهم مداعبا:
- يـا رجـل يـا عجـوز.. أنـت نظـرك أفضـل مـن نظـري. هـل تنكـر أنـك كنـت تغـازل الفتيـات بالأمـس، ونحـن أمـام البحـر؟
ضحـك يوسـف بـك ضحكـة خرجـت مـن قلبـه، واهتـزت لهـا كل أركانـه، وشـاركته سـلوى ضحكتـه؛ فقـال:
- الله يجـازي شـيطانك يـا أدهـم. منـذ سـنوات طـوال لـم أضحـك مثـل هـذا الضحـك. لعـن الله الحـزن وسـنينه.
وقالت سلوى مؤكدة:
- بالفعل.. لقد تغيرت نفسية أبي تماما. أنت بالفعل رجل عظيم يا أدهم.
فقال أدهم مازحا:
- لقد بدأت أسمع هذه الجملة اليوم أكثر من مرة.. هكذا سأصدقها.
قالت سلوى بلهفة:
- كدت أنسى.. الغداء جاهز سآتي به حالا.
وأثنـاء تنـاول الغـداء كان أدهـم يسـاعد يوسـف بـك فـي تنـاول الطعـام تـارة، ثـم يتركـه يـأكل بمفـرده تـارة أخـرى، وكلمـا سـقط منـه بعـض الطعـام يشـجعه علـى عـدم تكرارهـا مـرة أخـرى، وبعـد الغـداء جـاءت سـلوى لتأخـذ الأطبـاق فصمـم أدهـم علـى أن يسـاعدها فـي نقلهـا إلـى المطبـخ.
ولمـا استسـلم يوسـف بـك للنـوم مـرة أخـرى خـرج ليجلـس مـع سـلوى فـى برجولـة قديمـة ومتهالكـة بحديقـة الفيـلا، نظـر إلـى شـجرة يابسـة كان يسـقيها كل يـوم عندمـا يجـيء للعمـل فـى الصبـاح حتـى بـدأ تيبسـها يقـل وتظهـر شـيء مـن الاخضـرار ، ثـم نظـر لسـلوى وقـال:
- أراكِ تتحسنين نفسيا.
فابتسمت ابتسامة باهتة، وقالت:
- يُهيأ لك .. الهم ورائى ورائى.

قال أدهم، ولمحة مكر في عينيه:
ـ هل لا يزال موضوع عدم إرسال زوجك للمصروف يضايقك؟
فقالت مؤكدة:
ـ زوجي لا يقطع عنَّا المصروف بالإضافة إلى أنني لا أفكر في ذلك مطلقاً.
ـ وفيم تفكرين إذن؟
ـ أفكر فيه هو.
ابتسم أدهم في نفسه، فهذا ما كان يريد الوصول إليه، ولكنه عاد ليقول:
ـ هل تفتقدينه؟
ـ إلى أبعد مدى. لقد كان يحبني حبا كبيرا قبل الزواج. أذكر أن عيد ميلاده كان يتوافق مع عيد زواجنا، وكان دائما ما يرفض أن نحتفل بالعيدين في الخارج، وكنا نحتفل بهما في الفيلا. كان يقول لي دائما أنه يرتاح أكثر بالفيلا لأن كل ركن فيها يشهد لنا سويا ذكرى جميلة. كم أريد الآن أن أشعر أنه لا يزال يحبني مثلما كان. أن نجتمع مرة أخرى أسرة سعيدة ويتربى أبناؤنا في ظلنا مثل باقي الناس.
فقال أدهم آملا ومتحرجا:
ـ ألا زلتِ لا تريدين أن تحكي لي ما الذي كان يبكيكِ يوم تقابلنا على السلم؟
تبدَّلت في لحظة ملامح وجهها من الحزن إلى الاضطراب والخوف، وتمنت لو أنها اختفت وتلاشت من أمامه، وعندما لاحظ أدهم ذلك، قال:
ـ كنت أظن أنني أصبحت مصدر ثقة بالنسبة لك، ولكن من الواضح أنني أعطيت نفسي مكانا لا أستحقه و.....
فقاطعته قائلة:
ـ لقد خُنتُ زوجي.
لحظات من الصمت ألجمت لسان أدهم وشلت حركته، وظل يكرر الجملة في رأسه حتى يستوعب ما قالته ويتأكد منه، ولكنها لم تنتظر منه أن يتكلم، فقالت:
ـ هو الذي دفعني إلى ذلك، وأنا إنسانة من دم ولحم ومشاعر. لقد ظللت أقاوم بكل قوة إغراءات كثيرة، ولكن فترت قوتي وضعفت إرادتي، ولم أجد أمامي بدا من الاستسلام.
فقال أدهم بصوت متحشرج:
ـ ومن الذي ضعفت قواك أمامه؟
فقالت، والخجل يكسو ملامح وجهها:
ـ الطبيب الذي أعمل عنده بالعيادة.. كان كثيرا ما يغازلني ويشبعني بكلامه المعسول الذي كنت في أمسّ الحاجة إليه. كنت كالظمآنة التي شقق الجفاف حلقها، وهو ظل يقطر لي الماء قطرة قطرة حتى أصبحت أتلهف عليها

وأنتظرها منه. وفي اليوم الموعود، وبعد انتهاء وردية العمل، وبينما أنا أرتب بعض الأدوات بغرفته فوجئت به يغلق الباب ويقترب مني ويحتضنني من الخلف، فانتفضت مفزوعة من تصرفه هذا، ولكنه اقترب مني وأحاط رقبتي بذراعه وأمسك يدي بذراعه الأخرى، وقبل أن أتفوه بكلمة اعتراض واحدة طبع على شفتي قبلة عنيفة لم أجد أمامها بدا من الاستسلام، وبدلا من أن أقاومه وجدتني أستجيب له بكل كياني والتحمت شفتانا ولم تنفك إلا بعد دقائق لم أستطع عدها. كنت وقتها كالأرض الجافة التي ترتوي بعد طول ظمأ. صعد بي على الشيزلونج، وغصنا في بحر العسل سويا، ورغم طول مدة معاشرته لي، والتي تجاوزت أي مدة طبيعية قد تعودت عليها من قبل، كنت بعد أن انتهينا لا أزال أشعر بعدم الارتواء. كنت كالبركان الذي ظلت الحمم تشتعل في باطنه وتنتظر أي خربشة بسيطة حتى يثور وينفجر. وبعد الانتهاء لم أتفوه معه بكلمة. فقط لملمت مشاعري وملابسي وخرجت مسرعة، وفي الطريق كان الشعور بالمتعة واللذة قد بدأ يتلاشى تدريجيا ويحل محله الشعور بالذنب والندم على ما فرطت فيه من شرفي وكرامتي. وعلى ما اقترفته من إثم، ولكنني لم أكن أدري كيف حدث ذلك؟ أو لماذا؟ ولم أخطط له وأسعى إليه. فجأة وجدت نفسي غارقة في نشوة وسعادة ثم في حسرة وندامة. وعدت ليلتها إلى البيت في نفس الوقت الذي قابلتني فيه على السلم.

هنا سألها أدهم قائلا:

ـ وهل حدث بينكما لقاء آخر.

فقالت متحرجة:

ـ لن أكذب عليك، فعلى الرغم من ندمي الشديد على ما حدث ليلتها إلا أنني كنت في الوقت نفسه أتمنى حدوثه مرات ومرات، وبالفعل عندما طلبني بعدها تمنعت ولكن تمنع الراغب وليس تمنع الزاهد، ولم أجد أي قوة بداخلي تمنعني من القبول. وتجدد اللقاء ثانية لدرجة أنه استغل احتياجي للمال وفقري الشديد وأخذ يغدق عليّ بأكثر مما كنت أريد مقابل حصوله على المتعة من جسدي الظمآن. ترى ماذا سيكون رأيك فيّ الآن. هل سأسقط من نظرك؟ أم أنك ستنظر إليّ على أنني باغية؟

فقال أدهم مؤكدا:

ـ معاذ الله. أنا لست إلها حتى أحكم على ما بداخل الناس أو أحاسبهم. كلنا بشر والخطأ من الصفات الأساسية للتكوين البشري، وكلنا تحت الضغط النفسي والعصبي والكبت معرضون لارتكاب أفظع مما ارتكبتِ أنتِ.

ارتاحت سلوى لكلام أدهم، وسكنت نفسها، ولكنه أردف قائلا:

ـ ولكن هذا لا يمنع أنك أخطأتِ، ولابد لك من توبة.

فقالت، والحسرة تملأ صوتها:
ـ وهل سيقبل الله توبتي؟
فقال أدهم مؤكدا:
ـ إن الله يقول في حديث ما معناه أننا لو لم نخطيء لأبدلنا بأناس آخرين يخطئون ويتوبون فيتوب عليهم ويغفر لهم، والآن إنسي هذا واحذفيه من ذاكرتك إلى الأبد، وعما قريب سترتاحين من هذه العيادة ومن فيها وستشعرين بسعادة كبيرة.
فمسحت دموعها، وقالت مستفهمة:
ـ وكيف ذلك؟
فقال بلهجة واثقة:
ـ سيحدث، ولكن بعد أن تنفذي ما سأطلبه منك.

(١١)

-الآن سأطلعك على أكبر سر فى حياتى .
قالها يوسف بك المصرى وهو ينزل على سلم خشبى صغير ومتهالك فى بدروم مهجور أسفل الفيلا ، ومنه إلى سرداب طويل ومظلم كانا يستعينان على تبديد شيئا من ظلامه بكشاف يمسكه أدهم بيد ، ويسند يوسف بك باليد الأخرى ليساعده على السير ، وفى نهاية هذا السرداب المظلم الملىء بالفئران وخيوط العناكب ، وجد أدهم نفسه أمام قبة حجرية صغيرة أشبه بقباب المساجد القديمة ، وعندها تقدمه يوسف بك ومد يده داخل هذه القبة وأمسك بشىء ثقيل طلب من أدهم أن يعينه على سحبه للخارج ، ورغم عدم فهم أدهم لأى شىء يدور حوله ، ورغم عدم وضوح الرؤية داخل هذا المكان الموحش تحت الفيلا ، إلا أن غموض التجربة وسحرها أثارا الفضول فى نفسه التى تتوق لكل ما هو غامض وغير مكتشف ، فمد يده وأمسك هذا الشىء الثقيل وأخذ يسحبه على الأرض ليخرجه فأصدر احتكاكه بالأرض أثناء سحبه صوتا بيَن لأدهم أنه من الصاج ، وعندما أخرجه أدهم وجده بالفعل صندوقا كبيرا من الصاج ، ولكنه ملىء بالصدأ ، حاول إلتقاط أنفاسه من التراب الذى أثاره الصندوق أثناء خروجه ، ثم سأل يوسف بك عن هذا الصندوق ، فقال الأخير مؤكدا :
-هذا ليس كل شىء ، وليس هو السر بعد ، السر لا يزال فى داخله .
وبمنتهى الفضول أخذ أدهم من يوسف بك مفتاح القفل الذى يغلق صندوق الصاج وأخذ يعافر فى فتحه نظرا لصدأه ، حتى نجح أخيرا فى فتحه ، وبشوق رفع غطاءه ولكن سرعان ما أصابه الاحباط ، حيث وجد نفسه أمام صندوق

آخر بداخل صندوق الصاج ، ولكنه مختلف ، حيث يبدو أصغر حجما ، ومن الخشب القديم ، فقال ليوسف بك مستغربا :
-إنه صندوق آخر ، صندوق داخل الصندوق ، هل هذا هو السر ؟
فقال يوسف بك ساخرا :
-لا ، السر هو ما بداخل هذا الصندوق الخشبى الصغير .
تنهد أدهم محبطا وقال :
-أنا لا أفهم شيئا .
إبتسم يوسف بك قائلا :
-إحمل هذا الصندوق الصغير ، وهيا بنا نصعد إلى غرفتى ، وسأطلعك على ما لم تحط به خبرا .

(١٢)

دخل أدهم حاملا الصندوق الخشبى ثم وضعه على منضدة قريبة من السرير ، ثم دخل يوسف بك من خلفه وأغلق باب غرفته جيدا ، أخذ أدهم ينفض التراب العالق فى ملابسه من السرداب اللذان كانا فيه للتو ، ثم أخذ يوسف بك يمسك بالصندوق ويتأمله جيدا وشجن الذكرى يطل من نظرات عينيه ، ثم وضع الصندوق ونظر إلى أدهم قائلا:
-هذا الصندوق به كنز العائلة ، وضعه أبى رحمه الله بداخله وأغلقه بشيفرة خاصة وتركه لى قبل أن يموت.
فتح أدهم فمه فى بلاهة واضحة واستغراب ، ولكن يوسف بك لم يمهله فرصة للتفكير فأردف قائلا :
-أعلم أنها قصة غريبة ، ولكنى سأقصها عليك من البداية ، فما زال هناك فيها ما هو أغرب.
جلسا الاثنان سويا على السرير وبدأ يوسف بك يقص على أدهم أهم أسرار حياته :
-كان أبى رحمه الله يعمل صيادا مع والد زوجته فى المكس كما قلت لك آنفا ، وكان فقيرا رغم غنى أبيه – جدى – وأثناء إحدى رحلات صيده فى البحر كان يرافقه على المركب أحد السياح الأجانب وزوجته ، بعد أن طلب من أبى أن يصحبهما بشكل شخصى فى تلك الرحلة على أن يدفع لأبى مقابل ذلك مبلغا جيدا ، فلم يرفض أبى الرزق ووافق على اصطحابهما ، كان السائح أستاذا جامعيا يقوم بتدريس الأدب اللاتينى فى إحدى جامعات دول أمريكا اللاتينية ، وأثناء الرحلة فى عرض البحر كان هو وزوجته يشاركان أبى ورجاله فى

شد شباك الصيد من المياه وهما فى غاية السعادة والفرحة بتلك التجربة ، ولكن سقط من يد زوجته خاتمها الألماس فى عرض البحر ، صرخت المرأة صراخا عاليا ، فهرع الجميع إليها ، فى البداية ظنوا أن شيئا قد قرصها ، أو أنها رأت ما أفزعها ، ولكن لأن الاستاذ الجامعى كان يعرف العربية بشكل جيد أخبر أبى بأنها فقدت خاتمها الألماس وشرح لأبى أهمية هذا الخاتم ليس فقط لبهاظة ثمنه ، ولكن لأنه أيضا يعتبر قطعة أثرية مورثة من العائلة المالكة فى إنجلترا والتى تنحدر زوجته من سلالتها ، وعاد أبى بهما إلى الشاطىء مرة أخرى وهما فى قمة حزنهما ولم تكف السيدة عن البكاء ، وهنا عزم أبى على العودة والبحث عنه مهما كلفه ذلك من جهد ووقت وعناء ، ليسعد قلبيهما وحتى لايعودان إلى بلادهما وهما يحملان له ذكرى سيئة ، وأخبره أبى بهذة الرغبة ، ففرح الاستاذ الجامعى فرحة كبيرة به ، وشد على يده ، ووعده فى حالة إيجاد الخاتم سيكافئه بمكافأة قيمة ، وبالفعل عاد أبى بالمركب وظل يبحث هو ورجاله عن الخاتم حتى وجده بعد ثلاث أيام من البحث المضنى ، وعاد به إلى الرجل وزوجته ، ولم أستطع أن أصف لك فرحتهما كما نقلها لى أبى ، وعرفانا بهذا الجميل ، قرر أستاذ الأدب اللاتينى أن يكافىء أبى كما وعده ، فأهداه هذا الصندوق الخشبى العجيب .

نظر أدهم إلى الصندوق مرة أخرى بدهشة ، وقال :

-ولكن ما ميزة هذا الصندوق حتى يجعله مكافأة لأبيك ؟

قال يوسف بك :

-هذا الصندوق كان هو أيضا قطعة أثرية مورثة من العائلة المالكة فى إنجلترا ، يقال أنه كان صندوق المجوهرات الخاص بملكة انجلترا فى شبابها ، ولكن لا أحد يعلم صحة ذلك من عدمه ، وهو أول صندوق من نوعه فى ذلك الوقت الذى يغلق بالشيفرة ، انظر إلى هذة الحروف .

وأمسك يوسف بك بالصندوق وناوله لأدهم وهو يشير له على مكان قفل الحروف ، فأخذه الأخير متأملا :

-هذا الصندوق مغلق بشيفرة سرية عبارة عن كلمة مكونة من خمسة حروف ، هذة الكلمة هى التى تغلق القفل ، هذا القفل عبارة عن مصفوفة من الحروف ، يتم ضبطها بشكل متوازى على كلمة معينة يختارها من يريد غلقه ، وعليه أن يضبطها مرتان بنفس الطريقة حتى يغلق القفل فى المرة الثالثة ، وبذلك يصبح الصندوق مغلقا بهذة الشيفرة ولا يستطيع أحد أن يفتحه سوى الشخص الذى أغلقه ، وهذا ما فعله أبى بعد ذلك .

استغرب أدهم فسأله قائلا :

-ولماذا أغلقه أباك ؟ وماذا وضع فيه ؟

-هذا هو السر !
قام يوسف بك حاملا الصندوق ووضعه على المنضدة مرة أخرى ، ثم نظر إلى أدهم قائلا :
-لقد وضع أبى كل مايملكه على شكل كنز - لا أدرى ما هو - فى هذا الصندوق ، وأغلقه بشيفرة خاصة مكونة من خمسة حروف ، ومات دون أن يفصح لى عن كلمة السر التى تفتحه .
-ولماذا فعل ذلك ؟
-لم يكن لأبى أبناء سواى ، ولقد عاش معى حتى فترة متأخرة ، ورأى أبنائى عندما كبروا ، ورأى شيئا من طباعهم ، فخشى أن يبددوا ثروته والتى هى ثروتى من بعده ، فوضع كل شىء هنا فى هذا الصندوق ، ثم إجتمع بى ذات مرة إجتماع سرى ، وأفصح لى بأنه قد وضع الكنز داخل هذا الصندوق ، وأبدى لى رغبته فى المحافظة على أملاك العائلة ، وأنه لن يحصل على هذا الكنز إلا من سيستطيع أن يفك الشيفرة ويعرف كلمة السر ، وقال أنه آثر ألا يطلعنى عليها حتى لا أضعف أمام أبنائى وأقر بها أمامهم إذا ما تعرضت لضغط منهم ، وبذلك يضيع كل ما خطط له أبى.
قام أدهم هو الآخر وقد اتسعت عيناه من الدهشة والاستعجاب من كل ما سمعه ، فهذة هى أغرب حكاية سمع عنها أو بالأحرى عاشها فى حياته ، تذكره بحكايات ألف ليلة وليلة ، وفكر قليلا ثم قال :
-اذا كان كل ذلك صحيحا ، كيف سيعرف أبنائك كلمة السر دون أن يكون قد ترك لهم الجد إشارة ما ، أو دليلا يستعينون به على فك تلك الشيفرة ؟
إبتسم يوسف بك قائلا :
-لقد فكرت فى هذا الأمر مرارا وتكرارا حتى كاد عقلى أن يشل ، ولم أصل إلى شىء.
ثم سكت يوسف بك قليلا وكأنه قد تذكر شيئا وقال :
-ولكنه قال لى شيئا غريبا ؟
وبمنتهى الفضول قال أدهم :
- وما هو ؟
- لقد قال لى أبى ، أن كلمة السر لن يصلوا إليها وهم متفرقون ، وفى الوقت الذى يجتمع فيه الجميع ، ويصبحون فيه على قلب رجل واحد ، وقتها فقط سيعرفون ما هى كلمة السر التى ستفتح الصندوق ، ويستخرجون منه الكنز الذى تركته لهم.
أخذ أدهم يفكر مليا فى هذا الكلام ، ويحاول إعادته بداخل رأسه لتقييمه ، ثم قال :

-ألم تحاول تجربة فتح الصندوق من بعده ؟
-حاولت بكل الطرق ، ولكنى فشلت فى الوصول إلى أى كلمة سر يمكن أن تخطر فى بال أبى.
-أليس من الممكن أن تكون كلمة السر من البساطة ما يجعلها آخر شىء يخطر ببالك ؟
- حتى ولو كانت كذلك ، فمن أين لى أن أعرفها ؟
- هل حروف القفل بالانجليزية ؟
- لا إنها بلغة غريبة لا أعرفها ، ولم أرها من قبل فى حياتى.
أمسك أدهم بالصندوق ثانية وأخذ يتأمل الحروف المصفوفة فى خمسة صفوف متوازية ولكنه أيضا فشل فى تحديد أى لغة تكون نظرا لغرابتها ، ثم أنتبه فجأة وقال :
-ألم تحاول كسره ؟
هز يوسف بك رأسه بخيبة أمل وقال :
-حاولت ، ولكنى اكتشفت أن كسر رأسى أهون ألف مرة من كسره ، فهذا نوع من الخشب لا يكسر.
حاول أدهم هزه ليخمن ماذا يمكن أن يكون بداخله ولكنه لم يستطع تمييز شىء ، فوضعه وهو أكثر حيرة من قبل ، وقال :
-إذن كل ما تملك هذة العائلة مرهون بفتح هذا الصندوق ، وإلا لا يوجد ورث ، ولا أى شىء ؟
-نعم ، وأبنائى المساكين يظنون أنهم بقضية الحجر سيحصلون على كل شىء ، وهم لا يدرون أننى لا أملك حتى عقدا لهذه الفيلا ولا أى شىء.
- ولماذا لم تحاول إخبارهم بحقيقة هذا السر ؟
إكتسى الحزن ملامح الرجل العجوز وقال :
-لقد كنت أنوى ذلك بالفعل ، وفى اليوم الذى قررت فيه استدعاء المحامى الخاص بالعائلة ليحضر هذا الاجتماع بينى وبينهم ، أخبرنى بأمر القضية التى ينتوون رفعها على ، فحزنت وأصابنى المرض ، وقررت ألا أخبرهم بشىء وأن أموت ومعى سرى وسر أبى حتى ألقنهم درسا لن ينسوه ، ولكن ظهورك فى حياتى جدد فى الأمل فى أن أجد من أحمله أمانة هذا السر حتى لا يموت معى إذا ما رحلت فى أى وقت.
سكت أدهم قليلا ، وأخذ يفكر فى عمق وهو يسير فى الغرفة ذهابا وإيابا ، فسأله يوسف بك قائلا :
-والآن ، بعد أن عرفت السر ، ماذا ستفعل ؟
فقال أدهم وهو مازال يفكر :

-لقد كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن أساعدك فى لم شمل أبنائك حولك ، وعزمت على أن أبدأ فى ذلك قبل أن تنتهى فترة عملى معك ، ولكن الآن أصبح لزاما على التحرك فى وضع خطة لجمع شتات هذة العائلة مرة أخرى على قلب رجل واحد ، كما تقول الوصية ، حتى يستطيعون فك الشيفرة وإيجاد كلمة السر المكونة من خمسة حروف ويفتحون الصندوق ويحصلون على الكنز الذى سيغير حياتهم ، أعلم أنها مهمة ليست سهلة ورحلة ليست يسيرة ، ولكنى كنت عازم على قطعها بدافع واحد ،أما الآن فأصبح لدى دافعان .

فقال يوسف بك وشعور بالأمل يملأه :

-ولكن كيف سنعرف كلمة السر وهى بلغة لا نفهمها ؟

- دع كلمة السر لوقتها ، الآن علينا تنفيذ الجزء الأهم والأصعب من الوصية ، وهى جمع شمل العائلة المفككة على قلب رجل واحد ، وإذا حدث ذلك كما يقول والدك ، سيستطيعون هم أن يصلوا بسهولة إلى كلمة السر التى ستفتح الصندوق.

-أعلم أنها مهمة شبه مستحيلة ، ولكنى أثق فى قدراتك ، ترى من أين ستبدأ رحلتك مع عائلتى ؟

فابتسم أدهم إبتسامة تحدى ثم قال :

-من هنا ، من أسرة سلوى.

(١٣)

بينما كان أدهم جالسا مع يوسف بك في غرفته ينهيان حديثهما عن صندوق الكنز السرى، سمعا صوت ارتطام جسم ثقيل على الأرضية الخشبية للغرفة المجاورة، استغربا للصوت، وحثه يوسف بك على أن يذهب ليرى ماذا سقط؛ فخرج أدهم من الغرفة، واقترب من غرفة نهى المجاورة لغرفة جدها وطرق الباب فلم ترد ثم سمع نحيبا يأتي من الداخل. وما أن دفع الباب ودخل حتى هاله المنظرالذي رآه، فقد كانت نهى تحاول الانتحار، ولكنها فشلت في ذلك وسقطت هي والكرسي على الأرض؛ فهرع إليها وأحذ بيدها وفك الحبل من حول رقبتها وحملها إلى السرير وقد تحول نحيبها إلى بكاء شديد، وهو يحاول تهدئتها وسؤالها عن سبب هذا الفعل الشنيع، ثم غطاها وذهب إلى غرفة جدها ليطمئنه.

وعندما رأى يوسف بك وجه أدهم، وقد أصبح في لون الليمونة بعد أن هرب منه الدم، قال له:

ـ ماذا حدث يا أدهم؟
فقال أدهم محاولا السيطرة على أعصابه:
ـ لا تقلق.. لم يحدث مكروه. لقد احتكت نهى بكرسي مكتبها فسقط على الأرض.
ـ ولماذا وجهك مصفر هكذا؟
ـ لقد فزعت في باديء الأمر، ولكن جاءت سليمة.. أستأذنك في خمس دقائق، سأجلس فيها مع نهى ثم آتي لك.
وخرج آدهم من غرفة يوسف بك مسرعا إلى غرفة نهى، فوجدها مازالت تبكي في سريرها فجلس بجوارها، وقال:
ـ ما هذا الذي كنت تفعلينه؟
ففالت بألم وأسى:
ـ لماذا أنقذتني؟ كنت أريد الانتحار.
ـ وتموتين كافرة؟ هل سيتحمل جسدك الرقيق هذا العذاب في النار؟
فقالت والدموع تسبق كلامها:
ـ أهون من النار التي أعيش فيها هنا.
فقال أدهم متحايلا:
ـ لقد وعدتيني من قبل عندما استقبلتيني عند الباب أنه سيكون بيننا لقاء لنتحدث سويا ونتعرف على بعضنا أكثر، مما يعني أنه كانت لديك الرغبة والاستعداد لعقد صداقة بيننا وأعتقد أنه لا يوجد أنسب من هذا الوقت لتعترفي لصديقك بما يؤلمك.
فقالت نهى بلهجة استغربها أدهم:
ـ لا يوجد أحد في هذا العالم يشعر بي أو يفهمني. الكل يفكر في نفسه فقط ، حتى أقرب الناس إليّ، أبي وأمي، الكل يعيش في دائرة مغلقة ولا يسمح لأحد آخر أن يشاركه هذه الدائرة، وكأننا لسنا ابنيهما.. عشت في بيت كالسجن الدخول بأمر والخروج بأمر. نشأنا على الخوف والرعب ونحن نرى الشجار الدائم بين أبوينا، وعندما وجدت الشخص الذي أحببته وشعرت معه بالأمان وقفت أمامي الدنيا كلها لتحرمني منه فما كان أمامي حل إلا الموت.
اعتدل أدهم في جلسته، وشعر أنه يقف على عتبات قلب هذه الفتاة الرقيقة؛ فمسح بيده على شعرها، ثم مسح الدموع التي بللت خديها المتوردين، وقال:
ـ كان عليك بدلا من الهروب إلى الموت أن تتحدي العالم بأسره كي تحصلي على حبيبك لا أن تتركيه وتستسلمي لليأس. هل لي أن أسألك من هو سعيد الحظ هذا الذي استطاع أن يكسب ذلك القلب الرقيق؟
شعرت نهى بحنو غريب في صوته لم تحسه من قبل؛ فلكم كانت تتمنى منذ زمان طويل أن يكون أبوها بجوارها وأن تربطه بها علاقة صداقة وتحكي له

كل أسرارها وفجأة ظهر لها أدهم وأيقظ هذا الإحساس في نفسها بحنانه ورقته وقدرته في التعامل مع النفسيات المختلفة للبشر، فاستسلمت وقالت له:
- طارق ابن خالي فريد.
أحس أدهم بخطورة الوضع، لصلة القرابة التي بينهما، فقال:
- ومن الذي عارض إتمام هذا الموضوع؟
- الجميع يعارض وأولهم أمه نازك هانم، لأننا فقراء، وهي ابنة الحسب والنسب، فهي دائما تفتخر بنسبها وتشعر أنها فوق الجميع حتى زوجها نفسه.
قالت لطارق:
«لابد وأن تتزوج من فتاة غنية تكون سليلة عائلة عريقة حتى يفتخر بها أبناؤك بعد ذلك، كما أفتخر أنا بعائلتي».
حاول أدهم أن يكوِّن عن تلك المرأة المغرورة، صورة في خياله وكيف سيكون لقاؤه معها بعد ذلك، ولكنه عاد ليقول:
- وماذا عن موقف أبيه؟
- خالي لا يعترض بل يتمنى ذلك، ولكن في نفس الوقت شخصيته ضعيفة ولا يستطيع أن يقول ذلك أمامها حتى لا تغضب وتثير المشكلات، فترك الأمر لها. حتى أمي هي الأخرى رفضت هذه الزيجة حتى لا تقع العائلة في مشاحنات وفراق أكثر مما هي عليه الآن.
- وماذا عن موقف طارق؟
- إنه يتحدى العالم من أجلي وأصر على الزواج مني حتى بعد أن هددته أمه من حرمانه من أي حق له فيما تملكه أو يملكه أبوه، وأنها لن تساعده في أي شيء.
قال أدهم متعجباً:
- عجبا لأمر هذه الدنيا. نفس السيناريو الذي حدث من قبل مع جدك وأبيه، ثم جدك وأبيك يتكرر الآن مع طارق وأمه. إنه الإنسان الذي لن يتغير مادامت الدنيا. ولكن أعود لأقول لك ما كان يصح أن تفكري في الانتحار أبدا مهما بلغت الضغوط والأسباب، فحياة الإنسان هي أغلى ما يمتلك.
- ولكن في كثير من الأحوال لا يمتلك الإنسان الحياة، بل الحياة هي التي تمتلكه. ووجودي في الحياة سيثير المشكلات أكثر من رحيلي عنها.
- لماذا؟
فقالت بتردد وبصوت متقطع:
- لأنني أشك في أن أكون حاملاً.
شهق أدهم واتسعت عيناه من المفاجأة، ونظر إليها بعينين يملأهما الذهول والتعجب فلم تحتمل هي تلك النظرات، فأكملت تقول:

ـ لقد تزوجنا على سنة الله ورسوله، ولكن زواجا عرفيا.
فقال أدهم وما زال الذهول في عينيه:
ـ طالما عرفيا يبقى ليس على سنة الله ورسوله، لأن أهم شروط الزواج في الإسلام هو الإشهار. كما أنه لا يجوز الزواج لأي فتاة بدون ولىَ. أنا لا أصدق أن ترتكبي أنتِ مثل هذا الجرم.
فقالت نهى بلهجة من يدافع عن نفسه في محكمة:
ـ ولماذا صدقت كل الجرم الذي أجرمه أبي وأمي في حقنا، بعد أن حرمانا من دفء أحضانهما وتركانا لبرد الحياة. من منا الذي أجرم أنا أم هما. لقد وجدت في طارق كل ما أبتغيه في الحياة.. الحب والحنان والأمان والحضن الدافيء. وجدت فيه الأب والأخ والصديق والحبيب، وعندما خشينا من أن نضيع من بعضنا وتفرقنا الأيام دفعنا هذا الخوف إلى التفكير في المحافظة على هذا الحب فتزوجنا، وعندما جاءني هاجس بأنني قد أكون حاملا قررت التخلص من الحياة حتى لا تزداد المشكلات. قل لي بحق صداقتنا من منا المذنب الحقيقي؟
فقال أدهم بلهجة عادلة لا مفر منها:
ـ أنتِ وأخوكِ نتيجة طبيعية لما ارتكبه أبواكما في حقكما وحق نفسيهما من أخطاء. ونحمد الله على أن الأمور قد وصلت إلى هذا الحد، ولكني أريدك أن تعديني ألا تكرري هذا الأمر مرة أخرى.
ـ أعذرني لن أعدك، فإنني لا أستطيع أن أواجه النار وحدي.
فابتسم أدهم قبل أن يقول:
ـ لن تواجهينها وحدك.. بل سأواجهها معك.
التفتت إليه غير مصدقة ما سمعت، ثم قالت:
ـ كيف؟
ـ سأواجههم جميعا معك ولن أتركك إلا بعد زواجك من سي طارق حبيب القلب، ولكن بعد أن يتأكد لي صدق حبه لك.
تبدلت ملامح الحزن والهم على وجهها بملامح الفرحة وأشرق وجهها بابتسامة رق لها قلب أدهم، وقالت له:
ـ أنت رجلٌ عظيم.
فضحك أدهم وقال:
ـ أعلم ذلك. سمعتها كثيرا في هذا البيت. ولكن أريدك أن تقابليني بطارق.
فقالت باستغراب:
ـ لماذا؟
ـ عندما سنقابله ستعرفين.. والآن أريد أن أسألك سؤالا هاما. هل تريدين أن يعود أبوك ويعيش معكم مثلما كان؟

ارتسمت ملامح الحزن مرة أخرى على وجهها الرقيق، وقالت:
ـ ليس كل ما نتمناه يتحقق.
فقال أدهم مؤكدا:
ـ من الممكن أن يتحقق ولكن بشرط... !
وبلهفة توقعها أدهم قالت:
ـ أي شرط؟
ـ أن تنفذي ما سأطلبه منك بالحرف الواحد.

(١٤)

استطاع أدهم أن يحصل من سلوى على تليفون عاصم في بيته الثاني، وبالفعل اتصل به وأخذ منه موعدا، الليلة، على المقهى التجارية بالمنشية، بعد أن أخبره بأنه يريده في أمر هام يخص أسرته، وبالفعل في تمام التاسعة مساءً كان أدهم وعاصم يجلسان سويا على المقهى.
عرَّفه أدهم بنفسه، وحكى له شيئا من حياته وعن سبب عمله مع والد زوجته، ثم قال:
ـ أستاذ عاصم.. ما جئت إليك اليوم إلا لأعقد معك صداقة سأكون فخورا بها ولأحدثك في أمر هام يخص أسرتك.
ظهر القلق على وجه عاصم، وقال:
ـ هل حدث لأحد من أبنائي مكروه؟
ـ وهل هناك مكروه أعظم مما هما فيه الآن؟
ـ ماذا تقصد؟
ـ أستاذ عاصم أنت تعلم جيدا أن السبب الرئيسي في شلل ابنك حمادة هو أنت.
وضع عاصم وجهه في الأرض مهموما فاستغل أدهم هذا، وقال:
ـ عندما يتربى الأبناء داخل أسرة مفككة يصبحون شخصيات مفككة، ويكونون عرضة للانحراف، وليس فقط الصبيان بل البنات أيضا.
نظر إليه عاصم بجزع، وقال:
ـ هل حدث لابنتي مكروه؟ أرجوك تكلم.
فقال أدهم محاولا تهدئته:
ـ لا يوجد مكروه، ولكن من يدري ماذا يمكن أن يحدث لها غدا.
فقال عاصم محاولا إيجاد مبرر:
ـ لقد عرضت عليهما أن يأتيا ليعيشا معي، ولكنهما رفضا ذلك.

ـ وهل هذا حل؟
وضع عاصم رأسه بين ذراعيه وأسندهما إلى المنضدة للحظات سمحت لأدهم أن يتأمل وجهه، فوجده عبوسا، من الواضح أنه لم يبتسم منذ سنوات بعيدة، وتبدو على قسماته علامات الفقر والمعاناة، حتى عيناه الغائرتان ـ خلف تلك النظارة الطبية ـ تحتبس بداخلهما دموع تنتظر فرصة للنزول والبكاء، فرفع رأسه، ثم قال:
ـ أنا أعيش بين ألسنة نيران تحيطني من كل جانب، نار حبي لسلوى، ونار الذل والمهانة التي لاقيتها على يديها ويدي عائلتها. بين نار شوقي لأولادي ونار كرامتي التي جرحت ولا يزال جرحها ينزف حتى الآن، بين نار الفقر والحاجة ونار رشوة كبيرة معروضة عليّ في عملي.
اعتدل أدهم في جلسته، وقال:
ـ واحدة واحدة عليّ حتى أستطيع أن أستوعب، ما كل هذا الذي تحتويه بجعبتك. إنك بتلك الهموم لا تستطيع الحياة يوما واحدا.
ـ ومن قال أنني حي. أنا متُّ منذ زمان بعيد. متُّ عندما مات بداخلي الأمل في المستقبل والحياة. لقد قتلني الفقر قتلا واغتال كل أحلامي. لست غريبا سأحكي لك كل شيء.
فرح أدهم أنه وفر عليه مجهودا شاقا كان سيبذله حتى يطمئن له الرجل ويكشف عما بداخله، وقال:
ـ قل ما تشاء يا صديقي. كلي آذان صاغية.
فاستسلم عاصم للحكي، وقال:
ـ وأنا شاب صغير، كنت فقيرا جدا، ولكني كنت طموحا للغاية. كنت أريد أن أغيّر حياتي التي أحياها وأتزوج من فتاة أنتقل معها إلى مستوى أرقى في المعيشة، وبالفعل عرفت سلوى عن طريق عملي بسوبر ماركت كانت تتردد دائما عليه، وأحببتها وكنت قد تركت بيتي وأهلي بدمنهور وجئت إلى الإسكندرية لأحقق فيها أحلامي.
ولكنني عندما تقدمت لأبيها رفضني نظرا لفقري؛ فواجهته وقلت له أنني أدرس التجارة بجوار عملي في السوبر ماركت، وسأعمل بالمحاسبة وستتغير حياتي. وكانت سلوى قد حكت لي عن بدايات أبيها وأنه كان فقيرا مثلي فذكرته بذلك، ولكنه أصرّ على موقفه، وعندما وجدنا مصريّن على الزواج طردها من بيته وتزوجنا في شقة أبي.
كان أدهم يريد أن يقاطعه، ويخبره بأنه يعرف بقية القصة، ولكنه خشي من أن يغضب إذا علم بأنه تحدث مع زوجته في شيء مثل هذا؛ فتركه يحكي ويكمل قائلا:

ـ وبعد أن مات أبي استولت زوجته على الشقة وكان لزاما علينا الانتقال إلى بيت العائلة بعد أن سمح لها أبوها، ومن هنا بدأت المشكلات.
ـ هل ضايقك أبوها؟
ابتسم عاصم ساخرا، وقال:
ـ لم تكن مضايقة بل كانت إهانة لكرامتي. كان كلما رآني آكل يقول لي إنك تأكل من خيري، وكلما وجدني نائما يقول لي إنك تنام في فراشي، حتى مللت الحياة في هذا البيت خصوصا بعدما فشلت في الارتقاء بمستوى حياتى ، وضاقت علىّ حلقات الفقر وانطفأ الأمل بداخلي، وكنت أتحين الفرصة للخروج من هذا البيت، وبالفعل دبرت مبلغا من (جمعية) كنت مشتركا فيها، واستأجرت شقة صغيرة بالورديان، وعرضت على سلوى أن ننتقل إليها، ولكنها رفضت أن تترك فيلا أبيها لشقة إيجار.
وفي هذا الوقت كانت لي زميلة في العمل مطلقة وتعاني من الوحدة، وحدث بيننا تفاهم فوضعت همها على همي وتزوجنا.
ـ وهل تحبها وسعيد معها؟
ـ أنا لم أحب في حياتي سوى سلوى، وإذا قارنت السعادة التي وجدتها مع زوجتي الثانية مديحة، والسعادة التي وجدتها مع سلوى على قلتها ستكون المقارنة لصالح سلوى.
ـ ولماذا تعيش معها إذن؟
ـ تعودتها كما تعودت كل شيء في حياتي، رغم أن الخلافات بيننا تزداد يوما تلو الآخر.
ـ وماذا عن النار التي وجدتها من قبل عائلة سلوى؟
ـ كلهم كانوا ينظرون لنا من أعلى لأن سلوى تعتبر هي أفقر إخوتها حالا، وكانوا دائما يرجعون السبب في ذلك لزواجها مني ويعتقدون أنني منحوس ونحستها معي. ومن كثرة ما سمعت منهم هذا الكلام صدقته، كانوا يأتون لزيارة أبيهم في الأعياد ويعطون أولادي العيدية مصحوبة بسيل من الكلمات والتعليقات على ملابسهم التي لا تليق بالعيد وعن فرش البيت الذي لا يليق باستقبال ضيوف من نوعية نازك هانم مثلا.
استغرب أدهم من تكرار اسم نازك هانم أمامه منعوتا بالغرور للمرة الثانية مما كان يزيد تحديه لمقابلتها ولكنه قال في نفسه:
"لابد أولا أن أضع لها خطة في كيفية التعامل معها فهي نوعية جديدة لم تمر علىّ من قبل وفي نفس الوقت مثيرة لفضول الكاتب بداخلي"..
ولكنه عاد ليقول:
ـ وماذا عن موضوع الرشوة المعروضة عليك؟

ضحك عاصم ساخرا قبل أن يقول:
ـ همّ يضحك وهمّ يبكي. في عز الأزمة والضيقة التي أمر بها وجدت من يعرض عليّ رشوة تقدر بخمسين ألف جنيها.
ـ والمقابل؟
ـ أن أسمح بمرور شحنة دجاج فاسدة من الميناء.
ذهل أدهم للحظات، ثم قال:
ـ وهل وافقت؟
ـ أعيش في صراع رهيب مع نفسي، بين أن أقبلها وأصلح من أحوالي بالنقود، وأقتل الفقر كما قتلني، وبين الناس الغلابة الذين سيتضررون من أكل الدجاج الفاسد.
ـ وزوجتك الثانية تعرف هذا الموضوع؟
ـ نعم.
ـ وما رأيها؟
ـ للأسف تشجعني على قبول الرشوة، وهذا سر ازدياد المشاكل بيننا.
ـ هذه المرأة ليس لها أمان.
ـ لذلك أتمنى الفكاك منها قريبا.
فرح أدهم من رغبته في التخلص من زوجته الثانية، وشعر أن الطريق ممهد أمامه لمحاولات إصلاح ما بينه وبين سلوى خصوصا بعدما لمس أن حبها في قلبه لم يقل، فتحمس قائلا:
ـ أستاذ عاصم أنا قررت أساعدك.
ـ كيف؟
ـ سأجعلك تتخلص من الذين يطاردونك بهذه الرشوة، ولكن ليس قبل أن تعدني.
ـ بماذا؟
ـ بأن تأتي معي لزيارة زوجتك وأولادك.
اضطرب قليلا، ثم قال:
ـ لم يأت موعد إعطائي المصروف لهم بعد.
ـ وهل كل ما يربطك بهم هو المصروف؟!. إنهم في أشد الحاجة إليك؛ فأرجوك لا ترفض طلبي إذا كنت بالفعل تعتبرني صديقا لك؟
ـ أنت بالفعل أصبحت صديقا عزيزا ولكن...
ـ لا لكن ولا شيء.. ستزورهم معي غدا.. ولكن أريدك الآن أن تأخذ ميعادا من هؤلاء الأوغاد الذين عرضوا عليك الرشوة، وتخبرهم بأن هناك شريكا معك يطلب نفس المبلغ وأنه من الممكن أن يثير الشكوك حولكم في الميناء.
فقال عاصم مستغربا:

ـ ولكن أنا ليس لي شركاء.
ـ أعلم ذلك، ولكن اسمع كلامي حتى أخره، بعد أن تخبرهم بذلك تطلب منهم تحديد مكان للقائهم بهذا الصديق غدا الساعة الثالثة عصرا.
ـ ولكن من هو هذا الصديق؟
سكت أدهم قليلا ثم قال:
ـ أنا
فقال عاصم والدهشة تملأ عينيه:
ـ أنا لست فاهما أي شيء.
ـ ستفهم كل شيء في وقته. وغدا سأريحك من هذا الموضوع للأبد. وبعد انتهاء اللقاء ستأتي معي لزيارة زوجتك وأولادك.
قال عاصم بتردد:
ـ أليس من الممكن أن نؤجل موضوع الزيارة هذا ليوم آخر.
هز أدهم رأسه نافيا:
ـ لابد من الذهاب غدا على وجه الخصوص، ولكن أريدك أن ترتدي أحلى ما عندك من ثياب وتضع عطرا تحبه سلوى، وعلى الله التوفيق. ولكن قبل أن نقوم ألا تريد أن تقول لي شيئا؟
فاستغرب عاصم وقال مفكرا:
ـ مثل ماذا؟
فقال أدهم ضاحكا:
ـ ألا تريد أن تقول لي أنني رجل عظيم؟

(١٥)

في تمام الثالثة من عصر اليوم التالي كان أدهم وعاصم يجلسان في مطعم «تريانون» بمحطة الرمل في انتظار المعلم حميدة أبو الريش، صاحب سلسلة مطاعم الدجاج الشهيرة ، والذي كان نائبا في مجلس الشعب عن الحزب الوطني الديمقراطى ، حسب الميعاد الذي أبلغه به عاصم بعد أن استأذن أدهم من يوسف بك في السماح له بقضاء مشوار هام لا يحتمل التأخير.
كان القلق والاضطراب واضحين على وجه عاصم الذي لم تهدأ أعصابه لحظة، بينما على العكس منه تماما بدا أدهم هاديء الأعصاب، مستقر التفكير، وكأنه جاء ليقابل أحد أصدقائه وليس زعيم عصابة.
وبعد الثالثة بعشر دقائق دخل من باب المطعم رجل له مهابة مصطنعة ـ حسب

ما رأى أدهم ـ يرتدي بذلة وتغطيها عباءة بيضاء وحوله رجلان تبين بعد ذلك أنهما حراسه.
جال المعلم حميدة ببصره في المكان حتى استقرت عيناه على عاصم؛ فتوجه ناحيته وهو يتطلع بخبث ودهاء إلى أدهم الذي قام واستقبله مرحبا به وحاول أن يبدو مضطربا أمامه ـ على عكس ما كان عليه قبل أن يأتي ـ فأخذ ينظر حوله متلفتا وقلقا حتى وصل إحساسه هذا إلى المعلم حميدة الذي جلس وقال:
ـ مالك يا أستاذ .. مش على بعضك ليه؟
فقال أدهم مضطربا:
ـ أبدا يا معلم .. زيادة اطمئنان ليس أكثر.
فابتسم المعلم حميدة ابتسامة أظهرت أسنانه السوداء من أثر التدخين، وقال:
ـ واضح أنك حديث عهد بهذه اللقاءات، على العموم اطمئن.. العمل معي شيء مختلف، لكن وبلا مؤاخذة نحن لم نتعرف.
حاول عاصم أن يفك لجام لسانه فازدرد ريقه، وقال:
ـ الأستاذ أدهم من أكبر المفتشين عندنا بالميناء.
هز المعلم حميدة رأسه بإعجاب لهذا الصيد الثمين الذي بالتأكيد سيسهل عليه مهمته، وقال:
ـ تشرفنا يا سي الأستاذ أدهم. محسوبك أصله ابن سوق و(عِترة) وله نظرة في الرجل الذي أمامه، وأنا منذ رأيتك عرفت أنك فرز أصلي من الرجال ومن النوع الذي لا يحب اللف ولا الدوران مثلي تماما.. بالتأكيد الأستاذ عاصم حكى لك عن الموضوع.
فابتسم أدهم ابتسامة ماكرة، وقال:
ـ نعم يا معلم، ولكن ليس بالتفصيل؛ لذلك أرجو أن تفهمني ما تريده بالضبط وبالتفصيل.
اعتدل المعلم حميدة في جلسته ونظر حوله، ثم اقترب منه، وقال هامسا:
ـ هناك شحنة دجاج قادمة من دولة إفريقية، وستصل بعد أيام قليلة، ونريد همتك معنا حتى تمر بسلام.
فقال أدهم بلهجة أظهرت غباءه المصطنع:
ـ وما الذي يمنعها من المرور بسلام يا معلم .. كفى الله الشر؟
قال المعلم حميدة في شبه ضجر:
ـ جرى إيه يا سي الأستاذ، أنا نظرتي لك تقول إنك تفهمها وهي طائرة.
ثم مال عليه مرة أخرى، وقال:
ـ هذا الدجاج ليس سليما مائة بالمائة، ومن المحتمل ألا يوافقوا عليه، وهذا فيه خراب لبيتي وبيت من فوقي، وهم أناس لهم حصانات وسلطات ولا يتفاهمون

إلا بلغة السلاح.
أبدى أدهم تخوفه وجزعه، قبل أن يقول:
- يا ساتر يا رب.. لا يا معلم.. بمشيئة الله سيمر كل شيء بسلام، ولكن أنت تعلم حجم هذه المسئولية وأنها إذا كُشفت لا قدر الله فيها حبس.
ارتسمت السكينة على ملامح المعلم حميدة، وقال مؤكدا:
- كل طلباتك أوامر.
- أريد نفس المبلغ الذي عرضته على الأستاذ عاصم.
تهلل وجه المعلم بالبشر، وأشار إلى أحد رجاله فناوله حقيبة سوداء ووضعها المعلم على المنضدة، وقال:
- وأنا جاهز في الحال. هذه الحقيبة بها مائة ألف جنيها بالتمام والكمال.
فابتسم أدهم ابتسامة هادئة، بينما عاصم لا زال القلق متحكما فيه فقال:
- تعرف يا معلم أنا سعيد جدا بأنني تعرفت عليك، فلقد كنت متعاونا معنا وسهلت علينا مهمتنا بشكل كبير، ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالا هاما.
ابتسم المعلم بزهو، وقال ضاحكا:
- يا سلام.. مائة ألف سؤال لو تحب.
وفجأة كست الجدية ملامح أدهم ، وقال بلهجة لم تخلُ من قسوة:
- ما ذنب الناس الأبرياء الذين سيأكلون هذا الدجاج الفاسد.. أليس من الممكن أن يموت الآلاف منهم بالتسمم؟
اضطرب المعلم حميدة وشعر فجأة بتلعثم لسانه، وأخذ يبحث عن إجابة يرد بها، ولكن أدهم لحقه وقال:
- على العموم.. لا أريدك أن تجيبني أنا على هذا السؤال.
فازدرد المعلم حميدة ريقه بصعوبة، ولم يستطع أن يرد للمرة الثانية؛ فأردف أدهم قائلا، وهو يشير بإصبعه إلى أعلى:
- اعذرني يا معلم، لقد كانت نظرتك للرجال في غير محلها هذه المرة، هذه الكاميرا التي تعلونا نقلت لقاءنا بالصوت والصورة إلى عربة الشرطة الواقفة بجوار المطعم، كما أن أسفل هذه المنضدة يستقر مسجل للصوت سجل كل همساتك لنا.
أحس المعلم حميدة ببراكين من الدماء تنفجر في رأسه؛ فأصابه الهلع، وقبل أن يتحرك كان رجال الشرطة يحوطونه من كل مكان ويتقدمهم قائدهم ومعه اللواء المتقاعد سالم مذكور صديق أدهم والذي لجأ إليه ليساعده، فقام بإبلاغ زملائه وتلاميذه بمديرية أمن الإسكندرية فاختاروا هذا المطعم للقاء، وتم التعاون بينهم وبين إدارة المطعم والعاملين به لوضع الكاميرا والمسجل والاتفاق مع بعض الكومبارس لملأ المكان حتى يبدو مطمئنا وعاديا في نظر المعلم.

وُضعتْ الكلابشات في يديه وأيدي رجاله، وابتسم المقدم عادل بطرس وقال:
ـ أخيرا وقعت يا معلم حميدة، الفضل للرب ثم للأستاذ أدهم، وعلى فكرة هو لا يعمل بالميناء، هو كاتب، ولكنه استطاع أن ينسج خيوط هذه الحدوتة حتى ينقذ آلاف الأبرياء الذين كانوا سيموتون بسبب جشعك وطمعك وضميرك الميت، وأنت ومن فوقك والذين سيقعون في أيدينا الواحد تلو الآخر بعد أن تعرفنا عليهم.
كان الذهول والدهشة يملآن وجه المعلم حميدة الذي قال:
ـ أيووه يا جدعان، لقد اكتشفت أنني مغفل كبير، لكن لا يقع إلا الشاطر.
فدفعه المقدم أمامه قائلا:
ـ أمامي يا شاطر.
وقام الجنود بسحبه إلى الخارج ووقف أدهم محييا المقدم ، وقال:
ـ نشكرك يا سيادة المقدم على أدائك الرائع أنت ورجالك.
فحياه المقدم عادل وقال:
ـ بل نحن الذين نشكر فيك ضمير المواطن الراعي والصالح والمحب أيضا لوطنه، وأشكر أستاذي اللواء سالم مدكور على ترشيحه لي لهذه المهمة أمام رؤسائي بالمديرية.
هنا ضحك سالم مدكور، واهتز كرشه الشهير، وقال بسخريته المعهودة:
ـ لقد بذلنا اليوم مجهودا شاقا جعلني أتذكر شبابى الماضى ومهماتى المشابهة ولكنه أيضا جعلنى أتضور جوعا.. ألا تلاحظوا أننا واقفون في مطعم.
فانفجر الجميع في الضحك حتى عاصم الذي أخذ يضحك ضحكا عاليا محاولا السيطرة على ركبتيه اللتين لا تزالان تخبطان في بعضهما.

(١٦)

بعد أن تناول أدهم معهم الغداء بالمطعم، عاد مسرعا إلى الأنفوشي حيث تأخر على يوسف بك، بعد أن وعده عاصم بأنه سيأتي إليه في الثامنة مساءً.
فتحت سلوى الباب وأدخلته وسألها عن أبيها؛ فأبلغته بأنه ينتظره بالداخل فطلب منها أن تنفذ ما طلبه منها قبل ذلك فأبدت تكاسلها، فحثها أدهم علي تنفيذه إن كان له خاطر عندها، فأومأت برأسها وانصرفت.
ذهب أدهم إلى غرفة نهى فوجدها مجتمعة هي وحمادة ينفذان ما أمرهما به قبل ذلك؛ فشجعهما على أن ينتهيا مبكرا فأخذا يعملان بهمة ونشاط والسعادة تتراقص أمام أعينهما.

ودخل أدهم ليطمئن على يوسف بك، وقصّ عليه كل ما حدث وأبلغه بمقدم عاصم الليلة، وطلب منه أن يحسن استقباله.
وعندما دقت الساعة الثامنة مساءً كان عاصم يدخل من بوابة الفيلا المتهالكة ويسير بالحديقة متأملا الفيلا والليل ينتشر حولها ويهيج كل الذكريات القديمة فى عقله وقلبه، وأخذ يصعد سلم الفيلا الخارجى والذى يربط كل الأدوار ببعضها مقدما رجلا ومؤخرا الأخرى، وتختلط في نفسه أحاسيس ومشاعر شتى وفي عقله صور وذكريات منها المبهج وأكثرها المؤلم. ووقف أمام باب الشقة مترددا هل يرن الجرس أم يعود من حيث أتى، ولكن قطعت أفكاره عندما فتح الباب فجأة فاصطدم وجهه بأدهم الذي ابتسم وقال:
ـ لقد كنت متوقعا أن أجدك مترددا أمام باب الشقة، ولهذا جئت لأوفر عليك قلقك هذا.
فابتسم عاصم، وقال:
ـ أنت رجل عظيم يا أدهم..
فضحك أدهم وقال ساخرا:
ـ أخيرا نطقتها.
دخل عاصم إلى الشقة يرتدى بذلة جديدة، كما طلب منه أدهم، ويضع عطرا جميلا ويحمل في يده شنطة ورقية بها هدية وبوكيه ورد.
كان منظر الشقة من الداخل يشعل في نفسه كل الذكريات الجميلة التي عاشها مع سلوى ـ على قلتها ـ خصوصا أنه بُهر بالزينة التي تملأ الحوائط والسقف واللافتات المعلقة في كل مكان والتي كتب عليها أبناؤه جملا مثل: «نحبك يا أبي»، «وحشتنا يا أعز أب»، «لا تفارقنا يا أغلي الحبايب».
قفزت دمعة من عيني عاصم رغما عنه بعد قراءة هذه اللافتات، ثم خرج له حمادة على كرسيه المتحرك؛ فهرع إليه أبوه وحمله بين أحضانه وأخذ يدور به حيث أنه لم يره منذ زمن بعيد، لأنه كان يرفض لقاء أبيه عندما يأتي ليعطيهم المصروف.
وبعد قليل سمعوا جميعا باب الشقة يُفتح؛ فسألهم عاصم:
ـ هل تنتظرون أحدا؟
فابتسم أدهم، وقال:
ـ إظهر وبان عليك الأمان.
فدخلت سلوى، وكانت المفاجأة أنها ليست سلوى التي كان يعرفها عاصم ولا حتى أدهم.
إنها سلوى جديدة لا تقل جمالا ولا إبهارا عن نجمات السينما حيث الفستان الأسود المبهر، والشعر المصفف عند الكوافير، والوهج الذي يُشع منها،

وبجوارها وقفت ابنتها نهى لا تقل وهجا عنها، فقام عاصم متباطئا ومشدوها مما يراه؛ فلقد كانت هذه أول مرة يراها فيها بهذا التألق والجمال، فاقترب منها وطبع قبلة على جبينها، وقدم لها بوكيه الورد؛ فنظر حمادة إلى أدهم وغمز له بعينه وابتسما، فقال أدهم:

ـ لقد جاء عاصم اليوم للاحتفال معكم بمناسبتين هامتين له ولكم، وهما عيد ميلاده وعيد زواجه أيضا.

شعر عاصم بلسعة كهربية في جسده، حيث كانت الهموم والمشكلات قد أنسته هاتين المناسبتين، ولكنه حاول التحكم في أعصابه وتظاهر بالتذكر، وقال:

ـ بالفعل لقد جئت إليكم للاحتفال بها معكم، وهذه هدية سلوى.

وأخرج سلسلة ذهبية وعلقها برقبتها، ولكنه فوجيء بأنه لم يقدم هدايا لأبنائه، فصمت قليلا ثم قال:

ـ أما أنتما يا أحبابي فقد جئت إليكما بهدية أجمل.

فتطلعا إليه منتظرين هديته؛ فقال:

ـ لقد طلقت اليوم زوجتي الثانية، ولن أترككما مرة أخرى.

فصفق الأبناء، وصاحا فرحين، وارتسمت البسمة على شفتي أدهم الذي نظر إلى سلوى فشعر أن الفرحة دبت في قلبها وأعادتها سنوات إلى الخلف، وأن شعورا بالانتصار يتملكها الآن، فها هو زوجها يفضلها هي ويختارها ويعود إليها مرة أخرى، فقال أدهم:

ـ أليس من الواجب أن نشرك جدكما في هذا الحفل السعيد؟

واستأذنهم ودخل إلى غرفة يوسف بك، فوجده يضحك ملء فمه ويقول:

ـ لقد فعلتها يا نمس.

فابتسم أدهم، وقال:

ـ ألا تريد أن تقطع معهم التورتة؟

وبعد لحظات كان الجميع يقفون أمام منضدة متحركة في الصالة وضعت عليها تورتة كبيرة تتوسطها صورة زفاف عاصم وسلوى وتحتها إمضاء من الأبناء يقول: (نحتاج إليكما)..

ومدّ الجميع أيديهم فوق يد يوسف بك الذي ضم عاصم بين ذراعيه، واعتذر له عما وجهه إليه من إساءة، وقطعوا التورتة.

وأخذ الكل يأكل ويفرح ثم أمسكوا بالأطباق والشوك وأخذوا يدقون عليها ويطبِّلون ويغنون. وانتشر جو من الفرح في جميع أركان الفيلا الذي سكن الحزن أركانها وعشش فيها؛ فربَّت يوسف بك على ظهر أدهم ودعا له بالصحة وطول العمر، ونظر أدهم إلى نهى وحمادة مبتسما لهما وفرحا بأنهما نفذا ما طلبه منهما من طلبات وكانت هذه الطلبات أن يزينا البيت كله بهذه الزينة، ويكتبا هذه

اللافتات، ويشتريا هذه التورتة ويضعا عليها صورة زفاف أبويهما. أما الطلب الذي طلبه من سلوى هو أن تشتري هذا الفستان الفاتن وأن تذهب إلى الكوافير لتصفيف شعرها بهذا الشكل.

كان أدهم يرقب سلوى وهي سعيدة ومسرورة، ويقول في نفسه:

«كل ما كانت تحتاج إليه سلوى، هو السلوى والفضفضة.. أن تجد أحدا تحكي له ويسمعها ويؤنسها في وحدتها غير تلك الجدران المشروخة والتي نقلت إليها إحساسا بأنها مشروخة من الداخل مثلها»

انسحب أدهم من الحفل السعيد وصخبه، وخرج إلى الشرفة ونظر إلى الليل الذي يفرش ظلامه الساحر على البحر وأخذ يملأ صدره من هوائه، فتبعته سلوى ووقفت بجواره ناظرة إلى البحر، وقالت بنبرة لم تخل من تأثر:

ـ كل ليلة كنت أنظر إلى البحر في مثل هذا الوقت وأشعر أن حياتي شبيهة به..

الظلام الذي ليس له نهاية،

والعمق الذي ليس له قرار..

لكن الليلة أشعر أنني أراه بشكل مختلف، أراه نهارا مشمسا، حتى عمقه لم أعد أخافه حيث أشعر أن معي طوق نجاة سيحميني دوما من الغرق.

ثم التفتت إليه ووضعت يدها فوق يده وقالت:

ـ أنت يا أدهم طوق النجاة الذي انتشلني من أعماق البحر المظلم إلى شاطئه المشمس الجميل.

ابتسم أدهم ابتسامة هادئة متأملة، ثم قال:

ـ الآن أستطيع أن أطمئن عليك. لقد استعدتِ نفسك وزوجك وأبناءك، واكتسبتِ أخا لك.

ثم مداعبا:

ـ هل تعلمين أن أمي لم تنجب لي أختا.

فابتسمت قائلة:

ـ هنيئا لي بك أخا يا أدهم..

ثم حاولت الخروج من تلك اللحظة المؤثرة فاستأذنته، وانسحبت إلى الداخل حيث الحفل الصاخب والبهجة التي تملأ الأجواء.

وأعقبها أدهم الذي تسلل إلى الباب ليخرج دون أن يشعروا به نظرا لتأخر الوقت، وعند الباب ألقى عليهم جميعا نظرة والفرحة تغمرهم، فابتسم في نفسه وتنهد بارتياح وانصرف إلى بيته ونام ليلة من أسعد ليالي حياته.

(١٧)

ـ إلى أين تأخذني؟

قالها حمادة، وهو يجلس بجوار أدهم في سيارته، منطلقين على كورنيش الإسكندرية في اتجاه المندرة * ، فأجابه أدهم قائلا:

ـ إلى العيادة التي ستُعالج فيها.

تهلل وجه حمادة بالفرح وتزاحمت في عقله أسئلة كثيرة، ولكن أدهم حثه على الصبر والسكوت لحين وصولهما إلى هناك، وبعد قليل فوجيء حمادة بأنهما يعبران من بوابة حدائق المنتزه؛ فاستغرب وهمَّ أن يسأل أدهم عن سر ذلك، ولكنه آثر السكوت والصبر كما أمره أدهم منذ قليل. وبأحد الجراجات ركن أدهم سيارته ونزل وساعد حمادة في الجلوس على كرسيه ودفعه أمامه وانطلقا مارين بقصر (السلاملك) * ، ثم بكوبري شاطيء فينيسيا * حتى استقرا عند الفنار الصغير القديم * ، وقال:

ـ حمدا لله على السلامة يا بطل. هنا ستبدأ رحلة علاجك.

كسا الاستغراب ملامح الصبي، وقال:

ـ ألم تخبرني في السيارة أننا ذاهبان إلى عيادة.

فابتسم أدهم قائلا:

ـ وهل هناك في الدنيا عيادة طبيعية أجمل من المنتزه. إن حدائق المنتزه والتي كان أول ظهور لها على يد كليوباترا في نهاية عام ٣٢ ق.م، والتي تبلغ مساحتها ٣٥٠ فدانا كنز لا يقدره كثير من المصريين، بما فيهم (الإسكندرانية) أنفسهم. لقد اشتهر عنها أنها ملتقى العشاق وممارسي الجنس غير المكتمل، ولكن قيمتها في قلبي أكبر وأعمق بكثير، إنني أراها عيادة نفسية غاية في الروعة والتأثير؛ ففيها الخضرة والزهور والورد والتنفس السليم والصحي وزرقة البحر وروعته وقصر المنتزه الذي بناه الخديوي عباس حلمي الثاني، والتاريخ العريق، إنها مدينة رائعة داخل مدينتنا الأروع.

فنظر حمادة حوله، وقال:

ـ بالفعل إنها جنة. لقد سمعت عنها كثيرا ولكني أول مرة أزورها.

ـ وهنا ستبدأ المرحلة الثانية من العلاج بعد نجاح الأولى.

فنظر حمادة له نظرة استفهام؛ فقال أدهم:

ـ المرحلة الأولى في خطة علاجك كانت عودة أبيك إليك للمساعدة في استقرارك النفسي حتى تكون مهيئاً ومستعدا للمرحلة الثانية التي نحن بصددها الآن.

ـ وما هي؟

وقف أدهم أمامه ناظرا للبحر، وقال:

ـ شوف يا سيدي، لو فرضنا جدلا أنك كنت في رحلة داخل هذا البحر بقارب أو لانش صغير، وفجأة قامت رياح عاصفة بقلب هذا الذي تركبه وإغراقه وأصبحت أنت في قلب المياه بلا عوامة أو منقذ وهناك مسافة بينك وبين الشاطيء ليست ببعيدة ولكنك تراها على مرمى بصرك، فماذا أنت بفاعل؟
فكر حمادة قليلا ثم أجاب:
ـ سأحاول السباحة حتى أصل إلى الشاطيء.
ـ عظيم جدا. تأمل معي جملتك مرة أخرى ولكن بتدقيق أكثر.. أنت قلت أنك (ستحاول)، وهذه أول خطوة وهي المحاولة.. (حتى تصل إلى الشاطيء) وهذه ثاني خطوة وهي تحديد الهدف، فأنت لكي تقف على رجليك مرة أخرى تحتاج إلى المحاولة المستمرة وتحديد الهدف وهو أن تشفى لتكون لاعب كرة كبيرا.
هنا وضع حمادة وجهه في الأرض، وقال بخيبة أمل:
ـ ولكن هذا صعب للغاية.
فقال أدهم مصدقا على كلامه:
ـ أعلم أنه صعب ولكنه ليس مستحيلا، وتأتي صعوبته من أهميته فأنت تحاول أن تعود إلى الحياة من جديد وتحتاج في ذلك إلى تقوية إرادتك وهذا أصبح أسهل كثيرا بعد إصلاح نفسيتك، والآن هيا بنا نبدأ المحاولة.
وساعده أدهم في الوقوف على رجليه، ودفع الكرسي بعيدا عنه؛ فوقف حمادة نصف وقفة، أي كانت رجلاه مقوستين، واستند على أدهم الذي قال له:
ـ هيَّا.. حاول أن ترفع قدمك وتحركها للأمام.
حاول حمادة ذلك ولكنه لم يستطع؛ فحثه أدهم على تكرار المحاولة؛ فحاول مرة أخرى باستماتة وإصرار هذه المرة، فحركها خطوة بطيئة آلمته ولكنها شجعته، وجاء ليرفع قدمه الثانية فتركه أدهم دون مساندة فاختل توازنه وسقط على الأرض.
فزع أدهم وحاول أن يرفعه من على الأرض فوجده غارقا في البكاء، ثم دفع أدهم وقال:
ـ اتركني.. لا فائدة من ذلك.. لن أستطيع أن أقف مرة أخرى.
فقال أدهم صائحا:
ـ طالما أنت مقتنع أنه لا فائدة؛ فبالفعل ستكون لا فائدة، لابد وأن تغيِّر معتقدك هذا وتغيِّر صورتك الذهنية عن نفسك وتقتنع بأنك قادر على تجاوز هذه المحنة والتغلب عليها حتى يصل هذا الأمر إلى عقلك فيعتقده ويصدره إلى أطرافك على هيئة أوامر، وحتى تتشجع أكثر سأريك مفاجأة كنت قد أحضرتها لك.
وأخرج من جيبه ورقة كبيرة، وقال وهو يعطيها له:
ـ أنظر إلى هذه الورقة جيدا، إنها استمارة لطلب تقديمك إلى النادي الأوليمبي

في فريق الناشئين. حصلت لك عليها حتى تملأ بياناتها بنفسك فور شفائك، وبعد اجتيازك لاختبارات التقديم تنضم إلى الفريق وتبدأ رحلتك في الملاعب.
شعر حمادة بأنهار من الأمل والحيوية والطاقة تدب في عروقه وأوصاله، واتكأ على أدهم وضغط على نفسه وحاول أن يحرك قدمه اليمني بصعوبة بالغة.
وكان أدهم لا يكف عن أن يرسم في خيال الصبي صورته وهو يلعب في النادي والجماهير تصفق له وتنادى باسمه حتى خيِّل إلى حمادة أن حدائق المنتزه مكتظة بالجماهير وتلتف حوله من كل جانب وتشجعه وتهتف باسمه حتى يحرك قدميه. وبالفعل استطاع أن يحركهما شيئا فشيئا ورغم عدم استطاعته أن يحركهما حركة كاملة إلا أن أدهم فرح بهذا التقدم حتى وإن كان بطيئا..
وتكررت زياراتهما للمنتزه، وتكررت المحاولات وأخذ ينجح مرة ويسقط مرات حتى تحسَّن تحسُّنا ملحوظا لدرجة أنه رفض الجلوس على الكرسي مرة أخرى، وأصبح بعد ذلك يستطيع أن يمشى على قدميه بل ويجري أيضا بحرية مطلقة.
وأثناء عودتهما بالسيارة طلب حمادة من أدهم ألا يخبر أهله بهذا الخبر إلا بعد نجاحه في اختبارات النادي الأوليمبي والالتحاق به ووافقه أدهم.
وكان حمادة يمثل عليهم في البيت أنه لا يزال عاجزا ويجلس على الكرسي حتى اجتياز الاختبارات، ونجح وقبل بالنادي وانبهر المدرب بمستواه في اللعب، وبعد أن استلم العقد ذهب إلى الفيلا بصحبة أدهم ورن الجرس، فاختبأ أدهم، وفتحت نهى الباب ففوجئت بأخيها واقفا أمامها على رجليه ـ هكذا فجأة وبدون أية مقدمات ـ فصُدمت ولم تتكلم، وجاءت سلوى لترى ما الذي جعلها صامتة هكذا فهلعت عندما رأت ما رأته نهى ووقفت بجوارها دون أن تنطق بحرف هي الأخرى؛ فاستغرب عاصم من أمرهن ودفعه القلق إلى الذهاب لرؤية من الذي بالباب فلم يستطع النطق عندما رأى ابنه قد حقق حلم حياته ووقف مرة أخرى على رجليه.
أما حمادة فأخذ يضحك من منظرهم الصامت في بلاهة، وقال:
ـ لا يوجد حتى حمدا لله على السلامة؟
فقالت سلوى بدهشة:
ـ متى؟.. وأين؟.. وكيف؟
فقال حمادة وهو ما زال واقفا أمام الباب:
ـ متى (منذ فترة).. أين (في المنتزه).. أما كيف فهذه يرد عليها أدهم.
وفجأة ظهر أدهم من جوار الباب شاهرا عقد حمادة مع النادي الأوليمبي، وقائلا:
ـ لقد مضى ابنكما مع النادي الأوليمبي، وعما قريب من الممكن أن يمضى مع النادي الأهلي شخصيا.

هنا خرج عاصم من صمته وبلاهته محتجا، وقال:
- و لماذا لا يمضى مع الزمالك؟
خبط أدهم ببطن كفه الأيمن على جبينه وقال:
- أخ.. لقد فاتتني.. هل أنت زملكاوي؟
- صميم.. وعلى جثتي أن يصبح لي ابنا أهلاويا.
فتدخلت نهى بقول راجح، قائلة:
- ليس مهما أهلي أم زمالك الآن، المهم أن حمادة وقف على رجليه مرة أخرى.
وقال أدهم:
- هل سنظل هكذا واقفين أمام الباب.
فقال عاصم بلهجة اختلط بها المزاح بالجد:
- قبل أن يدخل يجب أن يخبرني أولا هل سيلعب للأهلي أم للزمالك؟
و للمرة الثانية تدخلت نهى بقول راجح قائلة:
- يا سيدي لا هذا ولا ذاك، سيلعب للمنتخب.. أظن هذا حل يرضى الجميع.
ضجوا جميعا بالضحك، ودخلوا إلى الشقة وأخذ الأب والأم يعتصران ابنهما بالأحضان والقبل. ولم يصدق يوسف بك عينيه عندما رأى حفيده يقف أمامه وهو بكامل صحته ولياقته فقفزت دموعه واحتضنه بشدة.
ثم أخذ الصبي كرته ومسح عنها التراب، وانطلق إلى أصدقائه الجدد على شاطىء البحر المقابل.
وبعد الشكر الجزيل الذي لاقاه أدهم من عاصم وسلوى، جلس إلى جوار يوسف بك معتذرا له عن غيابه عنه أوقاتا كثيرة في الأيام السابقة نظرا لاهتمامه بعلاج حمادة خصوصا بعدما علم أن شفاءه سهل وممكن؛ فنظر إليه الرجل نظرة كلها إجلال ومحبة وقال:
- لا أعلم كيف يمكننا أن نرد لك نصف ما فعلته معنا.. لقد غيّرت حياتنا جميعا إلى الأفضل.
فابتسم أدهم خجلا، وقال:
- يا أبى ما فعلت غير الواجب. وأعتقد أن الدور دورك الآن.
فسأله يوسف بك مستفهما:
- أي دور؟
- أن تبدأ أنت في الحركة حتى تسترد قوتك وعافيتك وتقف على رجليك بشكل أقوى.
فضحك الرجل وتنهد قائلا:
- لا.. أنا خلاص راحت عليَّ.. يكفيني أن أرى حفيدي وهو يجرى أمامي هذه عندي بالدنيا.

فقال أدهم بدهائه المعهود:
ـ وأليس عيبا أن يتغلب حمادة على مرضه ويهزمه.. وجده لا؟ اسمع كلامي وأنت تكسب.
فأومأ الرجل برأسه قائلا:
ـ طالما معك؛ فبالتأكيد سأكسب.

(١٨)

ـ الدور دورك يا جميلتي.
قالها أدهم، وهو يفتح باب سيارته لتركب نهى، ثم دار ليركب هو من الناحية الأخرى، وانطلق بالسيارة من أمام فيلا العائلة بالأنفوشي إلى نادي المهندسين * المطل على البحر بسابا باشا * ؛ ليقابلا المهندس طارق فريد ابن خال نهى، حسبما اتفقت معه بالتليفون.
دخل أدهم بسيارته من البوابة وركنها بالجراج ثم صعدا إلى سطح النادي المطل على البحر، وكانت الشمس تشيع دفئا في قلب نهى لوجود أدهم بجوارها، بينما البرودة هي المسيطرة على كامل جسد طارق الذي وجداه في انتظارهما على منضدة بجوار البحر. رحب بهما وجلسا وبعد لحظات مرت صامتة تولت نهى كسر جمود اللقاء بتقديم طارق إلى أدهم وعرَّفته على أنه ابن خالها وأنه خريج هندسة نووية، وله أحلام عريضة في هذا المجال، وأنه يحبها وتوج هذا الحب لها بالزواج.
شعر طارق بالحرج والضيق من مدى صراحة نهى مع هذا الرجل، فمهما كان هو يعمل عندهم وما ينبغي أن تطلعه على أسرار خطيرة في حياته كهذا السر.
فابتسم أدهم ابتسامته الهادئة:
ـ أعلم يا صديقي طارق أنك تقول في نفسك الآن ما الذي يدفع نهى أن تقص عليّ أسرار حياتها الخاصة، وأنا لا أمثل لها سوى رجل يعمل عندهم .. أليس كذلك؟
تسمَّرت قدما طارق في الأرض، وشعر بتصلب الدم في عروقه من وقع المفاجأة؛ فلم يكن يتوقع أن يترجم الرجل أفكاره وملامح وجهه بهذه السرعة واليسر.
فابتسم أدهم ثانية وقال:
ـ ولكن تأكد يا بني أن الرابطة التي تجمعني ونهى، رابطة أب بابنته.
فقالت نهى مؤكدة على كلامه:

ـ بالفعل أنا أحبه وأشعر معه بالدفء والطمأنينة التي أشعر بها مع أبي.
ارتبك طارق، وحاول أن يخرج من تلك الورطة بتغيير الموضوع بعيداً عن هذا الرجل الداهية؛ فسأل نهى قائلا:
ـ لقد وصلتني أخبارٌ سعيدة عنكم.. هل بالفعل عادت المياه إلى مجاريها بين والديك؟
فضحكت نهى واحتضنت ذراع أدهم، وقالت:
ـ نعم.. والفضل لله، ثم لهذا الرجل.
وجد طارق الحديث يعود به إلى الرجل مرة أخرى؛ فحاول تغيير الموضوع مرة أخرى قائلا:
ـ وحمادة، لقد فرحنا كثيرا عندما علمنا بنبأ شفائه.
زادت ضحكة نهى علواً، وقالت:
ـ أيضاً الفضل لله، ثم لهذا الرجل.
هنا لم يجد طارق بداً من الدخول مباشرة في الحديث مع هذا الرجل الذي شعر أنه يحاصره من كل مكان؛ فقال على استحياء:
ـ واضح إن حضرتك رجل مهم في حياتهم.
فقال أدهم بدهاء محاولاً التقرب أكثر إلى موضوع اللقاء:
ـ ولكنك أشطر مني لأنك استطعت النفاذ والوصول إلى قلب نهى من قبلي.
فابتسمت نهى ابتسامة قلقة سرعان ما انتقل إحساسها إلى نفس طارق؛ فقال:
ـ أستاذ أدهم. بالتأكيد نهى قصَّت عليك القصة كاملة، أنا بالفعل في حيرة من أمري؛ فأنا أحب نهى أكثر من أي شيء في حياتي بل أكثر من حياتي نفسها، ولكن في نفس الوقت الكل يعارضني ويقف أمامي، فماذا سأفعل أمامهم؟
ـ الحب ليس فيه كلمة لكن، فهي قاتلة للحب ، كما أنها أسلوب اليائسين والذين يريدون أن يبرروا لأنفسهم ضعف مواقفهم. أما إذا كنت تحبها فعلا، فلابد وأن تقف أمام الجميع مدافعاً عن حبك الذي هو كيانك ووجودك، خصوصا أن الأمر الآن لم يعد ترفا أو في طور التفكير. لقد تزوجتما وحدثت بينكما معاشرة ـ كانت تتم كما علمت في الفترات التي كانت تجلسها عندكم نهى بحجة مرافقة سالي أختك أثناء مرضها ـ ومن الممكن أن تسفر عن حمل، وهذا خطأ كبير ارتكبتماه، ولكنه ليس محل نقاش الآن فلابد لك أن تدافع عن حبك وعن زوجتك حتى إذا عارضك العالم أجمع.
أحست نهى بالطمأنينة والأمان يسريان في شرايينها، وأزادت من ضغطها على ذراع أدهم وكأنه طوق نجاتها؛ مما كان يلفت نظر طارق ويؤكد له مدى تأثير وأهمية هذا الرجل في حياتها وبالتالي في حياته هو؛ فقال:
ـ ولكن أمي هددتني بحرماني من أية حقوق لي؛ فكيف سأضمن لها حياة

كريمـة بعـد ذلـك.
ـ لا عليك مـن هـذا اعتبـر نفسـك لـم تولـد ابنـاً لأسـرة ثريـة، وابـدأ أنـت وهـي مـن الصفر؛ فأنـت مهنـدس، وهـي تريـد دخـول كليـة إعـلام فـي العـام القـادم، والمسـتقبل مفتـوح أمامكمـا.
سكت طارق قليلاً، ثم قال:
ـ لكن أنا ليس عندي شقة؛ فأين سنسكن؟
ـ هـذه أيضـا محلولـة، سـأزوجكما فـي فيـلا العائلـة فهـى كبيـرة وواسـعة وبهـا أكثـر مـن شـقة فارغـة مـن الممكـن اسـتغلالها.
شـعر طـارق أنـه كالفـأر الـذي وقـع فـي مصيـدة كلمـا جـاء ليخـرج مـن ناحيـة وجدهـا تغلـق دونـه، وهـذا ليـس هروبـاً منـه؛ فهـو بالفعـل يحـب نهـى كحياتـه وأكثـر، ولكنـه خائـف مـن المواجهـة ومـا سـيترتب عليهـا.
وبعد طول حيرة وتفكير، قال:
ـ وهـل سـيوافق جـدي علـى ذلـك، وأيضـا (أنـكل) عاصـم و(طنـط) سـلوى، هـل سـيوافقان علـى هـذا الأمـر؟
فقال أدهم ضاحكاً:
ـ لا تقلـق؛ فجميـع مـن ذكرتهـم بمـا فيهـم جـدك مـروا بنفـس تلـك الظـروف فـي السـابق، وجئتمـا اليـوم لتكـررا نفـس السـيناريو؛ فأكيـد بعـد مناقشـة هادئـة معهـم، سـأقنعهم بمـا تريـدون.
شـعر طـارق بـأن آفاقـاً جديـدة تنفتـح لـه بواسـطة أدهـم فـي موضـوع علاقتـه المعقـدة بابنـة عمتـه الـذي كان يؤرقـه ولا يسـتطيع التصـرف فيـه، وشـعر براحـة تسـكن أركانـه، وأخيـراً تشـجَّع قائـلا:
ـ وأنـا موافـق حتـى أثبـت لـك أننـي أحـب نهـى، وأننـي سـأحارب العالـم أجمـع مـن أجـل أن نظـل معـاً حتـى آخـر العمـر.
ابتسـمت نهـى وشـعرت بسـعادة غامـرة؛ فاحتضنـت ذراع أدهـم وأمسـكت بيـد طـارق وضغطـت عليهـا بقـوة، وتعاهـدا علـى ألا يفترقـا أبـداً، وطالـت نظراتهمـا المتبادلـة فـي حـب ورومانسـية؛ فقطـع أدهـم هـذا المـد الرومانسـي والفيـض العاطفـي قائـلاً:
ـ وبعدين أنتَ وهي.. احترما وجودي بينكما.
فابتسما وتراجعت أيديهما؛ فقال أدهم:
ـ المهـم الآن كيـف أسـتطيع أن أجـد حجـة لزيـارة أبويـك فـي بيتهمـا، فأنـا لا أحمـل هـم إقنـاع جبهـة نهـى. همـي كلـه فـي إقنـاع جبهتـك.
تبدلت ملامحهما وبدا عليهما التفكير العميق للحظات حتى صاح طارق قائلا:
ـ وجدتُّها.
فقال أدهم متشوقا:

ـ أفتنا يا عم نيوتن.

ـ إن أسرتي تستعد للذهاب إلى المصيف بعد حوالي أسبوع من اليوم. فما رأيك لو ذهبت إليهم طالبا أن يأخذوا (جدو) معنا ليغير جو، حتى يساعده هذا التغيير على التقدم في العلاج.

لمعت عينا أدهم بالدهشة من هذه الفكرة العبقرية، وأخذ يحيِّي عليها طارق، الذي انتشى وفرح بأنه أثبت كفاءة تفكيره أمام نهى وأمام هذا الرجل الذكي والمؤثر.

وأخذ أدهم يقلب الفكرة في رأسه حتى وجدها مدخلاً مناسباً تماماً للدخول إلى عالم تلك الأسرة التي تختلف تمام الاختلاف عن أسرة سلوى في طبقتها وطباعها وأسلوب حياتها فكم كان يبحث عن مدخل مناسب يدخل به لهذه الأسرة، وها هو جاء على يد أحد أفرادها ولكنه سيفكر في بعض التوابل اللازمة لإحداث التأثير المطلوب لزيارته ودخوله لعالم تلك الأسرة؛ فأخذ منه الكثير من المعلومات، واتفق معه على أن يأخذ ميعاد من أبيه للمقابلة.

سرت الفرحة في أوصال الحبيبين، وتشابكت أيديهما مرة أخرى؛ فابتسم أدهم في نفسه وقال:

ـ ليت الشباب يعود يوماً.

أســـرة فـــريد

(السعادة)

(١٩)

بقدر ما كان أدهم يريد التعرف والتغلغل داخل أعماق نازك، التي يشعل كبرياؤها وقوة شخصيتها الفضول في نفسه لاكتشافها، بقدر ما كانت هي الأخرى ـ وتلك مفاجأة ـ بداخلها نفس الرغبة في قراءة هذا الرجل الغريب ـ على حسب ما رأت ـ فهو في نظرها أكثر من مجرد جليس يعمل عند والد زوجها.

كانت نظرات أدهم تشعرها بشيء من القلق والاضطراب لا تعلم له سببا، تشعر وكأن نظراته تعريها وتكشفها وتتخللها وتنفذ بداخلها وتحرك ما بها من ركود وسكون، وقليل من الرجال بل نادر من نجح في محاولة اختراقها أو إشعارها بمثل هذا القلق والاضطراب على الرغم من سجل حياتها الحافل بالمعجبين والمريدين والهائمين عشقا لتلك المرأة الفاتنة المغرورة.

كانت السيارتان تشقان الهواء منطلقتين على الطريق ما بين الإسكندرية والساحل الشمالي. السيارة الأولى ـ الفارهة ـ يقودها فريد بك المصري، وبجواره تجلس نازك هانم كما ينبغي لملكة ولَّت عنها مملكتها، وكان الهواء يداعب شعرها الأسود الذي يحيط بوجهها الأبيض كظلام السماء في الليل عندما يلف القمر فيزيده سطوعاً وضياءً، وتغطى عينيها نظارة سوداء تضيف إليها جداً ووقاراً.

وفي المقعد الخلفي كانت تجلس أميرة صغيرة في حوالي التاسعة عشرة من عمرها، هي سالي فريد ـ الصورة المصغرة من أمها ـ وكانت مستسلمة لسرحانها مع الفضاء الذي يطالعها من نافذة السيارة، غارقة في تفكير عميق لا يتناسب وفتاة في مثل عمرها، وبجوارها أخوها طارق، والذي كان مستسلماً هو الآخر ولكن لنوم عميق أخذ يطيح برأسه يمنة ويسرة.

أما السيارة الثانية ـ المتواضعة ـ هي سيارة أدهم (الخنزيرة) الصفراء، والتي يسميها وفاء نظرا لوفائها له وتحملها إياه منذ أن وطأت قدماه أرض الإسكندرية، وبجواره كان يجلس يوسف بك الذي كانت الفرحة لا تسعه ليس فقط لعودته لمصيفه الذي قضى به أجمل سنوات عمره وهي آخر سنوات في عمر حبيبته وأم أولاده سلوى، ولكن أيضا لوجوده بجوار أدهم ذلك الصديق ـ هكذا يعتبره ـ الذي أعاد إليه الروح بعد موات طويل.

كانت كلما تحاذت السيارتان يختلس أدهم نظرة مسرعة من نازك، فيفاجأ بها هي الأخرى تختلس النظر إليه، ولكن عندما تلتقي العيون تهرب هي بعينيها بعيداً حتى لا توهمه بأنها تعيره أي اهتمام؛ فيبتسم في نفسه مستمتعا بمضيه معها في طريق واحد يجمعهما.. سيصلان في نهايته لمكان ستتكشف فيه حقيقة كل طرف منهما للآخر.

تذكَّر أدهم أول لقاء جمعه بهذه الأسرة قبل أسبوع عندما ذهب لزيارتهم بلوران

حسب الاتفاق الذي أبرمه مع طارق أثناء لقائه هو ونهى بنادي المهندسين، والذي ظل أياما وليالي يرتب له ويخطط لكل كلمة وجملة سينطق بها فيه، وأخذ يبحث عن المدخل المناسب لموضوع زيارته وهو اصطحابهم ليوسف بك معهم إلى المصيف، ثم مدخل لكل شخصية منهما، وخصوصا نازك التي أرهقه كثيرا التفكير في شخصيتها وكيفية التعامل معها وكسب معركته معها؛ فمن عادة أدهم أنه كان يعتبر أول لقاء بينه وبين أي شخصية جديدة في حياته يريد التعرف عليها هو الذي يحدد نسبة نجاحه في كسب هذه الشخصية والآثار التي يخلفها في نفسها هي التي تترتب عليها معاملاتها معه في الفترات التي تلي اللقاء الأول؛ لذلك كان يفكر ليل نهار في لقائه الأول الذي سيجمعه بالأسرة ككل وبنازك خاصة وبعد طول عناء وتعب، وجد أخيراً المدخل المناسب لها حيث لمعت في عقله فكرة سرعان ما ابتسم على أثرها وعقد العزم على تنفيذها.
والفكرة كانت عبارة عن هديتين قام بإهدائهما لها أثناء زيارته، ولأنه علم بعضاً من تاريخها من سلوى؛ لذلك كان يعلم أنهما سيحدثان فيها أثراً بالغاً، ولأنها تحب التحف كانت الهدية الأولي عبارة عن ساعة مستديرة بـ (كتينة) معلقة في سلسلة ترجع إلى العصر الملكي في مصر ولأحد الباشاوات، تذكِّرها بأيام مجد جدها في زمن الإقطاع، كان قد اشتراها من مزاد علني أثناء فترة وجوده بلبنان. وأما الهدية الثانية فكانت جرامافونه الصغير، وبعض الأسطوانات القديمة والنادرة لفريد الأطرش وأسمهان ليذكروها بأمها السورية - كما علم من ابنها طارق.
كانت هاتان الهديتان جديرتين بوصول أدهم وبعمق لإرضاء غرور هذه المرأة وجذب انتباهها إليه على الرغم من حزنه الشديد لخسارته تلك الأشياء، ألا أنه كان يضحى بهما في سبيل المضي بنجاح في مهمته الإنسانية - هكذا كان يراها - التي أخذها على عاتقه وهي إعادة لم شمل تلك العائلة حول أبيهم وعودتهم لبيتهم مرة أخرى.
وتم اللقاء الذي انتظره طويلا ونجح في اختبار مدخله لتلك المرأة وجذب انتباهها، كما نجح أيضاً في الحصول على موافقتهم باصطحاب يوسف بك معهم للمصيف، وبالتالي هو، على الرغم من تأفف نازك الذي لم تنجح في إخفائه.
كان كلما وقع نظر أدهم على فريد بك وهو يقود السيارة سارحاً في ملكوت خاص به مثله مثل باقي أفراد أسرته بجسمه الممتلىء على غير سمنة، ووجهه المستدير كالبدر، ووسامته التي لم تستطع السنين النيل منها.. كان يراه طفلاً كبيراً وديعاً رغم طوله وعرضه، صافى صفاء العذارى، وبريء براءة الأطفال، ولا تتناسب شخصيته مع شخصية زوجته في شيء؛ فهو التواضع،

وهـي الكبريـاء الـذي يصـل لحـد الغـرور.. هـو البسـاطة، وهـي العظمـة.. هـو الوداعـة، وهـي القـوة والسيطرة. كان يشـعر نحـوه بتعاطـف شـديد ويتمنـى لـو يقـف علـى أسـراره هـو الآخـر، ويكشـفها كـي يعـرف كيـف اسـتطاع أن يعيـش معهـا كل هـذه السـنوات، ووجـد فـي نفسـه الرغبـة فـي سـؤال يوسـف بـك عنـه؛ فقـال:

ـ واضح أن فريد بك طيب كأبيه.

فابتسم الرجل شاكرا وقال:

ـ فريد ابني قائدا في البحر، ومركوب في البيت.

سـعد أدهـم بتجـاوب الرجـل معـه، فقـد لخَّـص حيـاة ابنـه فـي جملـة واحـدة أكـدت لـه إحساسـه ونظرتـه لـه، وأحـب أن يكمـل حديثـه مـع أبيـه علـه يصـل إلـى نتائـج أخـرى؛ فقـال:

ـ أليس له نشاطات أخرى يمارسها بجانب عمله.

قال يوسف بك، وعيناه سارحتان في الطريق أمامهما:

ـ كان مغرماً منذ صغره بالسياسة والمظاهرات، ولكنها استطاعت أن تبعده عنها.

تعجَّـب أدهـم أشـد العجـب مـن هـذا الـكلام، وحـاول أن يقـارن بيـن صـورة فريـد الوديعـة وملامحـه الهادئـة، وبيـن صورتـه وهـو ثائـر ومشـترك فـي مظاهـرات، ولكنـه وقـف عنـد أخـر الجملـة التـي قالهـا لـه الرجـل، وكأنـه قـد تذكرهـا فجـأة؛ فسـأله:

ـ قلت أنها استطاعت أن تبعده عنها، تقصد من؟

فابتسم يوسف بك قائلاً:

ـ التي نجحت في أن تبعده عن كل شيء في الحياة حتى عن أبيه وأخوته.

فهم أدهـم تلميح الرجـل، وأنـه بالتأكيـد يقصـد نـازك تلك المـرأة التـي أصبـح لا هـمَّ لـه سـوى الوصـول إلـى أعماقهـا، ولكنـه عـاد فقـال:

ـ ولكن كيف استطاعت أن تمنعه من السياسة؟.. ولماذا؟

فقـال الرجـل ومازالـت عينـاه مثبتتيـن علـى الطريـق وهـو يُطـوى تحـت عجـلات السـيارة:

ـ منـذ بدايـة حياتهمـا معـا وهـي لا تعطيـه أي فرصـة للخـوض فـي أحاديـث السياسـة معهـا، ثـم بعـد ذلـك مـع الأولاد، وبذلـك قطعـت السياسـة عـن البيـت ثـم النـادي، ثـم منعتـه مـن أن يشـترك فـي أي حركـة وطنيـة أو مظاهـرة سياسـية لدرجـة أنهـا خيّرتـه بينهـا وبيـن السياسـة، ولأنـه يحبهـا ويعشـقها فضّلهـا علـى مـا يحـب، وأصبحـت حياتـه مقتصـرة علـى البحـر والبيـت والنـادي، ومـن وقتهـا وضـع همومـه ورغباتـه فـي نفسـه وصمـت. أمـا لمـاذا منعتـه فذلـك يـا سـيدي لأنـه ناصـري.

ارتسـمت ملامـح الذهـول علـى وجـه أدهـم وازداد تعجبـه مـن حـال هـذا الرجـل الـذي لا يظهـر عليـه أي شـيء ممـا يخفيـه بداخلـه، وازداد تعاطفـه نحـوه.

- ولكن ما العيب في أن يكون ناصريا؟
هكذا سأل أدهم، يوسف بك؛ فرد قائلا:
- الحكاية يا سيدي أن فريد ابني كما قلت لك ناصري ويقدس ناصر والناصرية، كما كنت أقدس أنا الوفدية وسعد زغلول - أصل محسوبك وفدي قديم - ولأن جدها الباشا كان إقطاعيا، وقد قضت ثورة عبد الناصر على أمجاده وبالتالي أمجاد أبيها وهي من بعدهما؛ لذلك هي لا تطيق عبد الناصر، ولا تطيق سيرته.
شعر أدهم أن آفاقا جديدة تتفتح أمامه في معرفة تاريخ هذه الأسرة التي هي جزء من العائلة، وها هي أسرار جديدة وشيقة تتكشف أمامه، وعاد ليخطف النظر مرة أخرى من فريد، وهو يقود السيارة سارحا في ملكوته عندما تحاذت السيارتان مرة أخرى، وتساءل: «ترى فيما يفكر الآن؟ هل يفكر في ماضيه السياسي المناضل وناصريته المفقودة والمسلوبة ليس فقط منه بل من الأمة كلها؟ أم يفكر في حاضره الذي أصبح سجينا فيه أيضا كما أصبحت الأمة كلها؟»
وحتى لا يتحوّل أيضا مجرى الحديث مع الرجل عاد ليسأله قائلا:
- وماذا عن نازك هانم وأمجاد عائلتها البائدة؟
- نازك تنتسب لعائلة باشاوية كبيرة نصفها مصري والنصف الآخر شامي، وهي أخر عضو فيها. كانت عائلتها تعيش في عصر الإقطاع، وكانت تمتلك ملكا كبيرا من الأراضي والقصور وكان جدها متصلا اتصالا مباشرا ووثيقا بالعائلة المالكة وبالقصر، وكان ابنه الوحيد - والد نازك - هو الوريث المنتظر لتلك الأمجاد والأملاك، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.
- قامت الثورة!
- بالضبط، قامت ثورة يوليو على يدي عبد الناصر ورفاقه الأحرار، وقضت على الإقطاع وقضت معه على ملك وأمجاد الباشا جدها؛ ولذلك هي تلعن الثورة التي ترى أنه لولاها لكانت الآن تعيش ملكة متوجة، ولأصبحت في حال غير الحال.
الآن فهم أدهم سر العداء للناصرية ولأحلام وطموحات زوجها وكل أبناء جيله في بناء جمهورية مصرية، وأن يحكمها رجل مصري جاء من طينها ونبت في أرضها – بغض النظر عن الأخطاء التى حدثت بعد ذلك -
ولكنه استوقفه خاطر غريب؛ فسأل عنه يوسف بك قائلا:
- ولكن كيف كان يشارك فريد بك في كل تلك المظاهرات ويعتنق الناصرية وهو لم يكن من الطبقة الكادحة أو الفقيرة بل كان غنيا ويعيش في مستوى عال؟
فابتسم الرجل، وقال بزهو وفخر:

ـ هذه هي تربيتي له والتي اختلفت عن طريقة تربيتي لباقي أبنائي لاختلاف الزمن والظروف؛ فلقد ربيته على حب الوطن وضرورة العمل والمشاركة من أجل رفعته وبنائه؛ فتأصلت بداخله الروح الوطنية والقومية، كما علمته التواضع وتحمل المسئولية، ولا تنس أن جيله كله كان في الستينيات يتربى على تلك المباديء.. كانت مصر تولد وتشكل من جديد.. ما أحوجنا لأن تعود تلك الأيام.

وفجأة قطع حديثهما وتأملهما موقف غريب، حيث وجدا سيارة فريد بك تنعطف إلى اليمين وتهديء من سرعتها حتى توقفت تماما ونزلت منها سالي ممسكة ببطنها ومن خلفها أبوها، وكانت تتقيأ ويبدو عليها الإعياء الشديد؛ فتوقف أدهم بسيارته خلف سيارتهم ونزل منها مسرعا ومن خلفه يوسف بك، وذهبا ليطمئنا عليها، ونزلت نازك وناولتها زجاجة مياه لتشرب، واستيقظ طارق مفزوعا ونزل ليطمئن على أخته.. وسرعان ما هدأت وعادت الأمور إلى طبيعتها وانطلقت السيارتان مرة أخرى.

وبعد مرور وقت قصير كانت قد هدأت فيها الأعصاب، فرض الحديث عن سالي نفسه في السيارتين، ولكن أدهم وجدها فرصة للسؤال عنها، فكأنه كان قد نسيها في خضم الحديث عن أبيها وأمها، أو كان قد أجَّل رغبته في أن يعرفها أو بالأحرى يكتشفها في وقت لاحق، وجاء هذا الموقف ليضعها في صدارة الحديث، فسأل يوسف بك قائلا:

ـ رقيقة جدا هذه الفتاة، لم تتحمل التقيوء، لعلها أصيبت بنزلة برد.

ـ بالفعل.. إنها هادئة ورقيقة، وأعز أحفادي على قلبي

ـ لماذا؟

ـ لأنها تشبهني وتشبه أباها.. ولحسن الحظ أنها لم تكتسب من أمها سوى جمالها وأنوثتها الفاتنة، واكتسبت رقة ووداعة وتواضع أبيها وجدها.

أعجب أدهم بوصف الرجل لنازك بأنها ذات جمال وأنوثة فاتنة رغم اقترابها من توديع عقدها الرابع وطرقها أبواب عقدها الخامس، فهذا اعتراف غير مباشر بما لهذه المرأة من سحر لا يخفى وفتنة لا تبلى، ولكنه عاد ليكمل تساؤلاته عن الفتاة فقال:

ـ وماذا تدرس سالي؟

ـ طالبة بكلية الفنون الجميلة، فهي رسامة وفنانة موهوبة ورائعة.

ابتسم أدهم وهز رأسه في سرور حيث اعتبر أن هذه المعلومات مفتاحا للدخول إلى عالم تلك الفتاة، ولكن سيؤجله إلى حيث يفرغ من الدخول إلى عالم أبويها الشاق والممتع في آن.

وفجأة ابتسم يوسف بك، وصاح مجلجلا:

ـ ها نحن قد وصلنا الساحل الشمالي.

(٢٠)

استطاع نور الصباح أن ينزع نفسه من ظلام الليل؛ فاكتست السماء بزرقة صافية اكتمل سحرها برائحة البحر وصوت أمواجه، واحتلت الأجواء نسمة رقيقة داعبت وجه أدهم الذي كان يقف منتشيا بالمنظر والجو في شرفة الدور الثاني من الشاليه المطل على البحر مباشرة، ورغم أنه سكندري الهوى والهوية إلا أنه كانت تربطه علاقة خاصة بالبحر ـ أي بحر ـ خصوصا أن هذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى الساحل الشمالي وإلى هذه القرية السياحية «أمراء البحار»، الخاصة بقباطنة البحر.
والشاليه يملكه يوسف بك ورقيا، وفريد وأسرته واقعيا، وهو مكون من طابقين:الأرضي نزل به فريد وأسرته، والعلوي نزل به يوسف بك وأدهم.. وأمام الشاليه فراندة يحيطها من الجانبين سور قصير، ولها باب خشبي يُفتح مباشرة على رمال الشاطيء، ويُذكرك منظره العام بالبيوت الصغيرة القديمة التي لها سحر الماضي وجماله.
كان أدهم يحب متابعة الشروق دائما، وما أجمله الآن وهو على البحر؛ فخرج إلى شرفة غرفته بالدور العلوي يتأمل منظر ميلاد الصباح الجديد، وفجأة قطع تأمله صوت باب الشاليه بالأسفل يُفتح ثم يُغلق مرة أخرى، وفوجيء بخروج فريد بك من باب الفراندة الصغير متجها إلى الشاطيء، ولم يلحظه؛ فتعجب من استيقاظه المبكر، وأخذ يراقب مشيته والصمت الذي يغرق فيه.. كم يشعر نحوه بالتعاطف، ويحس بالعزلة الداخلية التي يعيشها، وعلى الرغم من ذلك كان يشعر أيضا بأن عالمه على ما به من كبت وتوحد، إلا أنه عالم فقير وليس ثريا مثل باقي الشخصيات التي قابلها، ولكنه كان يريد التقرب منه أكثر لأنه سيكون النافذة التي سيطل منها على نازك، لذلك رأى أنها فرصة مناسبة للانفراد به قبل أن يستيقظ الآخرون.
وبالفعل نزل أدهم وسار على رمال الشاطيء في اتجاهه، وكان هناك على قمة الشاطيء مظلة غير مفرودة وكرسيان ومنضدة، وكان فريد بك يجلس على أحد الكراسي باسترخاء تام مسلما روحه وكيانه كله للبحر.
تنحنح أدهم قبل أن يصل إليه، حتى لا يتفاجأ به؛ فانتبه فريد له واعتدل في جلسته، وابتسم مرحبا به ودعاه إلى الجلوس؛ فجلس أدهم، وقال:
ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتك. لقد وجدتك مستيقظا مبكرا مثلي؛ فجئت لأصبِّح

عليك.
فابتسم فريد بك، ابتسامة أودعها رقته ووداعته، وقال:
- لا بالعكس.. أنت شرَّفتني. أنا أحب دائما أن أكون بجوار البحر حتى وإن لم أكن أعمل فيه خصوصا في وقت المصيف. أحب أن أبدأ يومي برؤيته والاستمتاع به.
فقال أدهم مستمتعا باستقبال الرجل له، ومشجعا على الاستمرار في تدفق الحديث:
- أنا أيضا أشاركك حبك للبحر، وإن كنت طبعا لا أستطيع أن أشاركك عملك فيه.
فابتسم فريد بك مرة أخرى، وكانت ابتسامته تروق كثيرا لأدهم وتشعره بارتياح وبهجة كابتسامة الطفل لأي فرد منا..
كانت هذه هي المرة الثانية التي يجتمع فيها بفريد، المرة الأولى عندما زارهم في شقتهم بلوران، ولكنها كانت مقابلة رسمية لم يستطع أن يعمِّق فيها العلاقة بينهما، وهذه هي المرة الثانية، والتي يتمنى أن ينجح في هدفه فيها.
مرت فترة صمت بين الطرفين، وكان كل منهما مستسلما خلالها للنظر إلى البحر في تأمل صامت،
وكأن كل منهما في انتظار أن يبدأ الآخر بالحديث، وفي أثناء تأملهما الصامت قطعه صوت رجل وزوجته خرجا من الشاليه المجاور لهما جريا نحو المياه، ثم نزلا وأخذا يتداعبان برش المياه على بعضهما، وكان يبدو أنهما ينحدران من أصل ريفي، وكان منظرهما يبعث في النفس شعورا بالبهجة تُرجِمَ لابتسامة صافية ارتسمت على وجهي أدهم وفريد؛ فقال فريد وهو لا يزال مبتسما:
- انظر إلى السعادة البادية على وجهيهما. إن السعادة الحقة تكمن في البساطة وعدم التكلف.
فقال أدهم مؤمنا على كلامه:
- بالفعل.. إن البراءة والبساطة اللتين يمارسان بهما الحياة تشعراهما بسعادة لا حد لها.
- يُخيَّل إلىّ من ملامحهما أنهما من أصل ريفي، والحقيقة أن معظم البكوات الذين تراهم هنا أصلهم فلاحون.
شعر أدهم أن الفرصة التي طال انتظارها قد حانت؛ فاستعد لاقتناصها، وقال والمكر يملأ عينيه:
- رحم الله زعيمنا عبد الناصر؛ فلولاه ما قامت للفلاح قائمة وما شمَّ له نفسا.
وانتظر ليرى أثر كلامه عليه، وبالفعل نجح في جذب انتباهه حيث التفت إليه وقال:

ـ هل تحب عبد الناصر؟
ـ ومن من جيلنا لم يعبده ؟
ولم يكن أدهم يقول ذلك تكلفا أو محاولة لإرضائه، ولكنه بالفعل كان يوما يعبد عبد الناصر ، بل لقد جمعه لقاءات معه فى قصره فى زمانه الذى ولَى ، فهو قريب العمر من فريد ويُعتبر من نفس جيله، وهو الجيل الذي رضع الناصرية في صدر شبابه، وعبد الناصر هو ملهمهم الأول.
كانت كل ملامح فريد تنطق بالفرح والسرور؛ فأخيرا وجد من يشاركه إحساسه وتفكيره؛ فقال ونظرات البشر تتقافز في عينيه الصافيتين:
ـ أنا سعيد جدا بكلامك هذا يا أستاذ أدهم، وسعيد أكثر بمعرفتك. لشد ما تمنيت أن يكون لي صديق يشاركني نفس اهتماماتي.. لقد اعتقدت من فرط يأسي أن الناصرية قد ماتت وولّى زمنها وأنها أصبحت مجرد ذكريات محفورة بداخلنا.
كان أدهم يراقبه جيدا وهو يحكي، ويغمره إحساس كبير بالسعادة لنجاحه في فتح قلب هذا الرجل بسهولة، وبوصفه له أنه صديق يشاركه اهتماماته، فقال وإحساس بالنصر يملأه:
ـ الناصرية لم تمت، هي حية في نفوس الأمة جميعها. فقط تحتاج إلى من يوقظها.
ضحك فريد بك، وكأنه قد تذكر شيئا، وقال:
ـ آه لو سمعتك نازك زوجتي وعلمت أنك ناصري، لكان ذلك يوما مشهودا.
فاعتدل أدهم في جلسته، وكأنه سعد بأن يأتي ذكرها على لسان زوجها، وتمنى لو يسترسل الرجل في الحديث عنها، حتى يعلم جوانب من طريقة تعاملهما معا رغم اختلافهما البيِّن، وأن يرى صورتها في عيني زوجها فاستغل الفرصة، وقال:
ـ لقد ذكر لي يوسف بك، بعضا من مواقفها العدائية للناصرية، وأن ذلك يرجع إلى قضاء ثورة ناصر على أمجاد جدها.
قال ذلك وسكت، وكأنه أراد أن يعطيه طرف الحديث ليكمل هو ويسترسل، ولم يخيِّب فريد إرادته؛ فقال:
ـ بالفعل.. نازك تبغض جمال عبد الناصر بُغض اليهود لهتلر.. دائما ما تشعر أنه السبب في ضياع مجد عائلتها. مشكلة نازك الحقيقية أنها خلقت لنفسها عالما خاصا بها وسكنت فيه، ولا تريد أن تقتنع بالخروج منه إلى أرض الواقع، لا تزال ترى في نفسها أميرة تنتمي لأسرة باشاوات، بداخلها إحساس يرافقها طيلة عمرها ولا يتغير وهو أنها سُرقتْ أمجادها ونُهب عزها. وهذا الإحساس يؤرقها ويجعلها تشعر بأنها منقسمة إلى شخصين: شخص يعيش بأحلامه وكل كيانه في الخيال، وشخص آخر مصطدم بالواقع الملموس الذي يعيشه وهذا

ما يجعلها لا تستطيع التعامل مع الناس ولا الانخراط بينهم لأنهم دونها أصلا وجاها.
كان أدهم يستمع إلى حديث فريد بك بكل حواسه ويعطيه كل انتباهه ويتساءل في نفسه:
"هل نازك تعاني من "شيزوفرينيا" تجعلها تعيش هذا الاضطراب النفسي في حياتها؟ أم أنها تعاني من جنون العظمة الذي يحول بينها وبين التعايش مع الآخرين؟"
وقطع تأملاته، وسأل فريد بك، وكأنه يريد أن يؤكد استنتاجه:
- بداخلي إحساس أنها قد تكون مصابة بـ «الشيزوفرينيا»، أو بجنون العظمة.
فكر فريد قليلا قبل أن يقول:
- كلا الاحتمالين وارد.. لقد تشرّبت نازك كل هذا الغرور والشعور بالفخامة والعظمة من أبيها فؤاد الخشَّاب، وهو كان من أكبر تجار الأخشاب في السابق، وكان نتيجة ذلك أنها شعرت بأنه لا أحد يدانيها منزلة، وهو ما لا تجده مترجما على أرض الواقع. وأذكر قصة غريبة حدثت معها في بداية حياتها، كان قد حكاها لي أبي توضح مدى الغرور الذي تجرعته أثناء تربيتها، وهي أنه كان هناك شاب صغير يعمل مساعدا لأبيها، وكان يعتبره أبوها ذراعه الأيمن، هذا الشاب لسوء حظه وقع في حب نازك عندما كانت تأتي لزيارة أبيها بمقر عمله، أو عندما يرسله أبوها إلى فيلتهم لتوصيل شيء أو قضاء طلب. وقد تملك حبها من قلبه وكل كيانه، وكان شابا وسيما وافر الصحة والجمال والشباب، إضافة إلى إخلاصه لأبيها وحب الرجل الشديد له، ولكنه كان فقيرا ومن أسرة ريفية بسيطة.. كان كلما رآها يشعر أنه يرى حلما بعيد المنال، ورغم أنه كان يخفي هذا الحب في نفسه إلا أن نظرات عينيه كلما تلاقت معها فضحت كل ما يضطرم بداخله.
وشعرت بما يكنه هذا المسكين - هكذا اعتبرته - من مشاعر وعواطف، وهو ما أنكرته وأنكرت عليه مجرد حلمه، واعتبرته سذاجة فلاحين، ورأت فيه تطاولا على الأسياد حتى أنها نقلت لأبيها رغبتها في طرده من العمل معه، وأخبرته بشعور هذا الشاب نحوها، وأنه تخطى حدوده، رغم أنه لم ينطق بكلمة واحدة، ورغم أنه ذراع أبيها الأيمن ويعتمد عليه في كل شيء إلا أنه - أي أبوها - لم يتعود أن يرفض لها طلبا، وبالفعل طرد الشاب وتشرد بعدها حتى ترك البلد وهاجر.. كل ذلك فقط لأنه أحبها وكتم حبها بداخله، ولكنها نتيجة طبيعية للتربية التي تربتها.
شعر أدهم أن المرأة التي طالما حيّرته بغموضها تتكشف له أسرارها شيئا فشيئا، وأنها مليئة بالمتناقضات، وأنها لابد وأن تكون بالفعل مصابة بأحد المرضين،

وهذا ما يُحدث بداخلها خللا نفسيا، ولكنه سأل فريد بك سؤالا كثيرا ما حيّره حيث قال:

ـ هناك سؤال أرجو ألا تعتبره تدخلا مني في شؤونك، وهو كيف استطعت أن تعيش معها كل تلك السنوات رغم التباين الواضح في شخصيكما؟

فابتسم فريد بك لوجاهة السؤال، وقال:

ـ سؤالك في محله، وإجابته ببساطة هي أنني أحبها. نعم منذ أول لحظة رأيتها فيها احتلت قلبي وأبت أن تخرج منه. أحبها على الرغم من كل عيوبها وهذا ما كان يجعلني دوما أتغاضى عن كل تصرفاتها، وأحاول بشتى الطرق إرضاءها، لأنني مؤمن تماما أن تربية أبيها الخاطئة لها هي التي صنعت غرورها. هذا بالإضافة إلى أن حياتي بالبحر علمتني كيف أسير بسفينتي سواء في الربيع أو أثناء هبوب عاصفة، والحياة كالبحر يوم هادئ ويوم عاصف.

كان أدهم يتأمله وهو يعترف له بحبها وشعر بصدقه الشديد، واستطاع أن يقدّر حجم المساحة التي تحتلها نازك من قلبه، فوجدها حقا تملأ كل ذرة فيه، وتساءل في نفسه:

"أيستطيع الحب أن يغفر كل تلك العيوب الموجودة في الإنسان ويجعله يتغاضى عنها بهذه الصورة؟ أم هي طبيعة فريد الشاعرية ونفسه الرقيقة الطيبة هي التي مكنتها من إقامة دولتها بداخله؟"

ـ وكيف تعرَّفت عليها؟

هكذا سأله أدهم، فسرح فريد بخياله مع البحر، كأنه يستعيد الذكرى، ثم قال:

ـ بالصدفة البحتة.. كان أبي صديقا لأبيها الخشّاب، وذات ليلة طلب منى أبى أن أمر عليه بنادي سبورتنج ـ أيام العز القديم ـ حيث كان يقابل فيه صديقه دائما، وبالفعل ذهبت إليه وأنا لا أعرف لماذا يريدني، وجلست معهما قليلا وفجأة شعرت بأن الشمس أشرقت وبددت ظلمة تلك الليلة، وكان هذا عندما ظهرت نازك أمام عيني من بعيد، خطفت عقلي وقلبي بنظرة، تمنيت لو أتركهما وأذهب إليها وأتعرف عليها رغم خجلي من فعل ذلك ولكني أصبت بدهشة شديدة عندما وجدتها تقترب منا، وكانت تتأملني جيدا وكأنها تحاول أن تتعرف على شخصي؛ مما أربكني وأشعرني بالاضطراب. وهي لها طريقة في نظراتها أحبها رغم ما بها من استعلاء حيث تزيدها ثقلا ودلالا، وفوجئت بها تأتى إلينا وتلقى علينا تحية المساء.. ثم قبّلتْ رأس الخشاب وحيّت أبى ثم نظرتْ نحوى بنفس نظراتها المحببة إلىّ تحييني، وفي نفس الوقت تتفحصني وتحاول أن تعرف من أنا.. وقدّمني أبوها إليها؛ فقالت بلهجة جمعت بين الرقي والتعالي:

ـ فرصة سعيدة.

يا الله ما أجمل هذا الصوت. إنه سحرٌ آخر يُضاف إلى سحر جمالها الأخاذ،

ماذا فعلت فيّ هذه الفتاة؟ وأي قدر رتب لي هذا اللقاء؟ في بضع دقائق كنت قد أحببت وذبت وعشقت، وفعل الهوى بقلبي الأفاعيل، تحولت في لحظات من إنسان إلى إنسان آخر، واستسلمت لما يهيِّج صوتها في نفسي من مشاعر وأحاسيس لم أشعر بمثلها من قبل، وقد أخذني سحره حتى أنني لم أرد عليها تحيتها ولم أفق إلا عندما لكزني أبى بكوعه في جنبي منبها إياي، وقائلا:
- الآنسة نازك تقول لك فرصة سعيدة.
هل اسمها نازك؟ ما أجمله من اسم.. إن كل شيء فيها ساحر حتى اسمها.. كلمتان يا ربي نطقت بهما «فرصة سعيدة»، تسقط بي في شباكها أسيرا، ولم أفق مرة أخري إلا عندما لكزني أبى بكوعه ثانية، وقال:
- قلت لك أن الآنسة نازك تقول لك فرصة سعيدة.
"نعم يا أبى لقد سمعتها وما زال صوتها يعزف ألحانا تهز وجداني."
ولكني أسرعت وقلت، ولا أعلم كيف نطقت:
- أنا أسعد.
شعرت نازك بشيء من الإحراج عندما نبهني أبى مرتين لتحيتها، ولكن عزائي الوحيد أنني لمحت ابتسامة ارتسمت على شفتيها، وكأنها فطنت لما أصابني به جمالها وسحرها من فتنة في قلبي. ولقلة خبرتي في التعامل مع النساء، ولعدم معرفتي بالحب وشئونه كنت أنظر إليها مبتسما ولا أستطيع أن أدارى ما يعتلج بصدري تجاهها؛ فحاول أبى أن يدارى إحراجه من ذهولي؛ فقال ضاحكا:
- فريد ابني ليس له أية تجارب عاطفية؛ وذلك بسبب خجله وهدوء طبيعته، ولا يعرف في الحياة سوى البحر والسياسة، فابتسم الخشّاب مشجعا:
- هذا الشبل من ذاك الأسد.
ثم مخاطبا ابنته:
- فريد ابن يوسف بك، قبطان كبير مثل أبيه.
فحوَّلت عينيها نحوي، وكأنها تستمتع وهي ترى أثر سحرها على وجهي، وقالت بصوتها الفاتن:
- الحقيقة أنني تشرفت بمعرفتك، أنت شاب نادر الوجود.
"يا الله ما هذا الذي أسمعه؟ أهي التي تقول عني ذلك؟ الملكة تحرر عبدها وترفعه إلى عرشها".
وانتهى اللقاء ولكن نشوته في نفسي لم تنته، ظللت بعدها لأيام أذكره وأراجع كل كلمة قيلت فيه وكل نظرة حصلت عليها. وكنت أبلغ ذروة نشوتي عندما أتذكر وصفها لي بأنني نادر الوجود. وعلمت من أبي أنه كان قد طلبني إليه ليلتها لكي يدبِّر لي فرصة لأراها؛ فشكرته على تلك الفرصة وعلى هذا اللقاء، وسرعان ما تمت الخطبة فالزواج، وكان الشعور المسيطر عليّ في تلك الفترة

هو أنني أسعد إنسان في الوجود لحصولي على من تمنيتها وحلمت بها.
ولكن مع مرور الوقت بدأت نظرتي الشاعرية والمثالية لها تتغير، وتتكشف لي في شخصيتها جوانب لم تكن ظاهرة لي من قبل، مثل الغرور والتكبر والنظرة المتعالية والتحكم فيّ وفي شخصيتي والتدخل في شئوني، ومطالبتي بترك السياسة وعدم الاختلاط بأي أصدقاء، والطاعة العمياء التي تريدني أن أعاملها بها، فلقد تعوّدتْ منذ صغرها ألا يُرفض لها طلب؛ ولذلك بدأت أتقزز منها، وتتكسر بداخلي صورتها الأولى. ولكن دائما ما كان حبي لها يغلبني ويجعلني لا أنظر إلى كل تلك الأشياء، وعلمت مع الأيام أنها لم تتزوجني فقط لأنها أعجبت بي وبوسامتي وطولي وعرضي، أو لأنها أحبتني، ولكنها اختارتني لأنها وجدت في عملي كقبطان واجهة اجتماعية جيدة خصوصا مع صديقاتها القديمات واللاتي تزوجت كل واحدة منهن إما طيارا أو ضابطا أو طبيبا أو مهندسا، أي أنها اختارتني بعقلها بلا عواطف أو أحاسيس، ولكن لزوم الوجاهة والمنظرة، في الوقت الذي اخترتها أنا فيه بقلبي وبكل ذرة في كياني.
وبعد رحيل أبيها ـ بعد زواجنا بقليل ـ لم ترث منه إلا فيلا واحدة في زيزينيا، حيث كانت تجارته وأحواله قد تدهورت في أيامه الأخيرة وباع كل شيء عدا هذه الفيلا، وورثتها نازك باعتبارها الوريث الوحيد، وأصرّت أن نقيم فيها، ورفضت تسكن معي في شقتي القديمة والتي كانت بلوران أيضا ولكن قبل أن نشتري شقتنا الحديثة الحالية، متحججة بأنها ولدت وتربت في فيلا ولم تتعود أن تعيش في شقة، رغم أنها كانت فخمة وغالية، ولم أستطع أن أثنيها عن رغبتها، وسكنَّا معا بالفيلا حتى كبر أبناؤنا، واضطررنا لبيعها مؤخرا
لظروف ما، ولم تجد أمامها بدا من أن تدوس على كرامتها وتعيش بشقة لوران.
كان أدهم قد ازدحم عقله بالأفكار، وجاش صدره بمختلف المشاعر والأحاسيس مما أثاره حديث فريد الطويل واسترساله بمنتهى البساطة في قصة حبه الرقيقة وخبايا نفسه الطيبة، وشعر بالسرور أيضا لوقوفه على الكثير مما يسكن بداخل تلك المرأة الغامضة من حكايات وتناقضات وأبعاد وأسرار وذكريات، وتساءل في نفسه: ترى كيف سينجح في إقناع امرأة بكل هذا الصلف والغرور بأن ترضى وتوافق على زواج ابنها طارق من ابنة عمته نهى الفقيرة، والتي لا تليق بسيادتها ولا مكانتها.. تلك المرأة التي تسببت في قطع رزق وتهجير شاب كان كل ذنبه أنه أحبها في سره، فهل يصعب عليها حرمان ابنها طارق من حبيبته؟ ولكن المشكلة معقدة فعلا لأن طارق قد تزوج من نهى عرفيا، ومن الممكن أن يكون قد حدث حمل، ولا بديل عن إقناعها بإتمام هذه الزيجة علنيا، وهو الوعد الذي قطعه على نفسه أمام طارق ونهى، وهي المهمة الأساسية

التي جاء من أجلها إلى هذا المصيف، ولكن كيف يقنعها بذلك وهو يعلم مقدما أن هذا أمر مستحيل؟ كيف يستطيع بخبرته الطويلة أن يكسر هذا البرواز الذي تضع نفسها فيه؟ كيف يستطيع أن يخرجها من العالم الافتراضي الذي صنعته لنفسها إلى الواقع؟ ما هي التجربة التي من شأنها أن تفعل تلك المعجزة والتي تكون بمثابة مرآة لها ترى فيها نفسها على حقيقتها.. ترى غرورها.. ترى كبرياءها.. ترى الناس ليس من منظور الغنى والفقر، ولكن من منظور كونهم بشر وبني آدمين لهم مشاعر وأحاسيس مثلما لها. كيف يمكن فك عقدها النفسية ودمج تلك الشخصيتين اللتين تعيشان بداخلها وجعلهما شخصية واحدة؟

عشرات من الأسئلة والأفكار تزاحمت في عقله حتى شعر بصداع، وكانت الشمس قد بدأت تشتد في وقت الضحى والجوع بدأ ينبههما بأنهما للآن لم يفطرا، فقاما معا، وتوجها نحو الشاليه، وإحساس متين بالصداقة قد ربط بينهما.

(٢١)

استيقظ الجميع، ودبت الحركة في الشاليه، وجمعتهم مائدة الإفطار، ثم خرجوا إلى الشاطيء، ونُصبت مظلة ثانية بجوار الأخرى، ورُصت تحتهما الكراسي، ولم يستطع فريد بك الانتظار فأعلن مبادرته بأنه أول من سينزل المياه، وسرعان ما أعلن طارق ومن بعده سالي مشاركتهما معه، في حين اكتفت نازك بالجلوس تحت المظلة تراقبهم بشعرها المصفف إلى الخلف والمعقود كذيل حصان سمح لرقبتها البيضاء أن يتلألأ نورها ويتوهج كالشمس التي تفترش البحر والرمال، وبنظارتها السوداء التي تداري خلفها عينين لهما زرقة البحر وعمقه أيضا.

ولحق بهم أدهم مصطحبا يوسف بك، ومسنِّدا إياه وهو يسير بخطى بطيئة نحو المظلة.

وكان أدهم في عز معمعته ورحلة اكتشافه لشخصيات تلك العائلة لم ينس أبدا عمله الأساسي ولا يوسف بك الموكل بمجالسته ورعايته، ولكن حالة يوسف بك التي تحسنت كثيرا ساعدته على التحرر قليلا من ملازمته الدائمة، فعلى سبيل المثال تحسنت طريقة تناوله للطعام بمفرده، دون الحاجة لمن يطعمه، اللهم إلا بعض

المساعدات البسيطة في تناول الحساء وما شابه نظرا لارتعاش يده. كما أصبح يستطيع الآن دخول دورة المياه بمفرده، فقط يقوم أدهم بتوصيله إلى بابها ويتركه يتعامل بنفسه حتى يخرج، ويرجع ذلك التقدم والتحسن النسبي لصحته إلى التحسن المستمر في إصلاح نفسيته، وإعطائه الأمل وتقوية إرادته، ويرى

أدهم أنه لو استطاع أن يفعل المعجزة ويحقق حلمه في أن يعيد إليه أولاده ويجعلهم يلتفون حوله مرة أخرى ـ رغم صعوبة ذلك ـ لاستطاع الرجل التغلب على كافة مشاكل صحته النفسية منها والجسدية.

وصلا إلى المظلة، وسحب كرسيا وأجلس عليه يوسف بك، ثم سحب لنفسه كرسيا آخر بجواره، حيث جاءت جلسة يوسف بك في المنتصف تماما بين أدهم الذي عن يمينه، ونازك التي عن يساره. رحّب الرجل بزوجة ابنه، ورحّبتْ به، ووجدت نفسها مضطرة للترحيب بأدهم، الذي ركبها اضطراب وقلق منذ جلس تحت مظلتها وفي مواجهتها، بل منذ ظهوره في حياتها، وكانت تتفادى النظر إليه بالانهماك في النظر لفريد وللأبناء وهم يلعبون ويتقافزون في المياه.

وبعد قليل من الوقت مر في انخراط أدهم ونازك في قراءة الجرائد، كل في جريدته، والصمت يُحكِم قبضته على الجلسة خصوصا بعد أن استسلم يوسف بك لسِنة من النوم، ولم ينجح أدهم ـ على غير عادته ـ في كسر حالة الصمت وفتح أي مدخل للحديث معها؛ مما أشعره بالضيق الشديد، ولم يخرجه منه إلا خروج فريد بك من المياه؛ فناوله أدهم بشكيرا أخذ يجفف به ما علق بجسده من قطرات المياه، ثم سحبت له زوجته كرسيا بجوارها، وكأنها كانت تنتظر خروجه ـ أو خروج أي أحد ـ يقويها ويعينها على الخروج من الاضطراب الذي يركبها دائما في حضرة أدهم.

وبعد قليل خرج طارق وأخته سالي أيضا من المياه، وشعر الجميع بأن وجبة الغداء قد حان وقتها، ولكنهم لم يكونوا قد أحضروا شيئا للغداء؛ فقامت نازك، وقالت:

ـ سأذهب إلى الـ (مول) التجاري القريب من هنا؛ لأشتري لكم ما يصلح للغداء.

رحّب الجميع بالفكرة، ولكن حدثت مفاجأة، ولكن لم تكن مفاجأة للجميع، بل لشخصين فقط هما نازك وأدهم، عندما قال فريد بك برقته ووداعته المعهودة:

ـ هل يضايقك يا أستاذ أدهم أن تذهب مع نازك هانم لمساعدتها في شراء الغداء؟

ثمة قشعريرة سرت في جسديهما في نفس الوقت، حيث كانت تشعر نازك برغبة شديدة في التلاشي والاختفاء.. أما عن أدهم فرغم أنه كان ينتظر وبفارغ الصبر فرصة تجمعه بها على انفراد حتى يحاول التقرب منها واختراقها، إلا أن المفاجأة أربكته لأنها جاءت على غفله ودون ترتيب، ولكنه حاول السيطرة على أعصابه وقرر أن يستغل تلك الفرصة أفضل استغلال، فلا يضمن إن كانت ستتكرر مرة أخرى أم لا..

وتبدلت القشعريرة في جسده بنشوة سرت فيه فأنعشته، وقام من فوره مستعدا للذهاب، وقال بلهجة حادة وبلمعة في عينيه:

ـ بالطبع.. أنا تحت أمر نازك هانم.

(٢٢)

أدهم: هل تحبين أن نذهب بالسيارة، أم مشيا على الأقدام؟
نازك: (بحدة).. سيان.
أدهم: الأمر لكِ.. ما أنا إلا تابع مطيع.
نازك: شكرا
أدهم: أعتقد أن الـ (مول) قريب جدا من هنا، لمحته ونحن قادمون، وستكون فرصة طيبة أن أسير بجوار امرأة فاتنة مثلك سيحسدني عليها كل من سيرانا.
نازك:........................
أدهم: هل تعلمين أن هذا اللقاء انتظرته طويلا؟
هنا توقفت عن المسير، وكانا في أحد الشوارع العمومية القريبة من مكان الشاليه، وقد دار بينهما هذا الحديث في الطريق من الشاليه وحتى الشارع العمومي، وعلى الرغم من أن إجاباتها على أسئلته كانت تأتي مختصرة وجامدة إلا أنها كانت لا تريد غلق الطريق أمام تدفق حديثه وتتمنى مزيدا منه، ولكن بما يسمح لكبريائها وغرورها بالحفظ والصون؛ فقالت وهي تنظر إليه وجها لوجه لأول مرة:
ـ أي لقاء هذا الذي انتظرته طويلا؟
فابتسم أدهم في وجهها، وقال بثبات أعجبها:
ـ لقاءي بكِ، لقد سمعت عنكِ كثيرا قبل أن أراكِ، لدرجة أشعلت في نفسي الفضول لرؤيتك والحديث معك.
كانت تريد أن تسمح لنفسها بأن تبتسم، ولو على سبيل المجاملة، إلا أن كبرياءها منعها فحاولت رسم ملامح جادة على وجهها، وعاودت المشي مرة أخرى، وقالت ساخرة:
ـ وما الذي يجعلك تتحرى شوقا لرؤيتي والتحدث معي؟
فتبعها أدهم، وقال غير ملتفت لسخريتها:
ـ كبرياؤك، وعزة نفسك، وقوة شخصيتك.. ثلاثة أشياء كنت أحاول أن أتخيلها في امرأة، فكيف تكون؟ وكيف تتبدى؟ خصوصا بعد أن علمت أنكِ تنحدرين من سلالة باشاوية، فتاقت نفسي لأن أرى امرأة تذكرني بالزمن الجميل الذي لم يتبق لنا منه إلا ذكريات متمثلة في شخصك.
كان الأثر الذي خلفه هذا الكلام في نفسها لا يقل قوة عما أحدثته الهديتان

اللتـان قدمهمـا أدهـم لهـا مـن قبـل، وشـعرت أن دمـاءً جديـدة تتدفـق داخـل شـرايينها، وتسـاءلت فـي نفسـها: هـل مـن المعقـول أن تجـد بعـد كل تلـك السـنين مـن إنـكار مـن حولهـا لهـا ولماضيهـا وعزهـا ومجـد عائلتهـا البائـد واسـتنكار الجميـع لكبريائهـا وعزتهـا بنفسـها ونسـبها، أن تجـد مـن يؤمـن بهـذا الماضـي ويشـاركها أي افتخـار بـه، وبذلـك يعيـد إليهـا الإحسـاس بأنهـا لـم تكـن علـى خطـأ؟

ولكنهـا أخـذت تتسـاءل أيضـا: «تـرى مـن هـذا الرجـل الـذي يسـير بجـواري؟ إنـه يحيرنـي ويثيـر فضولـي، علـى الرغـم مـن مظاهـر الفقـر الباديـة عليـه فـي ملابسـه ونظارتـه، إلا أن لـه سـحرا خاصـا لا أدري مصـدره.. هـل هـو عقلـه المتوهـج، أم نظـرات عينيـه المشـعتين؟ مـا سـر اهتمامـه القـوي بـي؟ وكيـف ارتضـى لنفسـه هـو الكاتـب والمثقـف ـ هكـذا عرفـت مـن طـارق ابنهـا بعـد مـا طلبـت منـه أن يعطيهـا تقريـرا شـاملا عنـه بعـد زيارتـه الأولـى لهـم ـ أن يعمـل جليسـا عنـد رجـل مسـن؟ .. هـل هـو الفـراغ أم أنهـا تجربـة إنسـانية أحـب أن يخوضهـا؟ ـ كمـا قـال طـارق أيضـا ـ علـى أيـة حـال ينبغـي علـيّ ألا أغلـق بابـي دونـه.. لابـد وأن أسـتمع إليـه.. كـم أتـوق إلـى أن أرى نفسـي فـي عينيـه.. أن أعـرف كيـف يرانـي؟ ومـا هـي وجهـة نظـره فـيّ.»

ثم توقفت عن المسير مرة أخرى، والتفتت إليه، وقالت:

ـ ألا تريد أن تدعوني لتناول مشروب بارد؟

(٢٣)

كان أدهـم لا يصـدِّق نفسـه، ويشـعر وكأنـه فـي حلـم جميـل. كان ينظـر إلـى وجههـا الأربعينـي السـاحر، ويتسـاءل فـي نفسـه:

"هـل هـذا معقـول؟ هـل أجلـس الآن مـع أكثـر امـرأة أشـعلت بداخلـي الرغبـة فـي التقـرب منهـا وكشـف غموضهـا، وبنـاءً علـى طلبهـا هـي؟ كمـا أن كبريـاءهـا وغرورهـا ـ علـى الرغـم مـن بغضهمـا ـ يزيدانهـا دلالا وفتنـة، كمـا كان يـرى فريـد بـك أيضـا، بالفعـل كان محقـا فـي ذلـك. أشـعر أنهـا لـو لـم تكـن مغـرورة، مـا كانـت سـاحرة وفاتنـة بهـذا الشـكل. إننـي أرى أمامـي الآن نموذجـا للمـرأة كمـا أريـد لهـا أن تكـون فـي الأرض. فاتنـة وسـاحرة وآسـرة لعقـول وقلـوب كل الرجـال. أرى عينيـن لهمـا زرقـة البحـر وعمقـه وخطـره المهـدد بالغـرق لـكل مـن ينظـر فيهمـا بتأمـل. أرى وجهـا لـو عـرف القمـر طريقـه لاسـتمد منـه الضـوء، ولاسـتغنى عمـا يحصـل عليـه مـن الشـمس، وثغـر شـهي ودسـم يخيّـل إليـك عندمـا تـراه أنـه لـم يُمـس مـن قبـل، ولـم تُنتـزع منـه قبلـة واحـدة حتـى الآن. امـرأة اقتربـت مـن اسـتقبال عقدهـا

الخامس من عمرها لكنها لديها روح تُشعر من لا يعرف عمرها الحقيقي بأنها فتاة في العشرين، وأن هذا الجسد الذي أودعه خالقه كل آيات الجمال والفتنة لا يعطيك أي شبهة بأنه تعرض لحمل أو ولادة من قبل. تشعر أنها من مخلفات عصور الأميرات والملكات، ويأتي غرورها - ولها الحق فيه - ليزيد كل هذا الجمال جمالا."

نعم هذه هي الحقيقة التي يراها أمام عينيه الآن، ولكن مشكلته الوحيدة أنه يجعلها - أي الغرور - تعيش في عالم خاص بها لا تستطيع بسببه الاختلاط بمن يخيِّله لها عقلها بأنه أدنى منها مستوى، كيف يستطيع تحويل مسار تلك المرأة؟ وما الأسباب التي تساعده على ذلك؟ أسئلة حيرته، ولكنه رفض أن يستسلم لها، وحاول أن يجعل من هذه الفرصة - التي لم يكن يحلم بها - بداية أو نقطة انطلاق لرحلة اكتشافها متسلحا بما يعرفه عنها - وهو كثير - وبه العديد من المفاتيح التي تجعله يستطيع قراءتها، وأيضا بخبرته السابقة في اكتشاف الشخصيات التي قابلها في حياته، وفي تلك العائلة ونجاحه في تغيير حياتهم وتحويل مسارها.

والآن.. كيف يبدأ الحديث؟ وبماذا يبدأ؟ هل يسألها عن كل ما يريد أن يعرفه؟ أم يشرِّق ويغرِّب معها في الحديث حتى يلتقط خيطا يتتبعه ليوصله إلى ما يريد؟.

وفي أثناء تفكيره بادرته هي ووفرت عليه عناءه، وقالت:

- ها أنا أمامك كما كنت تتمنى، فأسمعني ما تريد.

"يا للسخرية.. هل الأحلام الصعبة والكبيرة التي كنت أحلم بها ويؤرقني التفكير فيها، تتحقق هكذا بمنتهى البساطة؟ ويا لقوة هذه المرأة ويا لجرأتها، كيف سأتعامل معها؟ وكيف ستستقبل هي محاولات اختراقي لها؟ ولكن صبرا فتجربتي في الحياة تقول أنه ما من امرأة في هذا الوجود إلا ولها مدخل أو نقطة ضعف. لو استطعت أن أجده وأنفذ منه لاستطعت امتلاك زمامها. وأنا أملك هذا المدخل وأعرف نقطة ضعفها جيدا فماذا أنتظر إذن؟ لابد وأن أبدأ الضغط عليها من الآن" فاعتدل في جلسته، وقال متحفزا:

- كنتُ دائما أتمنى أن أقابل في حياتي أميرة من الأميرات أو ملكة من الملكات، أو على الأقل امرأة من زماننا تحمل بداخلها مشاعرهن وأحاسيسهن وسلوكياتهن، ولأننا نعيش في عصر خلا من تلك

الرفاهية والعذوبة في المشاعر والتي كانت تتميز بها الأميرات في السابق، ظلت أمنياتي حبيسة قلبي وخيالي حتى سمعت عنكِ وعن أمجاد عائلتك؛ فراودني الحلم مرة أخرى. وعندما رأيتك ورأيت سحرك وجمالك شعرت بأن حلمي قد تحقق، ورأيت ما ظننته خيالا، واقعا أمام عيني.

حاولت نازك التغلب على مشاعرها المدغدغة، وتنهدت تنهيدة حارة أودعتها كل

حرارة أحاسيسها الداخلية الملتهبة، وقالت:
- وماذا رأيت؟
فاستغل أدهم أول نجاح له، وقال محاولا الضغط أكثر حتى يحقق تقدما أفضل:
- رأيت أميرة وملكة بكل معنى الكلمة - وكان هذا إحساسه الحقيقي - أميرة تذكرنا بعصور جميلة ولّت، وتركتك لنا كأثر أو كعلامة تذكرنا به، ولكنني أشعر بأن وجودك معنا بهذه المواصفات التي تحملينها من عصر ولى تجعلك أسيرة خيالك وسجينة أحلامك. كيف تستطيع أن تعيش مثلك وسط أناس مثلنا؟
كانت تود أن تصرخ وتقول له:
"كفى.. أنت لا تدرى ماذا تفعل بي كلماتك أنها تميتني وتحييني في نفس الوقت. تنتزع منى روحي فلا هي تخرج ولا هي تستقر بجسدي. وبين محاولة الخروج والاستقرار أتلوى أنا وأتعذب. أين كنت غائبا عنى أيها الرجل؟ منذ زمان وأنا أبحث عمن يراني كما تراني أنت الآن، حتى وإن كنت تكذب علىّ فما أجمله من كذب كنت أتمنى أن يكذبه علىّ كل من حولي، وحتى وإن كنت تجاملني فما أعذبها من مجاملة كنت أحتاج إلى سماعها. أما إذا كان هذا هو إحساسك الحقيقي بي - وهكذا أشعر - فأنا أعترف لك بأنني سأولد على يديك من جديد. نعم أنت الرجل الوحيد الذي أستطيع - رغم كل كبريائي وغروري الذي عرفني به الناس - أن أعطيك شهادة منى بأنك الرجل الوحيد الذي استطاع أن يجذبني إليه، وأن يخترقني بسهولة وأن يشعل فيّ الرغبة في مقابلته والجلوس معه وسماع حديثه. أنت يا أدهم دون غيرك، أنت بملابسك البسيطة ونظارتك القديمة ونظراتك الأقوى من الرعد والأحدّ من السهم تنطلق فتصيب، وتخترق فتقتل وتصرع من أصابته.. ها أنا أتقدم نحوك وأحمل قلبي الصريع فوق كفيَّ وسهامك مغروزة فيه، وأقدمه لك شهادة منى بأنك الرجل الذي يستحق أن يعرف من هي نازك الحقيقية.. نازك من الداخل.. نازك التي لا يعرفها أحد حتى أقرب الناس إليها، نازك التي يراها الجميع قوية وجبارة ومغرورة، وهي في الحقيقة أبسط وأضعف مما يتخيلون"
كان أدهم ينظر إليها ويتأمل صمتها جيدا، وكأنه يريد أن يتركها لما توّلده كلماته فيها من أحاسيس ومشاعر، وما تحدثه في وجدانها من اضطرابات. وفضّل أن يصمت ليطيل مدة انخراطها في داخلها أطول وقت ممكن.
وبعد فترة لم تكن قصيرة عادت تدريجيا إلى عالمها الخارجي، وقالت بعقل شارد:
- أنا أضعف مما تتصور أنت ويتصور الآخرون، إنسانة منذ أن ولدت ورأت نور الدنيا وهي تُعامل على أنها أميرة من الأميرات لا يتسنى لها أن تتصرف أو تفعل شيئا إلا كما ينبغي لأميرة أن تتصرف وأن تفعل. منذ طفولتي حُرِّم علىّ

أن ألعب مع ابنة الدادة التي كانت ترعاني وهي طفلة مثلي، لأنه لا ينبغي أن أساوى نفسي بوصيفتي التي تخدمني هي وأمها
وترتدي ملابسي وتأكل فضلات طعامي. تعلمت أن الحياة طبقات، كل طبقة منفصلة عن الأخرى لها حياتها وطبيعتها وأسلوبها في الحياة، ولا ينبغي أو يجوز أن يقترب أحد من طبقة غير طبقته، سواء كانت أعلى منه أو أقل منه، وإلا ستعد جريمة. حتى الحب لم أتذوق طعمه حتى الآن، نعم أنا المرأة التي اقتربت من عقدها الخامس، المتزوجة والأم لأبناء في سن الجامعة أعترف لك أنني لم أعرف الحب الحقيقي في عمري، وهذا ليس عيبا فيمن حولي فهم يعطونني الحب بتدفق وإخلاص، وإنما هو عيب فيّ أنا.. أنا التي لم تتعلم في صغرها ألا تحب سوى نفسها فقط، ولم تتربى أو تتدرب على أن تُهيأ لحب أي شخص آخر غيرها؛ ولذلك كنت سببا في عذاب كل من قابلني وعاشرني طوال حياتي منذ أول شاب أحبني إلى زوجي وعائلته .
كان أدهم لا يستطيع أن يميّز مشاعره التي تضطرم بداخله.. هل هي مشاعر فرحة ونصر لأنه استطاع أن يجعل المرأة التي طالما عذبته وعذبت الآخرين بغموضها وغرورها أن تعترف له ـ هو الوحيد ـ بأنها امرأة ضعيفة وأن يحصل منها ـ هو الوحيد أيضا ـ على شهادة معتمدة بأنه الرجل الأول الذي استطاع أن يخترقها ويشعرها بوجودها؟.. أم هي مشاعر حزن وتعاطف شديد نحوها ونحو ما تشعر به من عزلة ووحدة وقسوة قلب تجرعتها من تربيتها الخاطئة التي كان يعتقد ـ وقد تأكد ـ أنها هي السبب الأكبر في صناعة غرورها وانحراف فكرها ومشاعرها بعيدا عن الواقع وعزلها عنه والإبقاء عليها في عالم من الخيال، كما كان يرى أيضا فريد بك زوجها؟ إذن هي ضحية قبل أن تكون لها ضحايا، ومجني عليها قبل أن تكون جانية على أحد. هل التربية التي يربى بها الإنسان في صغره لها من الخطورة والأهمية ما يمكنها من مصيره بهذا الشكل؟ هل التربية هي التي تشكِّل حياته وتحكم عليها إما بالسعادة أو الشقاء.. بالعذاب أو النعيم بهذه الطريقة؟ وتساءل أيضا:
”ماذا لو كان أبوها قد ربّاها بطريقة أخرى؟ ماذا لو كان قد تركها تلعب مع ابنة الدادة، وقال لها أن البشر كلهم سواء لا تفرِّق بينهم طبقات، وأن الطبقات نحن الذين نصنعها ونحن المنوط بنا تذويبها. أعتقد لو كان فعل ذلك لكان تعاملها مع سلوى أخت زوجها قد أصبح أكثر تواضعا، ولكان طارق ابنها قد تزوج من ابنة عمته نهى زواجا شرعيا ولكانت قد حُصّنت هي ضد الغرور أن يصيبها وينغص عليها حياتها ويجعلها غير محبوبة ممن حولها.“
قال أدهم محاولا الترفق بها والترفق معها، ليس فقط من باب التعاطف، ولكن أيضا لحرصه على عدم خروج الحديث عن حرارته وتدفقه:

- كل ذلك تكتمينه بداخلك وتخفينه خلف قناع من الغرور والكبرياء، حتى لا تشعري أحدا بما يؤرقك أو يعذبك. إنك حقا جديرة بأن تكوني أميرة رقيقة من الأميرات.
اغتبطت من إطرائه رغم حالة شجنها. ولمح شبح ابتسامة ارتسم رغما عنها على شفتيها الدسمتين؛ فشجعته ليقول:
- أريد أن أعرف أكثر عنك وعن عائلتك دون التطرق لأية تفاصيل لا تريدين إطلاعي عليها.
فقالت بلهجة اختلط فيها الدلال بالغرور:
- وإن لم أطلعك أنت.. فمن إذن سأطلعه؟
علم أدهم في تلك اللحظة أنه أصبح الآن فقط يمتلك ناصية تلك المرأة، وأنه نجح في كسب ثقتها. وتنفس تنفسا عميقا ليملأ صدره بالهواء كما امتلأ بالثقة وليطرد من داخله أنفاس اليأس، ويحل محلها أنفاس جديدة مليئة بالأمل والنصر؛ فقال باسما:
- كلما أقنعت نفسي بأن كل ما أسمعه منك حقيقة، كلما أشعرتني كلماتك بأنني مازلت أحلم. والآن أريد أن أعرف قصتك وقصة عائلتك.
فاعتدلت في جلستها وتبدلت ملامحها من الابتسام إلى الجد، وأسندت ظهرها إلى الكرسي الذي تجلس عليه، وبدأت تحكي عائدة بخيالها إلى الماضي البعيد، حتى تراءت لها صورتها وهي طفلة صغيرة فابتسمت، وقالت:
- كنت ابنة وحيدة لأب مصري وأم سورية، بعد صبر طال لأكثر من سبع سنوات دون إنجاب؛ لذلك عندما جئت إلى الدنيا آثرني أبى بكل آيات العز وألوان التدليل. كانت طلباتي تُجاب قبل أن أكمل طلبها. أشعرني بأن الدنيا وما فيها ملك لي فقط.. كل ما عليَّ أن أتمنى، وهو عليه التحقيق. كان يعاملني على أني أميرة أو ملكة، وعلمني أن أشعر بأنني فوق البشر- كل البشر- وأن جميعهم خدم لي وهو أولهم. ولقد ورثت عنه كل طباعه وصفاته، وأهمهم شموخه وعزته واعتزازه بنفسه وبنسبه إلى عائلته الباشاوية وأبيه الإقطاعي، وكان دائما ما يقول:
- لقد استطاع عبد الناصر أن يسحب أملاكنا، ولكنه لم يستطع أن يسحب عزتنا ووجاهتنا.
انتبهت حواس أدهم عند ذكرها للزعيم، وكأنه أفاق بعد شرود، وحاول أن يتأمل ملامحها وهي تنطق باسمه فوجدها تأخذ هيئة عبوس تعبّر عن بغض شديد استاء له في البداية، ولكنه عاد عن استيائه لإيمانه بأنها ليس لها ذنب سوى أنها ولدت من صلب إقطاعي ابن إقطاعي، وأنها تلقت دروسا في صغرها تظهر لها الزعيم وكأنه هتلر، وأنه شردهم كما شرد الأخير اليهود،

ولكنه سأل نفسه: ترى ماذا يكون الحال لو علمت بأنه ناصري، وإذا كان عبد الناصر يمثل لها هتلر الثاني فهو ـ أي الزعيم ـ يمثل له صلاح الدين الثاني من حيث أنه أعاد للمصريين بل للعرب جميعا إحساسهم بالكرامة والعزة ورفع الرأس، هل ستتغير نظرتها له؟ وهل ستسحب اعترافها به من حيث أنه الرجل الذي اخترقها؟ أم ستشعر بأنه الرجل الذي احتلها وغزاها وخدعها؟

ورأى أنه على الرغم من نجاحه معها إلا أن هذا لا يعنى أن الطريق أمامهما سيظل ممهدا ومفروشا بالورود، وأن الجسر الذي بنى بينه وبينها مهدد بالانهيار؛ لذلك آثر أن يتجنب استثارته.

وكانت قد فرغت من شرب كوب مياه؛ فسألها قائلا:

ـ وماذا عن أبيك وحياته؟

فقالت، وقد عادت إلى خيالها:

ـ كان أبى طفلا وحيدا أيضا، وللمصادفة كان لأب مصري وأم سورية مثلي.. وكان قد تلقى نفس التربية التي تلقيتها من إفراط في التدليل والتنعيم، وعندما قامت القيامة وحدثت الكارثة ـ تقصد الثورة ـ هاجر جدي الباشا إلى الشام ومكث عند أهل زوجته وتربى أبى هناك، نشأ وكبر وتعلم وأحب وتزوج هناك من فتاة سورية تنتمي لعائلة أمه ـ جدتي ـ وكان ذلك أيام الوحدة بين مصر وسوريا، ثم قرر العودة إلى مصر ليبدأ في بناء حياة جديدة يعيد بها سحر الماضي وأمجاده. وبدأ في تجارة الأخشاب وخطوة إثر خطوة حتى أصبح من كبار تجارها، وكوّن ثروة كبيرة استطاع بها أن يعيد شيئا من عز الماضي، وكان يقول دائما:

ـ «لا ينقصني سوى الباشاوية، وأعيد سيرتنا الأولى»

وكان موت عبد الناصر عيدا لنا ولأسرتنا، وكنا لا نودّعه بقدر ما كنا نودّع عصر الديكتاتورية والاستيلاء على أمجاد الغير.

هنا شعر أدهم بالدم يغلى في عروقه، وتألمت ناصريته التي تسكنه، وأخذ يقول في نفسه بغضب مكتوم:

"سامحك الله أيتها المرأة.. هل موت أخر زعيم حقيقي للأمة يمثل عيدا لك ولأسرتك البائدة؟

إن موت عبد الناصر أشعرنا نحن جميعا بالموت من بعده، وحتى الآن لم يذق عربي طعم العزة أو أحس بالكرامة، ولم ترفع له رأس بين الأمم. هل عبد الناصر هو الذي استولى على أمجادكم؟ أم أنه أعادها إلى أصحابها الحقيقيين بعد أن استولت عليها عائلتك وأمثالها وتحكموا فيهم واستعبدوهم؟ أجيبيني يا ربيبة العائلة الموقرة التي تغذت من شرايين الملك وتمسحت في بلاط قصره»

شعر أدهم بأنه لو استسلم لوطنيته وناصريته، لخسر تلك المرأة ولخسر جرّاء

ذلك مهمته الأصلية في إقناعها بزواج ابنها من ابنة عمته فحاول السيطرة على أعصابه، وفوجيء بها تسأله:
ـ ترى ما الذي يجعلك شاردا هكذا؟
فتنبه إليها مندهشا، ثم سرعان ما رد بابتسامة ملأت وجهه، وقال:
ـ أبدا.. أحاول أن أتخيّل كل كلمة تنطقين بها، إنك تحكين تاريخا، لا قصص خيال علمي.
ـ في كثير من الأحيان تختلط عليّ الأمور، ولا أعرف هل هي حقيقة أم خيال علمي.
"معها حق.. لقد عشنا أحداثا وحكايات لا ندرى عندما نفكر فيها كيف حدثت وكيف مرت"
ولكنه خشي أن يفقد الحديث تدفقه ومجراه؛ فأسرع يقول:
ـ وماذا حدث بعد ذلك؟
ـ أين توقفنا؟
سكت أدهم قليلا، ثم قال متذكرا:
ـ كوّن أبوكِ ثروة كبيرة استطاع بها أن يعيد شيئا من عز الماضي.
فابتسمت لإجابته النموذجية، ولكن تبدلت ابتسامتها على أثر تذكرها، وقالت:
ـ وجرى قطار العمر سريعا وجاءت سنوات الانفتاح، وعلى الرغم من أنها كانت فرصة ميلاد لأناس كثيرين إلا أنها كانت شهادة وفاة حقيقية لأبى ولثروته.
تملكت أدهم الدهشة وارتسمت ملامحها على وجهه، فلم تنتظره أن يسألها؛ فأردفت قائلة:
ـ وضع كل ثروته في صفقة ولكنه خسرها، فعاد يا مولاي كما خلقتني، ولم يحتمل قلبه الصدمة فتوقف عن الحياة، ولم تستطع أمي الصمود من بعده أمام الفقر وضياع الجاه فلحقت به في نفس الشهر. لم يعد لي في العالم سوى فريد زوجي، ورغم قلبه الطيب ومشاعره الرقيقة التي حاول أن يغمرني بها في تلك الفترة ليخفف عنى حزني، إلا أنه لم يستطع أن يحتويني بالشكل الذي كنت أحتاجه، لم أكن مجرد ابنة يموت والداها، بل كنت أشعر بأنني ممزقة، وأنني أصبحت شجرة بلا جذور ولا أفرع ولا ثمار، ولم أستطع أن أتعامل مع العالم المحيط بي فخلقت لنفسي عالما خاصا وضعت فيه كل آمالي وهمومي، طموحاتي وإحباطاتي، ماضيّ وذكرياتي.

آه.. لقد جاءت اللحظة التي انتظرها أدهم طويلا، هذا بالضبط هو الهدف الذي كان يريد الوصول إليه ـ عالمها الخاص ـ ذلك العالم الذي لم يستطع أحد الوصول إليه من قبل، العالم الذي أخذها من زوجها وأولادها وكل المحيطين

بها بل أخذها حتى من نفسها، العالم الذي تمارس فيه حياتها المفتقدة كملكة ولت عنها مملكتها، العالم الذي تستمد منه غرورها فيصبح حاجزا بينها وبين من حولها. هل جاءت اللحظة الحاسمة؟ هل عليه أن يتحفز للحظة الاختراق الحقيقة؟ هل سينجح في الدخول إلى هذا العالم وبحث تفاصيله ومكوناته حتى يتسنى له وضع الخطة والطريقة التي سيخرجها منه إلى عالم الواقع..

فكر قليلا ثم قال ولمعة مكر تتلألأ في عينيه:

ـ من الطبيعي أن يسألك من يسمعك الآن عن مكونات هذا العالم الافتراضي الخاص بك، ولكنني لن أفعل ذلك. هل تعلمين لماذا؟

فابتسمت بدلال، وقالت:

ـ لماذا؟

فقال ومازالت نفس النظرة في عينيه:

ـ لأنني منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها. رأيت هذا العالم وعرفت كل مكوناته بل وتفاصيله وتجولت فيه، وتعثرت بما يدور به من جزيئات تشكل كل ما يدور بداخلك.

شعرت نازك بنفس القلق والاضطراب اللذين كانت تشعر بهما في أول معرفتها به، وكأنها قد تعرّت أمامه فجأة وانكشفت، وكأن عالمها كان في نظرها منطقة محرمة وشائكة ولا يستطيع أحد سواها الوصول إليه:

"ما هذا الرجل؟ هل يتحدث بلسان إنسان أم بمشرط جراح؟ هل ينظر بعينين أم بمجهرين يكشفان أدق التفاصيل التي لا يراها سواه"

حاولت التماسك والتغلب على اضطرابها، وقالت وهي تتجنب أن تلتقي عيناها بعينيه:

ـ وماذا عرفت عن عالمي واكتشفته فيه؟

ترى هل تختبره وتختبر قوة ملاحظته وقدرته على قراءتها؟ أم أنها تريد أن تعرف ما الذي يدور برأسه عنها؟ أيّا ما كانت تريد فهي فرصته ولن يضيعها.

فقال بتحفز وحماس لا يخلوان من قلق:

ـ عالمك ثرى ومثير، اختلط فيه الماضي بسحره والحاضر بقسوته، اجتمعت فيه الذكريات الجميلة والمعاناة الصعبة، فيه تلاقين الأحباب والأعزاء، وإليه تهربين من كل من لا تودين لقاءه، فيه الحياة وخارجه الموت، فيه تحيين ملكة وخارجه تعيشين أسيرة، فيه تعاملين كأميرة وخارجه تعاملين كمغرورة أو متكبرة، فيه طفولتك ونعيمك وعزك وجاهك وكبرياؤك ودلالك وأنوثتك وشبابك وحبك لنفسك، وخارجه لا شيء من ذلك كله

كانت تنظر إليه بوجه تجمدت معالمه، وبعينين تحجرت الدموع داخلهما

"كيف عرف كل ذلك؟"..

هكذا تساءلت في نفسها..
"هل هو ساحر أم منجم أم مكشوف عنه الحجاب؟ أم أكون أنا المكشوفة أمام الجميع؟ ولكن إذا كنت كذلك فلماذا لم يصل أحد من قبله إلى ما وصل هو إليه؟"
وفجأة شعرت برغبة شديدة في الاختفاء من أمامه.. لم تعد تستطيع الجلوس أمامه أكثر من ذلك، تشعر أمامه بأنها طفلة صغيرة وقفت لكي تُعاقب على حماقة
ارتكبتها، تشعر أمامه بأنها أنثى قد نضجت أنوثتها واكتملت ولا يوجد رجل في العالم يستطيع أن يلتهمها غيره، تشعر أمامه بأنها امرأة ناضجة وصلت لأعلى مراحل النضج ولا يوجد رجل سواه يستطيع احتواءها، تشعر أمامه بأنها كتاب مفتوح لا يستطيع قراءة لغته ولا فك رموزه أحد سواه؛ لذلك لم تعد تستطيع الجلوس أمامه أكثر من ذلك.
إن توهجه يكاد يحرقها وهي كالهشيم لا تحتمل أية شرارة، لم تعد تستطيع أن تنظر في عينه الكاشفة لعورات نفسها وخباياها، والتي استطاعت أن تنفذ حتى إلى عالمها الخاص الذي ظنت كثيرا أنه بمنأى عن أي كائن بشرى، ولكنه في نظرها ليس كائنا بشريا، إنه كائن لا تستطيع أن تصفه أو تجد له شبيها.
وفي أقل من لمح البصر وبدون أية مقدمات أو حتى كلمات اختفت من أمامه وذابت في الطريق.

(٢٤)

ـ الآن فقط علمت من أين تستمد عبقريتك في قراءة الشخصية الإنسانية.
هكذا قال يوسف بك، أثناء جلوسه مع أدهم تحت المظلة على شاطيء البحر بعدما قرأ بعض القصص والروايات والمقالات الفلسفية والفكرية وأيضا السياسية التي كتبها أدهم خلال الفترات السابقة من حياته والتي كان قد جاء بها ليوسف بك بعد ما طلب منه مرارا أن يقرأ له بعض أعماله ليرى هل هو بالفعل أديب جيد أم لا.
ـ وماذا وجدت في قراءتك لأعمالي؟
سؤال رد به أدهم على سؤال الرجل، فقال الأخير بأسلوب دل على تأثره بما قرأ:
ـ الحقيقة أنك تملك أسلوبا عميقا في تحليلك للشخصية الإنسانية بكل ما تحويه بداخلها من اضطرابات وأبعاد وتناقضات تكوِّن حياتها وتشكّلها، تستطيع أن

تخترق النفس والعقل والقلب وأن تحوِّل الوجدان إلى صفحات تقرأ ما بها ببراعة، وتفك رموزها مهما كانت لغتها معقدة ثم تصوغها في النهاية بشكل أدبي غاية في الرقى. باختصار لقد استطعت أن تؤثر فيَّ كأديب كما أثرت فيَّ كإنسان.

اغتبط أدهم لحديث الرجل عنه، وقال بنبرة لا تخلو من شجن:

ـ التجربة الإنسانية في الحياة بئر لا يجف. وما رأيته وقابلته في حياتي يُكتب في مجلدات.

هنا انتبه يوسف بك جيدا، وكأنه تذكر شيئا بعد طول نسيان؛ فقال:

ـ صحيح يا أدهم. هناك أمر كلما جئت لأحدثك فيه أنساه ويضيع من بالى.. أنا لا أعرف أي شيء عن حياتك سوى معلومات بسيطة وعابرة.. كم أتوق لأن أخترقك كما اخترقتنا جميعا.

وخزة قوية شعر بها أدهم في صدره لا يعلم ما سببها، وأصابه الاضطراب للحظات لم يستطع خلالها السيطرة على أعصابه.. هل فاجأه السؤال عن حياته التي وضعها منذ زمن في صندوق وأغلقه على ما به من أسرار وذكريات وألقى بمفتاحه في البحر؟ حياته التي لا يعرف أحد عنها أي شيء حتى أقرب المقربين إليه.. أم أن كلمته الأخيرة لم ترحه عندما قال أنه يتوق لاختراقه كما اخترقهم جميعا؟

كل هذه التساؤلات دارت برأسه في تلك اللحظات التي شعر فيها بالاضطراب، وكان عليه أن يسيطر على أعصابه ويرد، ولكن الرجل لم ينتظر رده؛ فقال وهو يحرك ذراعه أمام عينيّ أدهم محاولا إفاقته من شروده:

ـ هيه.. أين ذهبت؟ هل ضايقتك في شيء؟

؛ فابتسم ابتسامة واثقة، وقال:

ـ أبدا لم تضايقني في شيء.. فقط أثار فيّ سؤالك ذكريات، وأهاج في نفسي مشاعر ظننت أنني قد نسيتها.. حياتي- وإن لم تكن عادية - فهي مثلها مثل حياة أي فرد آخر. بها متناقضات كثيرة، نجاحات وإخفاقات، طموحات كبيرة وإمكانيات محدودة، أمل ويأس، حب وبغض، حرية وقمع، أحلام وكبت، وكلها تجارب ذابت بداخلي وأصبحت جزءً من شخصيتي.

لا يدرى يوسف بك لماذا لم يشعر ولأول مرة بالراحة مع أدهم.. أحس بأنه شخص غريب عنه لم يعرفه من قبل، وتساءل في نفسه:

"هل هذا الرجل بداخله شخص آخر لا أعرفه ولا يعرفه أحد منا؟.. هل نجح في تكوين صورة لنا عنه تخفى خلفها صورة لشخص آخر؟.. أم أن كل هذه الأحاسيس ليس لها أي أساس من الصحة وأنها محض خيالات ولدتها بداخلي طريقة أدهم الغامضة في الكلام؟"

أمـا عـن أدهـم فـكان، ولأول مـرة أيضـا، يريـد أن يختفـي مـن أمـام الرجـل ،كمـا حاولـت نـازك فعل ذلـك معـه مـن قبـل... ولكـن لمـاذا؟ هـل هنـاك مـا يخفيـه أدهـم بجعبتـه مثلمـا يخفـى كل منهـم بجعبتـه ؟ هـل شـعر أدهـم بـأن سـؤال يوسـف بـك مـن الممكـن أن يكشـفه أو يفضـح مـا بداخـل صنـدوق حياتـه مـن أسـرار؟ أم أنهـا أيضـا مجـرد أحاسـيس خاطئـة ومحـض خيـالات ولدتهـا بداخلـه سـذاجة الرجـل وبسـاطة سـؤاله؟

ـ أعدك بـأن أقص عليك الكثيـر مـن غمـوض حياتـي، ولكـن فـي وقـت أفضـل مـن ذلـك.

إجابـة حـاول بهـا أدهـم إرضـاء فضـول الرجـل وفـي نفـس الوقـت الهـروب مـن الموقـف الـذي وضعـه فيـه.. لأول مـرة يشـعر بأنـه الفـأر وأن محدثـه هـو القـط، وهـو الـذي تعوّد منـذ أن تعـرف علـى أفـراد العائلـة ـ بـل وطـوال حياتـه الشـاقة ـ أن يكـون هـو القـط أمـام مـن يحدثـه .

فـرح يوسـف بـك بوعـد أدهـم لـه، خصوصـا وأن هـذا الوعـد تضمّـن جملـة مهمـة، عندمـا قـال لـه «غمـوض حياتـي»، والتـي كانـت بمثابـة اعتـراف منـه بـأن حياتـه مليئـة بالغمـوض والأسـرار التـي لـم يعرفهـا أحـد ولـم يحـاول معرفتهـا أحـد مـن قبـل، والتـي سـاهمت فـي تكويـن وتشـكيل تلـك الشـخصية الغريبـة والفريـدة مـن نوعهـا.

ولـم ينقـذ أدهـم مـن هـذه الورطـة ويخرجـه منهـا، إلا قـدوم فريـد بـك وأسـرته عـدا ابنتـه سـالي والتـي لـم تظهـر أمـام أدهـم كثيـرا منـذ أن جـاءوا إلـى المصيـف، قـام ليرحـب بهـم وسـحب كرسـيا لنـازك؛ فجلسـت دون أن تنظـر إليـه، وسـحب آخـر لفريـد بـك، إلا أنـه قـال:

ـ لا.. سأذهب أنا وطارق لشراء ما يلزم للغداء، ولن نتأخر.

فقال أدهم، وقد فوجيء بذلك:

ـ لا يصح ذلك، اجلسا.. وسأذهب أنا.

فداعبه فريد بك ضاحكا:

ـ لا يـا سيدي لا نريـد أن نمـوت مـن الجـوع مـرة أخـرى ألا تذكـر مـا فعلتـه بنـا أنـت ونـازك هانـم مـن قبـل؟

شـعر بحـرج قليـل، ولـم يحـاول أن يختلـس نظـرة مـن نـازك، ولكـن وبـدون سـبب اختلـس نظـرة مـن يوسـف بـك، ولكنـه اطمـأن وازداد سـكينة عندمـا وجـد الرجـل يبتسـم ابتسـامة طفوليـة عندمـا تذكـر تلـك المـرة حتـى أنـه قـال:

ـ لقد أرسلنا شـخصيتين لا تتفقـان فـي أي شـيء، وكانـت النتيجـة أننـا تضوّرنـا جوعـا والحمد لله.

زادته هذه الجملة اطمئنانا؛ فقال باسما:

ـ على أية حال سنرى مدى السرعة التي ستحضران أنتما بها الغداء.

وضحك الجميع وانصرف فريد بك وابنه طارق، وقبل أن يعاود أدهم الجلوس مرة أخرى طلب منه يوسف بك أن يوصله إلى غرفته بالشاليه ليخلد قليلا إلى النوم.. وبالفعل ساعده أدهم وأوصله إلى سريره واطمئن عليه، ثم عاد مرة أخرى إلى الشاطيء.
كانت نازك تجلس بمفردها تحت المظلة في صمت لا يقطعه سوى صوت أمواج البحر الهادئة في عملية مدها وجزرها التي لا تنقطع، بالضبط مثل علاقته بها والتي تشبه أيضا المد والجزر، فهي منذ آخر لقاء جمعهما بالكافتيريا اختفت من أمامه تماما وتعمدت ألا تريه نفسها إلا نادرا، فلم يكن يراها في تجمع الإفطار أو الغداء أو في أي مكان يذهبون إليه ليلا للعشاء أو التنزه إلا فيما ندر.. ولو حدث ورآها لا تتحدث معه ولا حتى تسمح لعينيها أن تلتقي بعينيه، وها هي أول فرصة يراها فيها بمفردها، فترى كيف ستكون؟
وما أن اقترب من المظلة حتى تنحنح لينبهها بمقدمه؛ فلم تحرك ساكنا ولم تلتفت وكأنها كانت تشعر بوجوده وبأنه قادم، فابتسم في نفسه وبهدوء شديد سحب كرسيا وجلس بجوارها حتى أصبحا سويا في مواجهة البحر، فنظر إلى عملية المد والجزر التي تمزق الأمواج تمزيقا، وقال:
ـ لولا المد والجزر في البحر لتحوَّل إلى بحر ميت، وهكذا أيضا في حياتنا، لولا وجود المد والجزر بها لتحولت إلى حياة ميتة.
"عجبا لهذا الرجل، إنه دائما ما يقول ويترجم كل ما يدور داخل نفسي. ما أجمل تشبيهاته وربطها بتفاصيل الحياة الدقيقة. سر قوة هذا الرجل في اهتمامه بأدق التفاصيل التي لا ننظر نحن إليها أو نهتم بها، ولكن ترى هل تسرّعتُ عندما حكيت له عن نفسي وعن حياتي؟ هل كانت استجابتي واستسلامي له ناتجين عن ضعف مني استغله هو، أم عن قوة منه استخدمها معي؟ على أية حال كانت غلطة منى ولن أكررها"
هكذا كانت تقول نازك وتحاور نفسها، فحوّل أدهم نظره من البحر إليها، وقال:
ـ هل أنت نادمة على أنك صارحتِني بما في نفسك؟
"استطاع أيضا أن يقرأ هذه المعلومة؟ يا لجبروتك أيها الرجل"
ـ نعم، ما كان يصح أن أطلع رجلا غريبا على تفاصيل حياتي الخاصة.
هكذا جاء ردها، ولكن أدهم لم يستسلم، وعلم أنها عادت لغرورها وكبريائها عندما شعرت بأنها هُزِمت واخترقت من الداخل، فقال:
ـ أعلم أن ندمك هذا رد فعل طبيعي لشعورك بالهزيمة، وأن عالمك الخاص قد كُشف وانتُهكت أسراره، لكن صدقيني لو اعتبرتِني مجرد صديق عابر في حياتك حلّ على عالمك ضيفا لاختلف الأمر لديك برمته.
على قدر ما أثار الجزء الأول من حديثه غضبها وأشعل رغبتها في الصراخ،

على قدر ما هدأها الجزء الثاني.. إنه يتحكم في مؤشر انفعالاتها بمنتهى البراعة والمقدرة، فتارة يلهب مشاعرها وأخرى يهدئها ويسكنها. وأخذت تساءل نفسها:

"هل حقا جاء ندمي كرد فعل لشعوري بالهزيمة والاختراق كما يقول؟ إنه كلام منطقي ومعقول. أشعر أنه صحيح على الرغم من أنني لم أفكر فيه من قبل، ولكن كيف عرفه وتوصل هو إليه؟ وهل إذا اعتبرته مجرد صديق عابر سأرتاح من عناء إحساسي بأن أسرار حياتي قد انتهكت؟"

وقطع أدهم تأملاته، وقال محاولا إعادة الاطمئنان إليها:

ـ أنتِ تضخمين الأمور وتعطينها أكبر من حجمها، كلنا نعيش مأساة في حياتنا بطريقة أو بأخرى، وبدرجة تتفاوت مع أخرى، ولولا ذلك ما كان لحياتنا طعم ولا مذاق، وما خُلق بداخلنا التحدي في التغيير والرغبة في التقدم للإمام. دائما ما يموت منا لكي يحيا آخرون، ويصاب منا لكي يشعر بالنعمة آخرون، ويفقر منا لكي يقدر ما بيده آخرون. وكل واحد منا يعيش على خشبة مسرح اسمها الحياة، يمثل دوره فيها كما كُتب له، والشخصية التي ليس بحياتها دراما أو شيء يُحكى، ليس لها وجود أو قيمة أو تأثير، وأنتِ شخصيتك بها الكثير مما يُحكى ويُقال ويُستفاد منه، فقط تحتاج لمن يتأملها ويتفحصها ويقرأ ما بين سطورها، يخيّل إلىّ أنكِ خلقتِ لكي تثبتي لنا أن الحياة بها ما يستحق أن نحبه، ونعيش من أجله، ونشكر الله عليه، وبها أيضا الكثير مما يستحق أن نبحث عنه ونكتشفه حتى نصل إلى جوهرنا وجوهر حياتنا.. ألا ترين بعد كل هذا أنك أخطأت في حق نفسك وحق من حولك عندما أغلقت عليك عالمك واعتزلت الحياة؟

كان كلما أخذها جزر كبريائها وغرورها وسحبها نحو عمق البحر وخطره، يعيدها أدهم بمده إلى الشاطيء حيث الأمان والاستقرار.. هكذا كانت تشعر كلما تحدث إليها واصفا إياها وصفا دقيقا، ومترجما لكل مشاعرها وتناقضاتها؛ لذلك كانت تعلم في قرارة نفسها أنها لم تعد تستطيع خسارة هذا الرجل أو الاستغناء عنه، حتى وإن رغبت في الاختفاء من أمامه، وحتى وإن عادت ووضعت حدودا بينهما كما كان في السابق، وحتى وإن أعادت كبرياءها وارتدت قناع الغرور مرة أخرى، ستظل الرغبة في وجوده بجوارها مشتعلة لا تنطفيء، وكأنه أصبح خريطتها التي تتضح فيها معالمها، أو مرآتها التي ترى فيها أدق تفاصيل نفسها وشخصيتها؛ فقالت بنبرة جمعت فيها بين التبسط والدلال:

ـ عموما من الممكن أن تستمر صداقتنا، ولكن لابد لها من حدود.

امتلأت روح أدهم بالسعادة، وقال باسما:

ـ وأنا موافق، وتأكدي أنني لن أتخطى حدودي يوما أو أشعرك بالتطفل أو

التدخل في شئونك الخاصة.
ولم ترد إلا بابتسامة بسيطة أعادت إلى وجهها الضياء وإلى نفس أدهم السعادة والسرور، وكأنه اطمأن بعد طول قلق، وتساءل في نفسه: «هل الوقت مناسب لضرب ضربتي التالية؟ ألم يأن الأوان أن أفاتحها في مهمتي الأساسية التي جئت إلى هنا من أجلها، وهي موضوع زواج ابنها طارق من نهى؟... ترى كيف
سيكون ردها؟ هل ستوافق وبذلك تريحني وتريح الجميع؟ أم أن عملية المد والجزر بيني وبينها ستعود من جديد؟»
ـ كنت أريد أن أفاتحك في موضوع خاص مستغلا الصداقة التي بيننا، وأرجو أن تتفهميه قبل تعطيني رأيك فيه.
هكذا قال متغلبا على تردده وقلقه، وبدلال ولامبالاة تعمدتها، قالت:
ـ طالما بحكم الصداقة تفضل؛ فأنا على أية حال صديقة وفية.
إجابة مبشرة حسبما رأى أدهم، ولكنها أيضا لم تنه قلقه؛ فقال والأمل والرجاء يتراقصان في عينيه:
ـ لقد جمعني لقاء بابنك الجميل طارق، ووجدت أنه يتمتع بشخصية رائعة، جمعت بين هدوء أبيه وجمال أمه.
داعبت تلك الكلمات غرورها وأسعدتها؛ فقالت بلهجة جمعت بين الفخر والاعتزاز:
ـ طارق أعز من لي في الحياة؛ فهو أول من أشعرني بالأمومة وجعلني اكتشف في نفسي أحاسيس جديدة ومختلفة.. ومنذ صغره لقي مني اهتماما خاصا، كنت أريد أن أجعله شابا يُضرب به المثل في جميع الأوساط؛ لذلك اهتممت بتعليمه وعندما انتهى من المرحلة الثانوية واختار دراسة الهندسة صممت على أن ألحقه بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، على الرغم من أن حالتنا المادية كانت متعثرة في تلك الفترة حتى أنني اضطررت لبيع فيلتي في زيزينيا والانتقال إلى شقة لوران الجديدة؛ حتى أضمن له مصاريف كل سنوات الدراسة بالإضافة إلى توفير سكن فخم له بالقاهرة ليستقبل فيه أصدقاءه أثناء فترات الدراسة، وأيضا شراء سيارة فارهة له تشرفه وسط من سيصادقهم من أبناء علية المجتمع وصفوته بتلك الجامعة.
الآن فقط علم أدهم سر انتقال نازك إلى شقة لوران رغم عدم تقبلها ذلك، أو كما كانت تقول لفريد من قبل أنها ولدت وتربت في فيللا، ولا تستطيع العيش في شقة..
حاول أن يتقدم خطوة أخرى في موضوعه، فقال:
ـ أما آن الأوان لأن تزوجيه ممن يحب؟

التفتت إليه التفاتة حادة، وكأنها قد صعقت عند سماع جملته. لماذا هذا السؤال بالذات؟ وفي هذا التوقيت؟ وبهذه الطريقة التي توحي بأنه يعرف ما لا تعرفه هي؟ فقالت بلهجة لم تخل من شك:

ـ لهجتك الواثقة تقول أنك عرفت شيئا لم أعرفه بعد.. هل تحدث طارق معك في هذا الأمر؟

فقال مسرورا بتلك الخطوة، ومحاولا التقدم نحو خطوة أخرى:

ـ شيء من هذا القبيل. لقد اعترف لي بحبه لفتاة أرى أنه أصاب في اختياره لها.

"من هو حتى يرى أو لا يرى؟ ماذا يمثل لطارق أو لنا حتى يقدر أو يحكم في أمر لا يخص أحدا سوانا؟".. هكذا كان رد فعل نازك في داخلها على كلام أدهم، ولكنها آثرت أن تكتمه ولا تبديه حتى تستطيع الوقوف على أسرار ابنها الذي فضل أن يودعها عند أدهم.. "ترى هل استطاع أن يخترقه كما اخترقني أنا الأخرى؟". وجدت صعوبة في السيطرة على انفعالها، فاندفعت، وقالت بحدة:

ـ ومن تكون هذه الفتاة؟

كان أدهم يتوقع هذا السؤال؛ فقال بهدوء وثقة:

ـ لا يهم من هي الآن.. المهم هل توافقين على زواجه من حيث المبدأ؟

لم تجد بدا من أن تقول:

ـ الزواج بالنسبة له أمر طبيعي، من حيث طبيعة سنه، ومن حيث أنه تخرج وسيبدأ حياته.

فقال أدهم متنهدا:

ـ الحمد لله.. عبرنا أول مرحلة، ولم يتبق إلا أصعب مرحلة.

ـ أنا لا أفهم منك شيئا. أريد أن أعرف من هي الفتاة التي يحبها طارق؟ وابنة من؟ وهل هي من عائلة معروفة أم لا؟

آه.. هذا بالضبط ما كان يخشاه ويخاف منه.. ابنة من؟ ومن عائلة معروفة أم لا؟.. نازك ستظل هي نازك ولن تتغير إلا بمعجزة خارجة عن إرادة البشر. احتار قليلا وفكر فيما يجب أن يقال، ولجأ للحيلة مرة أخرى، وقال:

ـ أيهما أهم لديكِ؟.. العائلة والاسم، أم سعادة ابنك وهناؤه مع من يحب؟

ـ بالتأكيد سعادة ابني وهناؤه. ولكن أيضا مركز العائلة واسمها ضروري لنجاح الزواج وضمان السعادة.

ـ وهل مركز عائلتك واسمها وفرا لك حياة زوجية هنيئة وضمنا لك السعادة؟

هكذا أطلق أدهم جملته كالسهم؛ فأصاب كبرياءها في مقتل، وظلت لدقائق ـ أو لسنوات كما شعرت ـ وكأنها مشلولة لا تستطيع أي حركة، أو النطق بأية كلمات. "متى تكف عن إطلاق سهامك نحوي أيها الرجل؟.. ولكن هل هو محق فيما

قـال؟.. نعم إنـه أصـاب الحقيقـة كمـا أصـاب سـهمه كبريائـي. لـم يمنحنـي اسم عائلتي أو مركزهـا أي سـعادة أو هنـاء. بـل العكـس هـو الصحيـح، كان سـببا فـي تعاسـتي وشـعوري بغربتـي طيلـة حياتـي الماضيـة. مـاذا أقـول لـه؟ وبمـاذا أجيبـه؟ هـل أثـأر لكبريائـي وأصـرخ فـي وجهـه وأقـول لـه مالـك أنـت وحياتـي؟ مالـك وحيـاة ابنـي ومـن اختارهـا؟ أم أنطـق بالحـق وأقـول لـه معترفـة بـأن كل كلمـة قالهـا هـي عيـن الحقيقـة؟"

كان أدهـم يحـاول أن يقـرأ فـي ملامـح وجههـا كل مـا يـدور بداخلهـا مـن صراعـات واضطرابـات ويبتسـم فـي نفسـه كلمـا وجدهـا تحـاول النطـق فـلا تسـتطيع، ودعـا الله أن يوفقـه فيمـا يريـد، وانتظـر حتـى التفتـت إليـه قائلـة:

ـ أيا ما كان اسم العائلة التي تنتمي إليها هذه الفتاة، أريد أن أعرف من تكون؟

وبمنتهى البساطة والهدوء الذي يصل إلى حد اللا مبالاة جاءت إجابته:

ـ نهى، ابنة عمته.

وكأن بركانا انفجر في رمال الشاطيء عندما وقفت صارخة في وجهه:

ـ ابنة سلوى، هذا على جثتي، وإن كانت أخر فتاة في العالم.

وانصرفـت نحـو الشـاليه، والغضـب يمـلأ كل ذرة فـي كيانهـا، مخلفة شعورا بالهزيمة ارتسـم علـى وجـه أدهم.

(٢٥)

الصدفـة البحتـة هـي التـي جمعتهمـا هـذا الصبـاح، عندمـا خـرج أدهـم إلـى شـرفة غرفتـه بطابـق الشـاليه الثانـي، يراقـب ميـلاد الصبـاح الجديـد فـي السـماء كمـا اعتـاد؛ ففوجـيء بهـا تقـف هـي الأخـرى بالشـرفة المجـاورة لشـرفته والتـي لا يفصـل بينهمـا سـوى سـور قصيـر يسـمح للواقـف خلفـه برؤيـة ومخاطبـة الآخـر فـي سـهولة ويسـر. كانـت تفـرد ذراعيهـا فـي الهـواء القـادم مـن البحـر وتستنشـقه وهـي تغمـض عينيهـا، وكأنهـا طائـر يحـاول أن يطيـر فـي مكانـه وبجوارهـا تسـتقر لوحـة فنيـة موضوعـة علـى حامـل خشـبي وبجـوار الحامـل منضـدة خشـبية تناثـرت عليهـا بعـض الفـرش والألـوان، كان ذلـك قبـل أن تكتشـف خـروج أدهـم، لذلـك كانـت مفاجـأة لهـا عندمـا فتحـت عينيهـا فرأتـه، شـعرت بالحـرج فـي البدايـة ولكـن سـرعان مـا أزالتـه ابتسـامة أدهـم الوضّـاءة، والتـي أعقبهـا قائـلا:

ـ صباح الخير يا آنسة سالي.

ـ صباح النور يا (أنكل) أدهم.

ـ أخيرا رأيتك في هذا المصيف.

ـ كما ترى.. أحب أن أقضي جميع أوقاتي أمام لوحاتي، وخصوصا في فترة المصيف، حيث السكينة والهدوء والتحرر من المذاكرة والمحاضرات.
ـ وهل لي أن أطلِّع على لوحاتك لأرى إن كانت تستحق كل هذه العزلة وكل هذا الاختفاء؟
أصاب طلبه روحها بالانتعاش؛ فاستدارت بخفة الفراشة وأخرجت لوحتها من موضعها على الحامل الخشبي وناولته إياها، وأخذت تراقب ملامحه وهو منهمك في تأملها، وكأنها تحاول قراءة انطباعاته في وجهه؛ فنظر لها أدهم نظرة ذات دلالة، وقال:
ـ الحقيقة أن اللوحة بها الكثير مما يُقرأ ويُفهم بسهولة، ولكن بها الأكثر مما يحتاج إلى فك شفرات غموضه.
أعجبها ما أثارته لوحتها في نفس أدهم من تساؤلات وانطباعات ولكنها أخذت تفكر فيما قاله، محاولةً تفسيره، ثم سألته قائلة:
ـ أوافقك الرأي بأن بها ما يمكن أن يكون واضحا للعيان، ولكن ما الذي رأيته فيها يتطلب فك شفراته؟
سعد أدهم بتجاوب الفتاة معه وبحالة الانسجام التي سادت بينهما على الرغم من أنه أول لقاء يجمعهما ويتيح لهما تبادل الحديث والرأي في أمور خاصة ، وشعر بأن الطريق أمامه ممهد للدخول في عالم أخر عضو في أسرة فريد بك؛ فقال محاولا إعادة قراءة اللوحة مرة أخرى بشكل أدق وأعمق:
ـ أولا اختيارك لأن تكون خلفية اللوحة كلها سوداء بالتأكيد له مدلول ومعنى بداخلك أردتِ أن تعبري عنه.. كما ألاحظ أيضا أن اللوحة كلها عبارة عن مجموعة من الخيوط الهلامية تشكِّل أدخنة بيضاء متصاعدة في تفسخ وشتات.. أليست هذه شفرات تحتاج إلى تفسير؟
كانت الفتاة تنظر إليه مشدوهة، وبجمود، وكأنها صورة ثُبتت بـ (ريموت كنترول) لدرجة لفتت انتباه أدهم، وكانت تتساءل في داخلها:
"كيف فهم هذا الرجل لوحتي بهذه البساطة؟ وكيف توصّل إلى ما كنت أريد التعبير عما يدور بداخل نفسي المعذبة؟ إنه أول شخص يفهمني من المرة الأولى.. كل الذين رأوا هذه اللوحة سواء من أهلي أو من أصدقائي وبَّخوني عليها، ولم أحصد منهم سوى السخرية خصوصا من اختيار اللون الأسود كخلفية لها دون أن يحاولوا الوصول لسر اختياري هذا وما وراءه من أسباب ورؤى؟ هو الوحيد الذي أشار إلى أن وراء هذا الاختيار سر يحتاج إلى تفسير. إنه ليس تحليل رجل عادي. إنه تحليل فنان بل أستاذ في الفن. كم ارتحت له، ولكن هل بالفعل استطعت أن أعبر عما بداخلي بالطريقة التي تجعل من حولي يعرفون ما أعانيه؟"

وأخافها هذا الخاطر، ولكنها أفاقت على صوته، وهو يقول:
ـ يظهر أن كلك شفرات تحتاج إلى فك وتفسير.
فابتسمت وسألته باهتمام:
ـ ولكن كيف توصلت لتلك القراءة مع أنك لا تعرفني جيدا؟
انتاب أدهم إحساس بالسعادة الغامرة نظرا لتجاوبها معه، وقال:
ـ إنتاج الفنان ـ أيا ما كان فنه ـ هو انعكاس طبيعي لكل ما يدور بداخله من مشاعر وأحاسيس ووجهات نظر يريد أن يعبر عنها ويجسدها في عمله، وهذا ما تفعلينه أنت بفرشاتك، وأفعله أنا بقلمي.
انتبهت لكلمته الأخيرة، وهمت أن تسأل، ولكنه لاحقها قائلا:
ـ نعم أنا كاتب.
شعور بالبهجة احتل نفسها عندما علمت أنه كاتب وفنان مثلها، فتهيأت لأن تنصت له جيدا لتسمع منه المزيد؛ فأكمل قائلا:
ـ إن الكاتب يملأ بقلمه فراغ الصفحات البيضاء ويبعث فيها الحياة ويحوِّلها إلى واقع حي وموجود تتكون جزيئاته من الحروف والكلمات والجمل. كذلك الرسام يحوّل بفرشاته الخطوط الهلامية إلى تشابك ينتج عنه كائن موجود جاء من اللاشيء ويصبح لا ينقصه سوى الروح لكي يصبح حقيقة ، وكل ذلك يأتي انعكاسا لما بداخل هذا الفنان.
نشوة سرت بجميع عروقها فخدرتها ولم تنطق بكلمة وكأنها لا تريد أن تقطع سيل حديثه المتدفق والذي تشعر بأنه يجدد خلاياها. وعندما وجدها لا تريد النطق ليكمل حديثه تشجع لأن يطرق أول باب في عالمها، فقال باسما:
ـ أما بالنسبة للوحتك، فلو استطعنا معرفة ما يرمز له لون خلفيتها الأسود وخيوط الدخان الأبيض المتصاعد لاستطعنا بمنتهى البساطة أن نعرف ماذا يدور بداخلك. ولكن بما أنها لوحتك وتتحدث عنك فلماذا لا تحدثينني أنتِ عنها بشكل أدق؟
هنا ولأول مرة منذ بداية حديثهما شعرت بالقلق والاضطراب.. بالتأكيد هي سعيدة بأنها وجدت من يفهمها ويشاركها النقاش حول عمل من أعمالها، وهو شيء كانت تفتقده كثيرا، ولكن هل ستكون سعيدة أيضا عندما يفضح أمرها وتتكشف أسرارها الدفينة في أعماقها خصوصا أمام رجل غريب لم تتحدث معه إلا منذ دقائق معدودات؟
وكأن أدهم قد استشف ما يدور بداخلها من أسئلة من علامات القلق والتشرد البادية على وجهها النازكي الجميل الذي يصوّر وبوضوح الصورة التي كانت عليها أمها في صغرها من فتنة وجمال، ففكر قليلا ثم قال بنبرة جادة لم تخلُ من حنو:

ـ أعلم أن العلاقة بيننا لم تصل بعد إلى مرحلة تجعلك تقصّين عليّ أشياءً قد تطلعني بشكل ما أو بآخر على أسرار خاصة بك، وأنا أتفهم ذلك جيدا لكن ما أريده منك هو أن تعتبريني صديقا لكِ لن يبخل عليكِ بالنصيحة، ولن يُطلِع على أسرارك أحدا سواه. هذا إن كنتِ قد شعرت بشيء من الاطمئنان نحوي.
راحة غريبة احتلت نفس القناة الرقيقة وأزالت عنها كثيرا من قلقها.
"نعم شعرت بالاطمئنان منذ اللحظة الأولى لحديثي معك. لقد قلت أنك ستكون صديقا لي. يا ليت ذلك يتحقق. كم أحتاج إلى صديق أودعه همومي وأشجاني، خصوصا وأنا ليس لي أي أصدقاء بناءً على رغبة أمي منذ صغري. هل من الممكن أن تصبح أنت الصديق الذي طالما تمنيته ولم أجده؟ قلت أيضا أنك لن تبخل
عليّ بالنصيحة. أؤكد لك أنني لا أحتاج الآن في هذه الفترة من حياتي أكثر من النصيحة خصوصا لو جاءت من شخص مثلك فهمني من أول لقاء. بالتأكيد سيكون وجودك في حياتي نقطة تحول كبرى، لذلك لن أرفض عرضك أبدا».
ـ وأنا قبلت صداقتك.
قالتها هكذا بلا ترتيب أو تزويق، وهو تلقاها بفرحة من يتلقى خبر نجاحه في امتحان مقابلة شخصية هامة، وسريعا انفتح قلب الفتاة وانشرح صدرها للحديث، فقالت:
ـ اللوحة أسميتها الدخان، وهي بالفعل انعكاس لما أشعر به في هذه الفترة الصعبة من حياتي. والدخان يعبِّر عن أحلامي والتي تشبهها إلى حد كبير، فهي أمامي وأراها بعيني ولكني لا أستطيع الإمساك بها، أما الخلفية السوداء فهي تجسيد لغموض مستقبلي وأيامي القادمة، وما سيحدث فيها. أشعر بأن فضاء حياتي كفضاء اللوحة أسود ومعتم وأحلامي تطير فيه هائمة كالدخان. وهذا ما حاولت التعبير عنه في لوحتي.
ـ وقد أحسنت التعبير. ولكن هل لي أن أسألك عن الأسباب التي تشعرك بكل تلك الأحاسيس المبهمة والسوداوية في آن. خصوصا وأنتِ زهرة جميلة لا تزال في بداية تفتحها؟ أم أنك ستعدين ذلك انتهاكا لخصوصياتك وأسرارك؟
كسا الحزن ملامح وجهها الرقيق وأثقلت نفسها هموم لا تليق بوردة في عمرها، وقالت:
ـ هي أحاسيس ومشاعر متداخلة أكثر من كونها أسرار. أمور متناقضة صعب عليّ فهمها أو استيعابها، ومشاعر اشتبكت خيوطها إلى حد التعقيد حتى وجدتني أسيرة لها لا أستطيع حلها أو الفكاك منها.
استغرب أدهم حديث الفتاة المليء بما يصعب عليه فهمه هو. فما الحال بالنسبة لزهرة يانعة لم يتعد عمرها التسعة عشرة ربيعا بعد؟

فقال متفكرا:
- كلامك مليء بالألغاز التي تخيفني عليكِ أكثر مما تستثير فضولي؛ لذلك أرجو منك ألا تمانعي في مصارحتي بشكل أكثر تفصيلا.
فنظرت نحو باب الشرفة، ثم التفتت إليه قائلة:
- أخشى أن يسمعني أحد من أسرتي، خصوصا وأن غرفتي بالأسفل وهذه الغرفة توجد بها بعض أجهزة الرياضة ويصعد إليها من يريد التريض أو مشاهدة البحر في أي وقت. فما رأيك لو نتمشى سويا بعيدا عن هنا لأكون بمأمن من جميع الآذان.
فقال أدهم وإحساس بالنصر والسعادة يملؤه:
- إذن ليس أمامنا سوى البحر يجمعنا.

(٢٦)

اختلطت المشاعر بداخل أدهم، وهو يسير بجوار سالي، تلك الفتاة النازكية الرقيقة، على شاطيء البحر، والمياه تداعب أقدامهما، وقد استسلمت للحديث والفضفضة معه بشكل أنساها أنها قد تعرفت عليه منذ وقت لا يزيد عن الساعة، ولكنها شعرت نحوه برابطة قوية وكأنها تعرفه منذ سنين. أقول، اختلطت بداخله المشاعر حيث كان يشعر نحوها شعورا أبويا خالصا يجعله يريد ضمها داخل صدره، وفي نفس الوقت يشعر بأنها فتاة مسكينة تحتاج لمن يساعدها على تجاوز أزمتها - التي لم يعلمها بعد - وإلى دليل يرشدها في متاهتها.
أما هي فكانت تعمل بكل طاقتها على إخراج أكبر قدر ممكن مما ترسب بداخلها من هموم وأحزان، وكانت بداية حديثها معه حينما اعترفت له قائلة:
- إن سبب مأساتي مرتبط للأسف الشديد ارتباطا وثيقا بأجمل قيمة في الحياة وهي الحب، الذي من المفروض والطبيعي أن يكون هو مصدر السعادة والبهجة في الحياة، ولكنه معي تحوّل إلى مصدر للهم والحزن المستمر، ذلك لأن قصة حبي معقدة، وليس لها من حل.
- لا توجد في الدنيا عقدة ليس لها حل.
هكذا قال أدهم دون تفكير أو حتى فهم كامل لما قالته، وكأنه أراد أن يشجع الفتاة على الدخول في الحديث بشكل أدق وأكثر تفصيلا حتى لا تستسلم لحالة الحزن التي تبطن حديثها فتفقد حماسها. وبالفعل ما أن سمعت هي تلك الجملة، حتى دبَّ الحماس والأمل في نفسها وقلبها، وقالت:
- أنا طالبة بكلية الفنون الجميلة.. وفي أول يوم لي فيها ذهبت متأخرة، وكنت

لا أعرف أين قاعة محاضراتي ولا أي شيء. وفي ظل حيرتي ظهر لي شاب خطف قلبي منذ أول نظرة ولاحظ حيرتي فتقدم مني وسألني:

- هل تريدين أية مساعدة؟

وعلى الرغم من احتياجي الشديد لمن يساعدني إلا أنني شعرت باضطراب شديد جرّاء كلامه معي وتلعثمت ولم أستطع الرد عليه، وعندما شعر بالحرج ابتسم لي معتذرا وانصرف. وبعد أن خطا خطوات قليلة استجمعت شجاعتي وناديته فتوقف مستغربا تصرفي، فسألته عن قسمي ومكان محاضراتي، فذهب معي وأوصلني إلى المكان الذي أريد واختفى، ولم أره إلا بعد مرور أكثر من أسبوعين، ولكنها كانت مفاجأة.

- وكيف كانت تلك المفاجأة؟

- في ذلك اليوم وجدته يدخل قاعة المحاضرات ويقف على المنصة ويقول في الميكروفون معرفا بنفسه:

- أنا وحيد عبد السلام، معيد بهذا القسم، وسأدرس لكم بداية من اليوم.

كانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لي أصابتني بالشرود لفترة طويلة، ولكنها - ولا أدري لماذا - أشعرتني بسعادة كبيرة لأنني سأراه دائما وسأكون بجواره. أما هو فكانت سعادته لا تقل عن سعادتي عندما لمحني في المدرج وسط زملائي والتقت عيوننا ولمحت شبح ابتسامة ارتسم على شفتيه، ومنذ تلك اللحظة بدأت تنسج بيننا خيوط قصة بدأت سعيدة ولكنها انتهت نهاية معقدة.

- لماذا؟

- كان كل يوم يمر يقرِّبنا من بعضنا أكثر بطريقة لم يرتب لها أحد منا، خصوصا في كل مرة أذهب إليه سواء بمفردي أو مع أحد من زملائي في المكتب الخاص بالأساتذة والمعيدين، ليشرح لي شيئا استعصى عليّ فهمه، فكانت عيناه تنطقان وتعترفان بكل ما يدور بداخله ويدخره نحوي من مشاعر وأحاسيس. وكانت عيناي هي الأخرى ترد على تلك المشاعر والأحاسيس بمثلها وبأشد منها حرارة.. وفي أثناء تلك الفترة كنت قد تعرفت عليه وعلى حياته أكثر، وحكى لي عن حياته المؤلمة التي يعيشها خصوصا بعد أن رحل عنه والداه في حادث أليم وتركاه وحيدا، وكم المعاناة التي يجدها في وحدته وافتقاده لكل أشكال الحنان، وأيضا حكيت له الكثير عني وعن أسرتي وحياتي، حتى شعر كل طرف منا بأنه لا يستطيع الاستغناء عن الطرف الآخر، على الرغم من أنه لم يعترف أي منا للآخر بحبه، ولا أفصح عن حقيقة مشاعره تجاه الآخر، ولكن إحساسا قويا

تحول مع الوقت إلى إيمان قوي بأننا خُلقنا لبعضنا، وأنه لا حياة لأحد منا دون الآخر.

ـ وأين تكمن المشكلة؟
ـ المشكلة أنني لاحظت في الفترات الأخيرة تغيره الشديد نحوي، حتى أنه بدأ يتجنب لقاءه بي، ويحاول ألا تلتقي نظراتنا أثناء المحاضرة وينصرف مسرعا بعدها ويختفي من الكلية تماما.
ولا أدري ما سبب هذا التغير المفاجيء على الرغم من تأكدي من أن كل ذرة في كيانه تنطق بحبه لي، وأن لغة الصمت لو كانت تُترجم لتحولت كل ثانية صمت منه إلى صرخة مدوية ترجمتها: أحبك.. أحبك.. فماذا حدث؟ ولماذا تغير؟ وما الذي يفكر فيه ويخفيه عني؟
كل هذه الأسئلة تعتصرني، ولا أجد لها إجابة لأن إجاباتها الوحيدة عنده هو. وللأسف الشديد عندما حانت الفرصة وجمعني به اللقاء أخر يوم في الامتحانات الماضية وجد نفسه مضطرا لأن ينظر في عينيّ، فقرأت في عينيه حزنا عميقا وشجنا مريرا، ولمحت دموعا تتكون فسألته:
ـ لماذا تتهرب مني هكذا؟ وما سر تغيرك معي؟
فأجابني قائلا:
ـ آنسة سالي.. أرجوكِ ساعديني على أن أتعامل معك على أنك مجرد طالبة عندي وأنت تعاملي معي على أني أستاذ لك، ولا يصح أن تتعدى علاقتنا هذه الحدود.
وانصرف من أمامي مسرعا، ولم أره من وقتها.
تنهد أدهم وقطب جبينه مفكرا، ثم قال:
ـ الحقيقة هو أمر محير فعلا. خصوصا أنه حسب كلامك يحبك ويجد فيكِ الشخص الذي لا يستطيع أن يعيش بدونه. ولكن من المؤكد أن هناك سرا دفينا بداخل هذا الشاب المسكين يفسر كل ما حدث.
مرت لحظة صمت لم ينطق خلالها أحدهما، حتى لمعت في عقل أدهم فكرة ابتسم على أثرها ابتسامة ماكرة، ثم قال:
ـ طالما أن كل أسئلتنا إجاباتها الوحيدة عند الدكتور وحيد، فلا يوجد أمامي سوى مقابلته ومعرفة السر بنفسي.
أخر شيء كانت تتوقعه سالي، التي التفتت نحوه بدهشة.. هل ستجد أخيرا مخرجا لأزمتها وحلا لمشكلتها؟ هل ستجد من يجيب على أسئلتها التي لطالما أرهقتها وعذبت نفسها الرقيقة؟
ـ لو حدث ذلك ستكون بالفعل رجلا عظيما.
فضحك أدهم ملء فمه، وقال:
ـ منذ فترة لم أسمع هذه الجملة، ولكن طالما نطقتِ بها، فاستبشري خيرا.
ولم تشعر سالي بنفسها إلا وهي تلقي بنفسها في أحضان أدهم الذي ضمها

بحنان أبوي وربت على ظهرها؛ فاطمأنت نفسها بعد طول قلق، وعادت روحها بعد طول غياب.

وعادا سويا إلى الشاليه، وما أن دخلاه حتى وجدا منظرا غير مألوف أشعل نيران القلق في أوصالهما، حيث وجدا كل أفراد الأسرة مجتمعين في الدور الأول وعلى وجوههم كآبة شديدة تنبيء بحدوث شيء خطير، فنظر يوسف بك نحوه، وقال:
- يجب أن نعود إلى الإسكندرية حالا، فلقد حدثت كارثة.
اهتزت رجلا أدهم عند سماعه هذه الجملة فازدرد ريقه بصعوبة وأسرع قائلا:
- ماذا حدث كفى الله الشر؟
فقال فريد بك وصوته يعزف أحزانا:
- لقد سقطت عمارة لوران.

(٢٧)

كان المنظر مؤلما حقا، منظر أنقاض العمارة المنكوبة، وقد تحولت إلى أكوام من التراب والطوب. كان الذهول يملأ وجوه كل المتجمعين والمتأملين سواء من المارة أو من الجيران، وسرعان ما جاء موكب المحافظ يسبقه حراسه، فعاين الموقع واستمع إلى أحاديث بعض الناس ومحاولات تفسيرهم لما حدث، ثم ركب سيارته وانصرف، ولم يسمع أحد عن أي شيء فعله بعد ذلك. كان الناس يتناقلون أخبار سكان العمارة وحكاياتهم وكيف أن القدر أنقذ هذا الرجل الواقف بينهم يبكي بحرقة على زوجته وأولاده، والذي قال:
- طلبت مني زوجتي أن أنزل إلى الصيدلية لأشتري دواءً للصداع، وعلى الرغم من رغبتي الشديدة في النوم إلا أنني تحاملت على نفسي ونزلت، وأنا أقف بداخل الصيدلية سمعت صوتا مرعبا، وكأن زلزالا قد ضرب الشارع فخرجت لأرى عمارتنا وقد أصبحت كما ترون هكذا. وأصبحت لا أدري ماذا يحدث أو يجري من حولي وكأني في حلم.. يعني لو لم أنزل لشراء الدواء واستسلمت لرغبتي في النوم؛ لكنت الآن تحت هذا الركام مع زوجتي وأولادي.
وانفجر في البكاء على زوجته وأولاده، فتجمع الناس حوله ضامّين إياه إلى أحضانهم، مشاركين إياه البكاء والحزن.
وانطلق صوت آخر لصاحب محل مواجه للعمارة المنكوبة وهو يضرب كفا بكف على الدنيا وعدم أمانها مترحِّما على العروسين اللذين لم يمض على زواجهما سوى ثلاثة أيام لم يخرجا خلالها من شقتهما سوى عصر أمس عندما

أنزل العريس سبتا من الشرفة ليشتري منه بعض الأشياء؛ فهنأه وداعبه ببعض الكلمات التي يُداعب بها العرسان في أول زواجهم، ولا يصدق أنه الآن تحت هذا الركام هو وعروسه المسكينة.
كانت تلك القصة وغيرها مما تبارى الناس في حكيه وإلقائه على مسامع المتجمهرين حول الأنقاض، سببا في صنع حالة من الشجن لفت المكان ومن فيه حتى جاء عمال الإنقاذ وأخذوا في رفع الأنقاض أملا في اكتشاف ضحايا لم يدركهم الموت بعد.
تطلعت جميع الوجوه وهي تتابع العمال في حين أخذ البعض يلقي باللوم تارة على الحكومة التي لا تهتم بالرقابة على البناء لضمان سلامة وأمن المواطنين، وتارة أخرى على المقاولين الذين تخلو نفوسهم من أي ضمير وتمتلىء قلوبهم بالجشع، ولا هم لهم سوى تشييد عمارات وتسكينها للحصول على الأموال دون النظر إلى قوة ومتانة ما يشيدون، كما ألقى باللوم على هذا المحافظ الجديد الذي منذ جاء إلى المدينة من الصعيد، والعمارات آخذة في السقوط لدرجة أنهم أطلقوا عليه «أبو الهدد» من كثرة الأرصفة التي يهدها بالمدينة.
في ذلك الوقت، وصلت السيارتان، سيارة فريد بك الفارهة - أخر ما تبقى لهم - تحمل الأسرة، وسيارة أدهم الصغيرة تحمل يوسف بك. نزلوا جميعا ففوجئوا بالمنظر الأليم. كان الإحساس بالذهول يتملكهم جميعا بلا استثناء، ورغم أن الصدمة كانت قوية على الجميع، إلا أنه كان لها وقع خاص قاتل على نازك هانم؛ لأنها من ناحية لم يكن لها أو لزوجها مكان سوى هذه الشقة، ومن ناحية أخرى، وتلك هي الكارثة الأفظع أنها كانت
قد سحبت كل رصيدها ورصيد زوجها من البنك قبل أسبوع وأودعتهما في الشقة؛ حيث كانت ترتب لافتتاح مشروع مركز تجميل نسائي.. أي أنها خسرت كل شيء، المأوى الذي كان يؤويها والمال الذي كان يضمن لها كبرياءها وحياتها الرغيدة بالإضافة إلى علبة مصاغها والتي كانت تحتفظ فيها بكل ما تمتلكه من مصاغ، حتى الذي ورثته عن أمها ونجا من التأميم في السابق لم ينج من الضياع الآن..
وشعرت بالدماء تنفجر في رأسها، ولم تتحمل الموقف فسقطت على الأرض مغشيا عليها.

ومع شروق شمس اليوم التالي وبداية إطلالتها على الدنيا، بدأت خيوط الوعي تتجمع في عقلها مرة أخرى وتدخل بها شيئا فشيئا حيز الإدراك، بدأت تفتح عينيها فرأت غمامة كثيفة سرعان ما أخذت في التلاشي حتى وضحت الرؤية جيدا أمامها، ففوجئت بزوجها وأبنائها ويوسف بك وأدهم يلتفون حول سريرها.

وما أن تأكدوا من إفاقتها حتى أخذ الجميع في الصياح والتهليل فرحين بعودة الوعي إليها؛ فشعرت بارتياح واطمئنان بداخلها وحاولت أن تتحدث فاستجمعت قوتها وسألت بصوت لم يخلُ من إرهاق:

ـ أين أنا الآن؟

ـ في مستشفى إبراهيم عبيد بسابا باشا.

هكذا جاءت الإجابة، ولكنها توقفت عند الصوت الذي نطق بها والذي أذهب عنها فجأة ارتياحها واطمئنانها وجعل كل حواسها تتنبه وتحاول أن تتذكر صوت من هذا؛ فرفعت رأسها جاهدة ونظرت إلى الاتجاه الذي جاء منه الصوت، وما أن وقعت عيناها على من جاوبها حتى شعرت بصدمة قوية لا تقل في قوتها عن صدمة الأمس، إنها سلوى، شقيقة زوجها وعدوتها اللدود، وسرعان ما قرأ فريد ملامح الغضب على وجه امرأته؛ فقال مسرعا ومحاولا تهدئتها قبل أن تثور:

ـ عندما علمت سلوى بما حدث لكِ، أصرَّت أن تأتي لتطمئن عليكِ.

لم تفلح محاولة فريد في تهدئتها، فثارت قائلة:

ـ جاءت لتطمئن عليّ، أم لتشمت فيّ، للأسف القدر الذي أذلني أسعدها.

فقالت سلوى محاولة إنكار اتهامها:

ـ معاذ الله أن أشمت في مصاب، والله ما جئت إلا للاطمئنان عليكِ، والوقوف بجواركم فيما أصابكم.

وقال يوسف بك مؤكدا على كلام سلوى:

ـ سلوى ابنتي صادقة فيما تقول، والدليل أنها تبرعت لكِ بدمها بالأمس وأنتِ في الغيبوبة.

وعلى عكس ما توقع يوسف بك أن تهدئها جملته الأخيرة، فوجيء بأنها أثارتها أكثر ودبَّ الغضب في أوصالها عندما علمت بأن دماءها اختلطت بدماء سلوى، تلك الفقيرة الحقيرة، وقالت في نفسها:

"كيف أعيش وأنا يجري بداخلي دم عدوتي الحاقدة عليّ والناقمة على ما أنا فيه ـ أو ما كنت فيه ـ من نعم"..

هكذا كانت تنظر إليها، وأخذت تتساءل:

"كيف سأعيش بدم إنسانة ليست من طبقتي ولا سلالة باشاوات مثلي.. آه إنها حقا نهايتي"

وانهمكت في البكاء.

لم تتحمل سلوى الوجود في الغرفة أكثر من ذلك، وشعرت بأن كرامتها جرحت بما فيه الكفاية فخرجت مسرعة، ولحق بها فريد ومن خلفه أدهم.

واستوقفها أخوها في الطرقة المؤدية للغرفة وأمسكها من ذراعها، وقال:

ـ سلوى.. أرجوكِ لا تغضبي من كلام نازك، الصدمة كانت قوية عليها وعلينا جميعا.
ـ زوجتك لا فائدة فيها.. هذه ليست أول مرة تعاملني مثل هذه المعاملة، ولن تكون الأخيرة.
هنا تدخّل أدهم قائلا بهدوء:
ـ أرجو أن نلتمس لها جميعا العذر في كل مل تفعله، وما سوف تفعله في الأيام القادمة؛ لأنها تمر بأقسى تجربة لها في حياتها، وإن استطعنا استغلالها بذكاء ودقة لغيرنا مجرى حياتها.
فقال فريد بك مستفهما:
ـ كيف ذلك؟
ـ قبل أن أجيبك كيف ذلك.. هل فكرت أين ستستقر أنت وزوجتك وأولادك بعد أن فقدتم مسكنكم؟
ـ ليس لنا مأوى سوى فيلا أبي بالأنفوشي. لا نستطيع حتى استئجار شقة بعد أن أصبحنا على الحميد المجيد.
فقال أدهم بابتسامة هادئة سبقت كلامه:
ـ وهل مازلت تتساءل كيف سيتغير مجرى حياة زوجتك؟

(٢٨)

ثلاثة أشهر مرت منذ هذا الحادث الأليم، حدثت خلالها تغييرات كثيرة أهمها وأكبرها هو رضوخ نازك هانم واستسلامها لقدرها وقبولها لأن تسكن الدور الثاني علوي من فيلا عائلة زوجها بالأنفوشي. لم تعد نازك التي يعرفها الجميع، فقد ذبل جمالها ونحل عودها واحتل الحزن قسمات وجهها فأذهب عنه فتنته وسحره، ومنذ أن سكنت بالفيلا لم يخاطب لسانها أي فرد في تلك العائلة ولا حتى زوجها وأولادها وكأنها خرست وفقدت القدرة على النطق.
كانت الصدمة قوية حقا وكان التحول في حياتها مفاجئا وقاسيا لم تستطع التواؤم معه أو التعود عليه، ولم تجد أمامها سوى أن تضع همومها وأحزانها وشعورها بالانكسار بداخلها وتصمت، حيث لا فائدة من أن تثور أو تغضب أو حتى تتكلم؛ فالقدر لا تملك أمامه سوى الاستسلام.
ومن التغيرات والأحداث الكبيرة التي حدثت أيضا في تلك الأشهر الماضية حدوث المعجزة، وهي زواج طارق من نهى ابنة عمته سلوى، كما وعدها أدهم. ويذكر الجميع كيف كانت مفاجأتهم عندما أبلغوا نازك هانم بأمر تلك الزيجة، وبأنهم حددوا لها موعدا قريبا فلم يجدوا منها أي رد فعل لا غاضب ولا

مرحب، وكأنها ما سمعتهم، ولكنها رفضت حضور حفل الزفاف، وآثرت البقاء وحدها في الشقة، وتم الزواج وسكن طارق ونهى بالشقة المقابلة لشقة فريد بالدور الثانى أهداها لهما جدهما. أما عن فريد بك فكم كانت فرحته وسعادته لعودته للبيت الذي ولد وتربى فيه وشهد طفولته وصباه وشبابه، ولكنه آثر أن يكتم فرحته أمام زوجته حتى لا يزيد من ألمها والذي كان يتألم هو الآخر له. أما عن سعادة يوسف بك فحدث ولا حرج، كان لا يصدق أن فريد ابنه - وفريد بالذات - قد عاد إليه مرة أخرى بعدما فقد الأمل في عودته إلى الأبد.

ولم يكن أدهم مشغول العقل والفكر كما كان طوال تلك الأشهر منتظرا الفرصة التي ينفذ فيها مخططه. كان دائم الشرود والتفكير، فها هي المعجزة الخارجة عن إرادة البشر التي طالما تمناها ولكنه لم يتوقعها قد حدثت.. نازك هانم فقدت عرشها وكل ما تملك

وأصبحت مثل سلوى عدوتها اللدود. أصبح لا فرق بين ابنة الباشاوات وابنة الطبقة الدنيا - إذا ما قسناها بحال زوجها عاصم - جاءت نقطة التحول التي غيّرت مجرى حياتها. من كان يصدق أن نازك هانم سترضى بزواج ابنها من ابنة سلوى دون أن تنطق بجملة واحدة حتى ولو كانت اعتراضية.. بل من كان يصدق أن نازك هانم ستوافق أن تعيش في بيت واحد يضمها مع سلوى وزوجها وأولادها (البيئة)، وأن ترتدي من ملابسها، حتى يستطيع أن يشتري لها فريد ملابس غير التي فقدتها، حتى وإن باع السيارة في سبيل ذلك. بالتأكيد هي ضربة موجعة تلقتها نازك دون أن تكون مستعدة، ولكن هل سيستطيع أدهم بدهائه وخبرته أن يتخذ من هذا التحول بداية لإحداث تغيير شامل في شخصيتها أن يسخر كل الأحداث التي حدثت في خدمة غايته وهدفه النبيل؟ هذا ما ستثبته الأيام القادمة.. هو تعمد ألا يحدثها أو ينظر إليها، أو أن يتعامل معها بأي شكل من الأشكال طيلة الأشهر الماضية حتى يترك مساحة لحزنها أن يتقلص، وللنسيان أن يلعب دوره في تخفيف حدة الألم الذي أصابها وانتظار الفرصة التي يراها مناسبة ليستطيع توجيه ضربته فتحدث التأثير الذي يريد.

وفي ذات صباح مبكر كان أدهم قادما من بيته متجها نحو فيلا العائلة التي يعمل بها، فركن سيارته الصغيرة ونزل منها أمام كشك جرائد ليشتري جرائد الصباح، وقبل أن ينصرف فوجيء بنازك قد خرجت من الفيلا وعبرت الطريق بمفردها متجهة ناحية شاطيء البحر، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها منذ ما يقرب من شهرين، فأراد استغلال هذه الفرصة فلم يدخل الفيلا ومشى وراءها وكان يتأملها وهي تمشي شاردة صامتة لا تلتفت لأي شيء حولها وكأنها تسير وهي نائمة. ولفت نظره ما أصابها من ذبول وشحوب وأخذ يترحم على الفتنة والسحر والكبرياء والغرور الذي كان يملأ كل ذرة في

كيانها.
مرت أمام حلقة السمك ثم قسم شرطة الأنفوشي ثم انعطفت يسارا في اتجاه قلعة قايتباي، وعندما وصلت إلى القلعة صعدت فوق بعض الصخور الكبيرة حتى استقرت على إحداها وكانت قريبة من الماء وجلست مستظلة بالقلعة من شمس الصباح الباكر شاردة وكأنها تناجي البحر وتشكي له همومها. اقترب منها أدهم في حذر وثقة، ودون أية كلفة أو مقدمات جلس بجوارها ناظرا إلى البحر هو الآخر، وعندما شعرت بأن أحدا جلس بجوارها التفتت إليه فأصابتها الدهشة واتسعت عيناها غير مصدقة أن الذي بجوارها هو أدهم:
"متى وكيف رآني؟ وما الذي جاء به إلى جواري؟"
أسئلة دارت بخلدها ولكنها لم تنطق بشيء وعادت بنظرها إلى البر مرة أخرى؛ فقال لها أدهم دون أن ينظر إليها، وبنبرة لم تخلُ من شجن:
- عجيب أمر هذه الدنيا. من كان يصدق أن ذلك سيحدث، وأن كل الموازين ستقلب، لكني ورغم ما أصابني من ذهول ودهشة مما حدث إلا أنني تعلمت منه درسا مهما، وهو أننا لا نستطيع تغيير القدر لأنه إرادة فوق إرادتنا. ولكننا نستطيع تغيير أنفسنا وحياتنا لأنها لا تتغير إلا بإرادتنا.
"مازال كلامك حلوا ومؤثرا يا أدهم، وما زالت فلسفتك في الحياة آسرة لقلبي وعقلي يا من استطعت - أنت الوحيد - أن تخترقني وأن تريني نفسي في مرآتك على حقيقتها، وبصورة لم أكن أرى نفسي عليها من قبل، ولكن ماذا سيفيد كلامك معي الآن؟ هل ستستطيع فلسفتك أن تعيد لي ما فقدته؟ إن ما فقدته ليس فقط مأوى ومال وجاه، بل فقدت نفسي وإحساسي بذاتي وقيمة وجودي بالحياة.. أشعر أنني صرت شبحا لا تأثير لوجوده ولا قيمة»
كان أدهم يعلم أنها لن ترد عليه إلا في داخلها؛ فتشجع وقال مواصلا حديثه:
- أعلم أن الضربة قاسية، والصدمة أكبر مما تحتمل خصوصا على من كانت في مثل ما كنتِ عليه، ولكن لماذا لا تحاولين النظر لحياتك من منظور جديد؟ لماذا لا تسألي نفسك هل كان القدر ظالما لك حينما فعل معك ما فعل؟ أم أن هناك حكمة عظيمة ورسالة بليغة أراد أن يرسلها إليكِ القدر لتكون بمثابة شهادة ميلاد جديدة لحياة جديدة تنتظرك؟ حياة سترين فيها قيما جديدة غير التي كنتِ تؤمنين بها، وأخلاقا جديدة غير التي كنتِ تتخلقين بها، وأناسا جددً سيحوطونك ويملأون عليكِ فراغ حياتك الذي كنتِ تعيشين فيه وحيدة.. أليس من الممكن أن يكون القدر قد أراد لكِ أن تخرجي من العالم الافتراضي الخاص الذي صنعتِه لنفسك إلى أرض الواقع الذي هربتِ منه ورفضتِ العيش فيه؟
كانت كلماته لها مثل حبال تمسك بها وتحاول أن تتسلق عليها لتخرج من البئر العميق الذي كانت ساقطة فيه..

"هل هو محق فيما يقول؟.. أيكون القدر قد أراد لي هذا التحول لأرى الواقع والناس والأشياء بنظرة أخرى غير التي كنت أراهم بها؟.. أيكون القدر قد أراد أن يحطم عالمي الخاص الذي كان أشبه بسجن لم أكن أطيق الوجود فيه إلا مرغمة، وأن يطلق سراحي لأعيش في دنيا الناس كما يعيش الناس؟ أيكون القدر قد أراد أن ينسيني كل ما تلقيته أثناء تربيتي من قيم وعادات وتقاليد ومفاهيم ترسبت وترسَّخت بداخلي فشكلت مني تلك المرأة المغرورة صاحبة العزة والكبرياء؟ هل كان مقدرا لتلك الشخصية المتكبرة أن تموت بداخلي لتولد بدلا منها نازك جديدة لطالما اشتقت لها وتمنيتها وتمناها كل من حولي؟ ولكن إذا كان ذلك كذلك فبالتأكيد أنها ستكون ولادة عسيرة لن أستطيع أن أتحمل آلامها وحدي."

هنا وقف أدهم بعدما قرأ ملامح وجهها، ومد يده لها قائلا:

- لن تكوني وحدكِ أبدا..

(٢٩)

أدهم: هل تعرفين عنوان مسكنه؟

سالي: نعم، شارع إيزيس من شارع ابن الخطاب بمحطة مصر.

أدهم: وهل سنجده الآن؟

سالي: نعم.. هو يكون بالبيت في مثل هذا الوقت.

وقف أدهم بسيارته تحت أحد البيوت القديمة والمتهالكة بشارع إيزيس، والذي يوجد بأسفله مقهى بلدي قديم لا يقل قدما عنه.. نزل هو وسالي واتجها نحو باب البيت ثم استوقف صبي المقهى وهو يمر بين الزبائن في خفة ورشاقة وسأله عن الدور الذي يسكن به وحيد عبد السلام؛ فرد الصبي قائلا:

- تقصد الدكتور، الله يرحم والديه.. إنه يسكن على السطوح.

وصعد الإثنان على سلم متهالك لا يكاد يحملهما حتى وصلا إلى السطوح، وكان وحيد خارجا لتوه من دورة المياه الموجودة بمفردها على الجانب الآخر المقابل لغرفتيه.. يرتدي جلبابا مخططا وعلى وجهه منشفة يجففه بها، وما أن أنزلها من فوق وجهه الوسيم حتى

فوجيء بوجودهما أمامه؛ فتسمر في مكانه، وكأنه تحوّل إلى صنم أو تمثال..

هل ما يراه حقيقة أم حلم جاءه وهو مستيقظ؟ أخر ما كان يتوقعه في حياته أن يرى ملاكه الرقيق في هذا المكان ومن هذا الذي معها؟ لا يهم الآن.. المهم.. كيف جاءت هي إلى هنا؟ وكيف يتسنى لها أو يليق بها أن تكون هنا؟ وما الحال وقد رأتني وأنا بمثل هذا المنظر؟ بالجلباب والقبقاب وأسكن على

السطوح. نعم لقد قلت لها سابقا عن كل هذا، ولكن الذي يسمع غير الذي يرى، كيف سأستطيع مواجهتها بعد ذلك؟ بعد أن رأتني أنا أستاذها على مثل هذه الحال؟ ولكن لم لا أستفيد من هذه الفرصة وأجعلها تخدم هدفي؟ أن أجعلها تكرهني وتبعد عني كما خططت لذلك من قبل؟ ولكن ما الذي جاء بها إلى هنا وفي هذا اليوم بالذات؟

ـ كل سنة وأنت طيب يا دكتور وحيد.. اليوم عيد ميلادك.

هكذا قالت سالي، وهي تقدم له لفافة صغيرة كهدية بمناسبة عيد ميلاده وكلها أمل في أن تكسر جمود اللقاء؛ فأخذها منها دون وعى منه بأي شيء مما يجرى حوله، وببلاهة دلت على مفاجأته الشديدة وغير السارة بتلك الزيارة.

وشعر أدهم أن دوره في الحديث قد حان؛ فتنحنح بهدوء، ثم قال:

ـ المكان هنا تحفة، إنه يطل على معظم بقايا الإسكندرية القديمة، حي راغب باشا، والباب الجديد، وحي غربال، وفي الأفق غير البعيد يلوح جبل ناعسة والعامود.. يا بختك بهذا المكان.

بهذه الكلمات حاول أدهم أن يزيل حرج الشاب الذي قرأه في وجهه منذ أن رآهما، ولكن الشاب كان أكثر فطنةً وذكاءً مما توقع أدهم؛ فتكلم لأول مرة، وقال متهكما:

ـ نعم إنه مكاني المفضل، وهو بالنسبة لي أفضل من الفيللات والشقق الفاخرة التي يسكنها الأغنياء.

ونظر إلى سالي نظرة آلمتها، وكأنه وخزة دبوس قد وخزت بها؛ فقالت بلهجة جمعت بين الألم والأمل:

ـ هل علمت ما حدث لنا مؤخرا؟.. لقد سقطت العمارة التي كنا نقطن بها بلوران، وأصبحنا الآن نعيش في بيت متواضع وقديم يشبه بشكل أو بآخر المكان الذي تعيش فيه أنت.

صدمه الخبر، وأدهشه وأبدل السخط الذي بداخله بحنين وتعاطف؛ فقال بنبرة جمعت بين الاثنين:

ـ هل العمارة التي سقطت بلوران منذ عدة أشهر هي التي كنتم تسكنونها، لا حول ولا قوة إلا بالله. وهل حدث لأي منكم مكروه؟

فرحت فرحا شديدا بنبرته المتعاطفة وتهللت أساريرها، فقالت مبتهجة:

ـ الحمد لله لم يحدث لنا مكروه؛ فلقد كنا جميعا في المصيف وقت وقوع الحادث، لكن من الواضح أنك لم تبتهج بزيارتنا بدليل أن الشمس قاربت على الغروب ولم تقل لنا تفضلا.

انتبه وحيد إلى إشارتها، وخرج من شروده؛ فاضطرب وابتسم، وقال معتذرا:

ـ آسف جدا فالمفاجأتان كانتا قويتين، مفاجأة الزيارة ومفاجأة علمي بسقوط

العمـارة، تفضـلا بهـذه الحجـرة.
دخلـت سـالي ومـن خلفهـا أدهـم، وثمـة مشـاعر متناقضـة ومختلطـة اضطرمـت بداخلهـا، هـي ليسـت بحجـرة، بـل هـي أشـبه بالكهـف، إن مـن أسـماها حجـرة بالـغ كثيـرا وأعطاهـا مكانـة لا تسـتحقها؛ فهـا هـي بقايـا سـرير تحـوى مرتبتـه بداخلهـا مـن التـراب أكثـر ممـا تحويـه مـن القطـن، وهـا هـي بقايـا كنبـة قديمـة تشـعرك بالقلـق الدائـم أثنـاء جلوسـك عليهـا حيـث تتأرجـح بـك يمنـة ويسـرة؛ ممـا يعطيـك إيحـاءً بأنهـا ستسـقط بـك فـي أيـة لحظـة، وهـا هـي بقايـا منضـدة رُصّـت عليهـا بعـض الكتـب الفنيـة وكشـاكيل المحاضـرات، وعلـى الأرض فُرشـت بقايـا مـن كليـم عفـا عليـه الزمـن ولا يتضـح لـه لـون محـدد.. أمـا الجـدران الأربعـة فتطالعـك بتشـققات بالطـول والعـرض وكأنهـا خطـوط فنيـة خطـت علـى لوحـة صمـاء، وقشـور طـلاء سـقطت فصنعـت مكانهـا أشـكالا هلاميـة أخـذت تؤنـس وحـدة صاحبهـا، وخلـف البـاب الخشـبي المتهالـك ـ شـأن كل شـيء ـ توجـد بعـض المسـامير المثبتـة فـي الحائـط علـى بعـض أوراق الجرائـد تعلـق عليهـا الملابـس. الشـيء الوحيـد الملفـت للنظـر فـي هـذه الحجـرة، هـو تلـك الصـورة المعلقـة فـي بـرواز قديـم تصـوِّر الدكتـور وحيـد طفـلا، وهـو يجلـس بيـن والديـه البسـيطين، كمـا بـدا لهمـا، كانـت الصـورة ناطقـة حقـا، وتحمـل مـن المعانـي والأحاسـيس والمشـاعر مـا لا يخفـى علـى متأملهـا خصوصـا علـى أدهـم الـذي شـعر بأنهـا مصـدر الحيـاة الوحيـد فـي هـذا القبـر الـذي يسـكن فيـه هـذا الشـاب الميـت ـ كمـا بـدا لـه ـ علـى الرغـم مـن وسـامته وتقاطيـع وجهـه السـمراء الجميلـة، إلا أن الحـزن قـد أخفـى الكثيـر مـن هـذا الجمـال؛ فقـال محـاولا فتـح مجـرى للحديـث:
ـ أعتقـد أنـه لـولا وجـود هـذه الصـورة هنـا مـا شـعرت بـأن هنـاك روحـا وحيـاة فـي غرفتـك. أليـس كذلـك يـا دكتـور وحيـد؟
فتنهد وحيد تنهيدة انخلع لها قلب سالي، قبل أن يقول:
ـ لـولا وجـود هـذه الصـورة مـا شـعرت بـأن هنـاك روحـا فـي حياتـي نفسـها. حجـم الفـراغ الـذي خلفـه والـديَّ فـي حياتـي بعـد رحيلهمـا لـم يسـتطع شـيء مـلأه سـوى الألـم والحـزن، وهـذه الصـورة هـي الوحيـدة التـي تبقـت لـي منهمـا.
ـ وكيف انتقلا إلى رحمة الله؟..
سـؤال طرحـه أدهـم، ليـس بدافـع الشـغف فـي معرفـة كيفيـة وفـاة والديـه بقـدر مـا كان محاولـة لإدمـاج الشـاب معهمـا فـي الحديـث والاطمئنـان لهمـا.. ولقـد تلقـى الشـاب سـؤاله بصـدر متسـع، وكأنـه كان ينتظـره حتـى يزيـل عـن صـدره حمـلا يثقلـه فاستسـلم للحكـي وقـال:
ـ صدمتهمـا سـيارة فاخـرة يركبهـا ابـن عضـو كبيـر وثقيـل بالحـزب الوطنـي وبمجلـس الشـعب. والمفارقـة أنـه كان عضـوا عـن دائرتنـا، أي نحـن الذيـن أنجحنـاه وأوصلنـاه

لما أصبح عليه..
كان أبى يعمل شيَّالا بمحطة مصر، وأمي تبيع الخضار بالسوق المجاور لبيتنا، وبعد عودته من العمل بالمحطة مرَّ على أمي بعد العصر كعادة كل يوم ليساعدها في حمل البضاعة وإعادتها إلى البيت، وأثناء ذلك كان ابن عضو الحزب الوطني في زيارة إلى مقر بيتهم القديم في المنطقة هنا قبل أن يمن الله عليهم ويقطنوا بفيللا في سموحة، وكان يُقل معه بعض الشبان من أبناء المنطقة وأصدقائه القدامى يفسحهم بسيارته ويريهم الدنيا التي لم يروها من قبل.. كانوا يتجرعون البيرة ويدخنون الحشيش، وتصرخ أصوات الموسيقي العالية والمزعجة من نوافذ السيارة، وكان في نفس اللحظة التي كان أبى وأمي يحملان فيها أسبتة الخضار فوق رأسيهما بعد عناء يوم طويل في البيع والشراء ويعبران الشارع، صدمهما بسيارته وطيَّرهما في الهواء، فسقط الإثنان على أرض الطريق ومن حولهما خضرواتهما.. وفرَّ هاربا وفارق المنطقة بينما هما فارقا الحياة.
كان التأثر بحالة الشاب وكلامه باديا على وجه أدهم، إلا أنه كان له وقعا أشد تأثيرا على وجه وقلب سالي التي كانت تود أن تقوم وتحتضنه وتضمه إلى صدرها، وتجمّعت الدموع في عينيها الجميلتين منتظرة فرصة للنزول. فسأله أدهم بشغف لا يقل عن درجة تأثره، وقال:
- وماذا فعلت معه بعد ذلك؟
- كنت عائدا يومها من الكلية فرأيت تجمعا كبيرا أمام البيت؛ فاقتحمته لأرى ماذا حدث، فوجدت المنظر الأليم.. وعلى عكس ما توقع الكثيرون قبل مجيئي، لم تصبني حالة هيستيرية بل أصابتني حالة صمت مطبق فلم أصرخ ولم أبكِ ولم أتكلم حتى، وتمت عملية الدفن، وأخذت العزاء وأنا لا أزال صامتا.. وبعدها قررت أن أخرج من صمتي وأحاول استرداد حق والديّ؛ فحررت محضرا ضد الشاب الذي صدمهما وأبيه، ولأنه عضو مجلس الشعب وعضو الحزب الوطني، لم أستطع أن أصل معه إلى شيء أو أحصل منه على حق؛ ففوجئت بإلغاء المحضر واستدعائه لي إلى فيلته فذهبت لأرى ماذا يريد؛ فقابلني وبمنتهى الوقاحة عرض عليّ مبلغا من المال كتعويض عما فعله ابنه الطائش بوالديّ، وكأنه قد أصابهما بجرح ولم يقتلهما. وعندما رفضت وثرت في وجهه، هددني بإرسال بلطجية إليّ ليضربوني، فلم أعبأ بتهديده، وخرجت بعد أن توعدته بأني لن أسكت على حقي وحق والديّ اللذين حُرمت منهما بسبب طيش ابنه وعدم مسئوليته. وما أن وصلت إلى البيت وصعدت هنا إلى السطوح حتى وجدت جيشا من البلطجية في انتظاري، فضربوني ضربا مبرحا إلى أن أعدموني العافية وتركوني مرميا على الأرض والدموع تنهمر من عيني، والدماء تنسال من جسمي.. ولم أجد أمامي سوى السكوت حتى لا تضيع حياتي هباءً، كما

ضاعت حياة والديّ؛ فمثلي لا حياة له ولا قيمة في بلد ليس فيه صوت مسموع إلا للكبار فقط من أعضاء الحزب الوطني (الموقر!!) ومحاسيبه، ومنذ ذلك اليوم وضعت همومي وأحزاني بداخلي وأغلقت عليها.. كم أشتاق إليهما وأتعذب ليس فقط لفقدانهما وإن كان هذا صعب ولكن لأنني لم أستطع أن أرد لهما حقهما وأنتقم ممن أهدر حياتهما.. لقد كنت بالنسبة لهما كل شيء في الحياة.. شملاني بعطفهما ورعايتهما، وعلى الرغم من ظروفهما الصعبة إلا أنهما لم يبخلا عليّ يوما بأي مال أحتاجه في دراستي. كانا يقطعان من لحمهما الحي ويعطياني حتى تخرجت في الجامعة وتعينت معيدا بها، فرفع أبي يومها رأسه مزهوا وسط أهل المنطقة وظل يوزع الشربات على الناس، ويقول: ابن الشيال أصبح دكتورا بالجامعة. ابن الشيال رفع رأسي.

وانخرط في البكاء، وشاركته سالي بدموعها التي لم تجد بدا من نزولها. ورغم شدة تأثر أدهم بالموقف ورغبته الشديدة في البكاء ليخرج شحنة الشجن التي شحن بها، إلا أنه تماسك حفاظا على وقاره بينهما، ولم يتدخل ليثنيه وسالي عن البكاء، بل فضَّل أن يصمت ويتركهما ليخرجا ما بهما من طاقة حزن وشجن، وبعد قليل مسح وحيد عن وجهه دموعه، وقال متحرجا:

- أنا آسف يا جماعة. ما كان ينبغي أن أثقل عليكما بأحزاني وهمومي في أول زيارة تزوراني فيها.

فقال أدهم، وقد وجدها فرصة جيدة لكسب ثقة الشاب:

- نحن لسنا بأغراب عنك.. تستطيع أن تعتبرني أبا لك.. هذا إن لم أكن على قدر المقام..

فاتسعت عينا الشاب دهشة وقال مسرعا:

- العفو يا أستاذ، هذا شرف لي، وإن كنت لم أتشرف بالتعرف على حضرتك بعد.

هنا مسحت سالي ما تبقى على وجهها الندي من دموع، وقالت بصوت أنهكه البكاء:

- الأستاذ أدهم الكاشف، كاتب وروائي ويعمل جليسا لجدي يوسف بك المصري.

حاول وحيد أن يستوعب في عقله ما جاء في كلام سالي من أشياء متناقضة من حيث أنه كاتب وروائي وفي نفس الوقت يعمل جليسا لجدها. وسرعان ما فهم أدهم ما يدور بداخله فابتسم وقال:

- هل استغربت من الجمع بين كوني كاتبا روائيا وفي نفس الوقت جليسا لجدها؟.. لا تستغرب فأنا منذ تعرفت على تلك العائلة، وأنا أعتبر نفسي في مهمة إنسانية وتجربة حياتية ولا أعتبر نفسي في عمل لدرجة أنني رفضت أن آخذ راتبي أكثر من مرة لولا إلحاح جدها عليّ وتهديده لي بأنه سيقطع صلته

بـي إن لـم آخـذه.
فتعجب وحيد من سرعة بديهة أدهم، وقال:
ـ اسمح لـي أن أعبـر لحضرتـك عـن إعجابـي بذكائـك وفطنتـك وفراسـتك، لقـد علمـت مـا يـدور بداخلـي بالضبـط، وعمومـا لقـد تشـرفت بمقابلتـك.
حاول أدهم أن يستغل هذا الإعجاب؛ فقال دون مقدمات:
ـ الآنسـة سـالي يـا سـيدي أصـرت أن تأتـي لتطمئـن عليـك ولـم تسـتطع أن تصبـر حتـى بدايـة العـام الدراسـي، وبمـا أننـي صديقهـا الوحيـد فلـم تجـد أمامهـا أحـدا تأمنـه فـي صحبتهـا إليـك سـواي.
ظهـر الاضطـراب والقلـق علـى وجـه وحيـد، وكأنـه بوغـت بسـؤال لـم يُعـدّ لـه جوابـا، ولكـن سـالي لـم تنتظـره ليجيـب ولـم تسـتطع كتـم مشـاعرها، فقالـت بصـوت لـم يخـل مـن حـرارة:
ـ لقد أوحشتني كثيرا ولم أستطع البعد عنك أكثر من ذلك.
اختلـس وحيـد نظـرة سـريعة مـن أدهـم ليـرى وقـع هـذا الـكلام عليـه وتعجـب كيـف تتحـدث بمثـل هـذه الجـرأة أمـام هـذا الرجـل الغريـب بالنسـبة لـه علـى الأقـل، ولكنـه استشـف مـن جرأتهـا فـي الحديـث أن هـذا الرجـل بالفعـل هـو مصـدر أمـان وثقـة بالنسـبة لهـا، بدليـل قولـه أنـه صديقهـا الوحيـد وأنهـا لا تأمـن لأحـد سـواه. وللمـرة الثانيـة لـم يسـتطع أن يـرد، فـرأى أدهـم أنـه مـن الأفضـل أن يتدخـل ليقـرب المسـافات أكثـر؛ فقـال:
ـ حتـى أوفـر عليـك عنـاء التفكيـر والحيـرة فـي الـرد. لقـد حكـت لـي سـالي كـل شـيء عـن علاقتكمـا منـذ أول لقـاء بينكمـا وحتـى أخـر لقـاء، واشـتكت لـي حيرتهـا فـي تغيـرك المفاجـيء معهـا، ومـا جئنـا إليـك اليـوم إلا لنجـد إجابـات واضحـة وصريحـة عـن تلـك الأسـئلة.
حاول وحيد التملص من الحديث في هذا الموضوع بادعاء عدم الفهم؛ فقال:
ـ أنا لا أفهم عن أي شيء تسأل، وما هي الإجابات التي تريدها؟
وفهم أدهم مقصده فابتسم قائلا:
ـ دكتـور وحيـد، كمـا قلـت لـك سـابقا مـن الممكـن أن تعتبرنـي أبـا لـك وأبـا لهـا فـي نفـس الوقـت. إن كنـت بالفعـل قـد أحببـت سـالي وعلمـت أنهـا تحبـك، فمـن حقهـا عليـك باسـم الحـب أن تخبرهـا بمـا جعلـك تتغيـر تغيـرا مفاجئـا مـن ناحيتهـا، وألا تتركهـا هكـذا حائـرة ومعذبـة.
صمـت الشـاب برهـة، وترقرقـت دمعـة فـي عينيـه، واسـتغرقه التفكيـر؛ فغمـز أدهـم لسـالي بمـا يعنـي أن تسـتأذن فـي الخـروج؛ فقامـت وقالـت:
ـ هل لي أن أذهب إلي دورة المياه؟
فأفاق الشاب من شروده، وخرج من صمته وقد أصابته مفاجأتها بالحرج؛ فقال:

ـ بالطبع، ولكن عفوا انه ليس بالمكان الذى يليق بكِ.
فقالت مؤكدة:
ـ لا تقل ذلك فكلنا أبناء أدم وحواء.
وخرجت متجهة ألي دورة المياه، فالتفت أدهم إلي وحيد، وقال:
ـ ها هي التي تخجل من الحديث أمامها قد خرجت، فهل لك أن تقول لي ما هو السبب الحقيقي وراء هذا التغير؟
تعجب الشاب للمرة الثانية من فراسة أدهم ومعرفته بما يدور بداخله، ولكن العجب تبدل بشجن عندما قال:
ـ لقد تعوّدت من الدنيا علي الفراق أكثر من تعودي علي اللقاء، وعلي الفقد أكثر من الكسب، وحتى أكون صريحا معك أنا أحببت سالي أكثر من أي شيء في حياتي، وشعرت معها بأنها أمي وأختي وصديقتي وحبيبتي وكل ما لديّ في الدنيا خصوصا بعد ما أصبحت وحيدا بلا أهل ولا أحبة، ولكني اكتشفت أنها من عائلة كبيرة جدا وثرية أيضا، وعلمت أن أمها إنسانة مغرورة ومتكبرة وبالتأكيد سترفضني وستكون طامة كبري بالنسبة لي وأنا لم أعد أحتمل أية صدمات في حياتي؛ فقررت أن أبتعد عنها بإرادتي وبرغبتي لأن ذلك سيكون أهون كثيرا من أن أذهب لأطلبها من أهلها فيرفضوا.
ضحك أدهم ضحكة خفية، وقال بسعادة استغربها وحيد:
ـ والله لقد توقعت أن هذا هو السبب، ومع ذلك فالأمر والحمد لله في غاية البساطة واليسر.
استغرب وحيد من حديث أدهم؛ فسأله قائلا:
ـ ماذا تقصد؟
فقال أدهم بلهجة جادة وهادئة في نفس الوقت:
ـ دكتور وحيد.. أريد أن أطلعك على بعض أشياء خاصة بأسرة سالي أعتقد أنها ستغير من نظرتك للموضوع برمته. في الفترة الأخيرة حدثت تغيرات كبرى في مسار حياة أسرة سالي بالكامل وخصوصا أمها نازك هانم، فهي كانت كما قلت مغرورة ومتكبرة ولو كنت قد تقدمت إليها فبالفعل كانت سترفضك، ولكن الأمر الآن تغير مائة وثمانين درجة، فلقد استطعت بفضل الله أن أغيّر كثيرا من شخصيتها عن طريق مواجهتها لنفسها وكشفها أمام نفسها على الحقيقة التي كانت لا تراها أو تحاول إخفاءها. وهذا مهّدها بشكل كبير للتحول الذي جاء بعد ذلك دون تدخل مني وهو سقوط العمارة التي كانت تقطن بها وخسارتها لكل ما تملك سواء من نقود أو مجوهرات، ولم تجد أمامها بدا من أن تبدأ من الصفر، وأن تعيش في سكن متواضع وتلبس ملابس متواضعة وتأكل أكلا متواضعا وتعيش عيشة متواضعة.. كل ذلك صدمها بالواقع وكسر العالم الافتراضي الذي

كانت تعيش فيه، وجعلها مع الوقت تغير نظرتها للحياة والناس.. وحتى أشجعك أكثر أبشرك بأنه حدث شيء كان يعد في نظرنا معجزة وهو زواج ابنها طارق من ابنة عمته الفقيرة وهو الأمر الذي كانت ترفضه قبل ذلك رفضا قاطعا.

تبدلت الأحاسيس بداخل وحيد تبدلا حادا، من إحساس باليأس والقنوط - قبل مجيء أدهم - إلى إحساس بالأمل الجارف، واختلطت المشاعر بداخله اختلاطا شديدا من مشاعر بالسخط والكره إلى مشاعر بالحب العارم:

"أين كنت أيها الرجل؟ وأين كانت هذه الأخبار السارة؟ هل تتغير الأحوال هكذا بين يوم وليلة؟ هل من الممكن

أن أحيا بهذه السهولة بعد أن كنت أعيش ميتا بين الأحياء؟»

هكذا تساءل في نفسه.. شعر بأن دنيا جديدة تفتح له ذراعيها ليعيش بها حياة جديدة، وليولد من جديد، كانت الفرحة أكبر من أن يستطيع معها التعبير بالكلام ولكنه جاهد نفسه، وقال:

- أفهم من كلامك أن فرصتي في تحقيق حلمي قد أصبحت سانحة الآن؟

فقال أدهم مؤكدا:

- وأكثر من أي وقت مضى.

وفي هذه اللحظة دخلت سالي عليهما الحجرة، وهي لا تدري إلى أين وصل بهما الحديث؛ فقام وحيد وبدون أي مقدمات أمسك بيديها وقال بصوت ملأه الأمل:

- سالي.. تتزوجيني؟

أســـــــرة شهيرة

(الحـــُـــبّ)

(٣٠)

هـا هـو أدهـم يطـرق أبـواب شـخصية جديـدة مـن شـخصيات تلـك العائلـة، كان يقـود سـيارته علـى شـاطيء البحـر متجهـا إلـى كليوباتـرا، ويلفـح وجهـه نسـيم الصبـاح المختلـط برائحـة اليـود التـي يعشـقها؛ فأخـرج ورقـة صغيـرة مـن جيـب قميصـه وفتحهـا وأخـذ يراجـع بعـض المعلومـات المدونـة بهـا:

الاسم: شهيرة يوسف المصري

السن: ٣٥ عاما

الحالة الاجتماعية: متزوجة من نبيل الفنجري، صاحب شركة سياحية ولديها ابنة وحيدة تدعى ندى.

العمل: صاحبة محل كوافير «شهيرة» بشارع بورسعيد بكليوباترا.

معلومـات غيـر كافيـة لـه لقـراءة شـخصيتها ولكنهـا جيـدة لتعـارف مبدئـي يأمـل أدهـم أن يتـم بنجـاح. ركـن سـيارته بأحـد الشـوارع الجانبيـة المتفرعـة مـن شـارع بورسـعيد، وأخـذ يقـرأ لافتـات المحـلات المتراصـة علـى الجانبيـن حتـى وجـد أخيـرا لافتـة تحمـل اسـمها أعلـى أحـد المحـلات،

ولكـن البـاب الزجاجـي المغلـق، والعاكـس للضـوء لـم يعطـه أي صـورة عمـا يجـرى بالداخـل وهـل ثمـة أشـخاص موجـودون بالداخـل أم لا؛ فتحـرج أن يدفـع البـاب ويدخـل خصوصـا أنـه كوافيـر حريمـي ومـن الممكـن أن يجـرح أحـدا أو يتعـرض لإحـراج، فتحيـر مـاذا يفعـل؟ وكيـف يتصـرف؟ حتـى قـرأ لافتـة المحـل الملاصـق للكوافيـر «سـتوديو نـور» لصاحبـه نـور الديـن السـكندري؛ فقـال لنفسـه:

”لم لا أسأل صاحب هذا الاستديو هل هي بالداخل أم لا؟ وكيف أقابلها؟“

وبالفعـل ذهـب إليـه، وكان مغلقـا هـو الآخـر بـباب زجاجـي صغيـر فدفعـه ودخـل، وكأنـه تحـول مـن عالـم إلـى عالـم، ومـن دنيـا إلـى دنيا أخـرى، مـن الخـارج بضجيجه وسـياراته وحـرارة شمسـه إلـى الهـدوء والسـكينة وأنغـام الموسـيقى المنبعثـة مـن هـذا الجرامافـون القديـم، والجـو المرطـب بسـبب التكييـف، هـذا بالإضافـة إلـى معمـار المحـل القديـم وطـرازه الباقـي مـن عصـر جميـل ولـى.

نفـس الإحسـاس الـذي يحتـل وجدانـه كلمـا رأى بيتـا أو معمـارا قديمـا فـي تلـك المدينـة السـاحرة، احتلـه الآن فـي هـذا الاسـتديو، وطالعتـه براويـز كثيـرة تحيـط بصـور أغلبهـا ضاحكـة أو مبتسـمة للذيـن يصـورون هنـا. ولكـن أيـن هـذا الفنـان الـذي يسـكن هـذا العالـم؟ بالتأكيـد هـو فنـان وليـس مجـرد مصـور عـادي، هكـذا ينطـق عالمـه.

وخلـف مكتـب صغيـر وقديـم فـي آن وجـده جالسـا وبيـده كاميـرا يصلحهـا. أخـذ أدهـم يتأملـه جيـدا. رجـل وسـيم يبـدو عليـه الوقـار، ناعـم الشـعر أبيضـه، فاتـح البشـرة لـه عينـان خضـراوان تقطـران حبـا وصفـاءً وتسـامحا، فـي منتصـف العقـد الرابـع مـن

عمره أو يزيد، جسده رشيق وإن كان يميل للامتلاء قليلا.. ورغم أنه يبدو رجلا عصريا من خلال ملابسه وشاشة الكمبيوتر المفتوحة أمامه، إلا أن كل شيء فيه وحوله يذكرك بالزمن الجميل القديم.
كل هذا التأمل وهذه الخواطر دارت بخلد أدهم في اللحظات القليلة التي أتبعت دخوله إلى هذا الاستديو، أو بالأحرى إلى هذا العالم.
وقد لاحظ الرجل شرود أدهم وتأمله؛ فسأله مبتسما:
- أرجو أن يكون تصويري قد أعجبك.
انتبه أدهم لصوت الرجل الهاديء، فابتسم وقال بنفس الهدوء:
- الحقيقة أن عالمك كله قد أعجبني
تهللت أسارير الرجل بكلام أدهم؛ فتشجع قائلا:
- تفضل بالجلوس.. نوّرت الاستديو
وجلس أدهم دون تردد وقال متجاوزا رد التحية:
- إنني أعشق الإسكندرية القديمة وما تبقى منها من طرز معمارية تذكرنا بها، لذلك أخذني سحر المكان منذ دخولي، خصوصا أن سحر المكان أضيف إليه سحر الموسيقى المنبعثة من هذا الجرامافون القديم، لذلك تجدني قد انجذبت قليلا وذبت في هذا السحر.
ضحك الرجل ضحكة صافية، وقال آملا في مزيد من التقارب:
- أنا نور الدين السكندري، صاحب هذا الاستديو، أو هذا العالم - كما وصفته أنت - ورثته عن والدي عطية السكندري، وهو من أصول صوفية يقال أنها تمتد إلى ابن عطاء، والله أعلم، كان أبي قد استأجر هذا المكان وهو صغير في مقتبل العمر من أسرة يهودية كانت تملك هذه العمارة التي نحن فيها، ومع مرور السنوات وتقلبات التاريخ تملكه أبي وفتحه استديو تصوير، وعندما ورثته عنه - باعتباري وريثه الوحيد - لم أغير نشاطه رغم مكسبه القليل، خصوصا بعد التطور الهائل
الذي حدث في دنيا التصوير والكاميرات وظهور الديجيتال والموبايل. ولكنه - كما قلت منذ قليل - عالم قبل أن يكون مكانا، تربيت وتعلمت فيه، ولي ذكريات محفورة على جدرانه، ولكن الحمد لله أيضا لي زبائن كثيرون من عشاق هذا المكان، يأتون إليه ليتذكروا الماضي ويستعيدوا الذكريات.
"رجل صاف هاديء، ما إن تقابله لأول مرة وتتعرف عليه، حتى يفتح قلبه لك وكأنه يعرفك منذ زمن.." هكذا كان رأي أدهم في نور الدين، وسرعان ما تبادل معه التعارف وعرّفه بنفسه وبحياته وأهدى إليه بعض كتاباته ثم تذكر السبب الذي جاء من أجله إلى هذا المكان فاعتدل في جلسته، وقال:
- كنت أريد أن أسألك.. كيف يمكنني مقابلة مدام شهيرة صاحبة محل الكوافير

الذي بجوارك.. هل أدخل لها مباشرة أم أنها لا تأتي مبكرا؟
ظهر الاهتمام على وجه الرجل بصورة أدهشت أدهم، فتحول من صفة الهدوء إلى صفة محقق مباحث، وقال:
ـ وماذا تريد منها؟
حاول أدهم أن يكون أكثر جدية في الحديث معه؛ حتى يوحي له بأهمية الأمر فقال مؤكدا:
ـ مسألة عائلية.
لم يستطع نور الدين أن يكون أكثر تطفلا ـ على عكس رغبته ـ أمام لهجة أدهم التي أخذت شكل الحزم؛ فقال بلا مبالاة مصطنعة:
ـ شهيرة هانم لا تأتي إلا في المساء، وفي هذا الوقت تكون بالمدرسة.
توقف أدهم عند جملته الأخيرة مستغربا؛ فسأله:
ـ أية مدرسة؟
ـ مدرسة الرقص.. ألا تعرف أنها تملك مدرسة للرقص؟.. ألست من عائلتها؟
حاول أدهم التغلب على دهشته تجنبا لإثارة تساؤلات الرجل؛ فقال:
ـ الحقيقة أننا لم نتقابل منذ زمن ولا أعرف تطورات حياتها، ولكن ما عنوان هذه المدرسة؟
ـ الحقيقة أنا لا أعرف عنوانها بالضبط ، ولكن بسيطة...
ورفع سماعة التليفون الأرضي وطلب رقما، وانتظر قليلا حتى رد وقال:
ـ آلو .. كيف حالك يا عبده.. أنا عمك نور الدين، هل لك أن تأتي إلىّ للحظة؟
وبعد أن وضع السماعة قال لأدهم:
ـ الآن نعرف لك العنوان بالتحديد من عبده، مساعد شهيرة هانم.
وما هي إلا لحظات حتى دخل عبده، شاب في بداية العقد الثاني من عمره، أسمر اللون، ليس بالطويل ولا بالقصير، ولكنه نحيف نحافة لا تخفى على ناظر، تبدو على ملابسه البساطة والفقر، ويبدو من طريقة تصفيف شعره وحلاقته أنه من منطقة شعبية، حيث يحلق شعره من الجانبين ويفرقه من المنتصف، وله شارب صغير وخفيف، ولكن رغم وسامة وجهه ـ القليلة ـ لا يعلم أدهم لماذا شعر بأن الهم يسكن قسماته وخليط من الحزن والشجن والكآبة أيضا تطل من عينيه، هي قراءة سريعة تكشفت لأدهم منذ أن رآه أمامه.
ـ تحت أمرك يا عم نور.
هكذا قال عبده بلهجة شعبية أكدّت لأدهم تصوره عنه، فقال نور الدين مشيرا إلى أدهم:
ـ الأستاذ أدهم يريد معرفة عنوان مدرسة شهيرة هانم.

نظـرة قلقـة رآهـا أدهـم تتراقـص فـي عينـي الشـاب لـم يسـتطع أن يفهـم مصدرهـا، فسـأله الشـاب بنبـرة لـم تخـلُ مـن جفـاء وازدراء:
ـ وماذا تريد منها؟
نفس السؤال الذي سأله نور الدين، ونفس الإجابة أيضا جاءت من أدهم:
ـ مسألة عائلية.
وجـد الشـاب نفسـه مضطـرا لأن يخـرج مـن جيبـه كارتـا صغيـرا ويمـد يـده لأدهـم، مسددا نحـوه نفس النظـرة القلقـة، وبصـوت لـم يخـلُ مـن غضـب مكظـوم قـال:
ـ هذا الكارت به العنوان والتليفون.
بعدهـا خـرج أدهـم مـن الاسـتديو، وهـو يوقـن أن هـذا الرجـل وهـذا الشـاب لهمـا دوران مهمـان فـي حيـاة شـهيرة.

(٣١)

كان يشـعر وهـو يضغـط بسـبابته علـى جـرس البـاب أنـه يـدق ثانـي بـاب فـي تجربتـه المثيـرة مـع شـهيرة، والتـي بـدأت بمقابلتـه بنـور الديـن وعبـده، الشـخصيتين اللتيـن شـعر أدهـم ـ رغـم قصـر اللقـاء ـ أنهمـا يشـكلان ثقبيـن مـن الممكـن أن ينفـذ مـن خلالهمـا ليكتشـف أسـرارا كثيـرة فـي حيـاة شـهيرة.
فتحـت البـاب فتـاة، بـدت متفجـرة الأنوثـة علـى الرغـم مـن صغـر سـنها، كانـت ترتـدي مـن الملابـس مـا يُظهـر مـن مفاتنهـا أكثـر ممـا يُخفـي.
وبروح المغامرة والرغبة الشديدة في اكتشاف المجهول، جاء سؤال أدهم:
ـ مدام شهيرة موجودة؟
وإلى غرفة فسيحة أدخلته الفتاة وتركته يتأملها، وذهبت لتخبر الهانم بمجيئه.
أول مـا لفـت نظـره بـرواز كبيـر يتصـدر الغرفـة يحيـط بصـورة كبيـرة لامـرأة فاتنـة وجميلـة ذات شـعر هائـج يحيـط برأسـها، جـاءه خاطـر أن تكـون هـذه صـورة لشـهيرة ولكنـه اسـتبعد هـذا الخاطـر لأنهـا أقـرب إلـى صـور الفنانـات أو الراقصـات، ولـم يتوقـع أن تكـون صـورة لابنـة مـن أبنـاء يوسـف بـك، وأختـا لسـلوى ذات الحـال المتواضـع، وفـي أثنـاء تأملاتـه التـي لا تتوقـف وهـو يتفحـص الغرفـة ومكوناتهـا كانـت تترامـى إلـى مسـامعه أصـوات موسـيقى راقصـة وصـوت مدربـة تلقـي بتوجيهاتهـا إلـى مـن يرقصـن أمامهـا، ثـم توقـف صـوت المدربـة عـن الـكلام فتوقـع أن الفتـاة أوقفتهـا لتخبرهـا بزيارتـه، ولكـن هـل بالفعـل شـهيرة هانـم ابنـة العائلـة الموقـرة هـي مدربـة الرقـص هنـا؟..
ومـا هـي إلا لحظـات حتـى كانـت الإجابـة بــ «نعـم» متجسـدة فـي صـورة شـهيرة هانـم بشـحمها ولحمهـا، وكأن الصـورة التـي بالبـرواز قـد قفـزت ووقفـت أمامـه؛

فتأكـدت ظنونـه وأجيبـت كل تسـاؤلاته..
بالفعل شـهيرة يوسف المصري، هـي هي مدربـة الرقص هنـا، وهـي هي صاحبـة تلـك الصـورة الفاتنـة التـي تشـبه صـور الفنانـات والراقصـات، إنهـا إذن شـخصية مختلفـة بالتأكيد تحمـل وراءهـا حكايـات مختلفـة، وتسـاءل فـي نفسـه، وقـال:
"الآن وقـد أصبحـتَ أنـتَ وشـهيرة وجهـا لوجـه، فمـاذا أنـت بفاعـل؟ ومـاذا أنـت بقائـل؟ ومـا هـو المدخـل المناسـب للحديـث معهـا لأول مـرة؟"
خصوصـا، وقـد بوغـت بأنهـا شـخصية تختلـف عمـن قابلهـم مـن قبـل، فحـاول فـي هـذه الثوانـي المعـدودة أن يلتقط أي طـرف لخيـط معتمـدا علـى قـدرة عقلـه وسـرعة بديهتـه التـي مـا خيّبـت مـرة رجـاءه. وبالفعـل كانـت ثقتـه فـي محلهـا، ومـا أن شـعر بـأن عقلـه قد اسـتجاب لـه حتـى ابتسم ابتسـامته اللامعـة، وقـال وهـو يمد يـده مصافحـا إياهـا:
ـ أهلا بالمرأة اللغز..

(٣٢)

لـم تـدرِ شـهيرة كيـف وافقـت، ولـم يـدر أدهـم كيـف اسـتطاع أن يجعلهـا توافـق.. كل مـا كانـا يدريـان بـه هـو أنهمـا الآن يجلسـان معـا علـى منضـدة واحـدة بفنـدق سـان جيوفانـي الصغيـر الـذي يطـل علـى شـاطيء سـتانلي، يشـربان الليمـون البـارد..
هـل هـو سـحر شـخصية أدهـم التـي لا تقـاوم، أم هـي رغبـة شـهيرة فـي سـماع مـا يعلمـه عنهـا أدهـم مـن أسـرار؛ فلقـد أصـاب عندمـا مـال عليهـا عنـد لقائـه بهـا فـي مدرسـة الرقـص، وهمـس فـي أذنهـا قائـلا:
ـ أريـد أن أحدثـك فـي أمـور عائليـة وشـخصية تخـص أبـاكِ يوسـف بـك وجـارك نـور الديـن ومسـاعدك عبـده.
وكمـا توقـع أدهـم وقتهـا، صُعِقـت شـهيرة واندهشـت دهشـة لـم تسـتطع أن تفيـق مـن سـطوتها إلـى تلـك اللحظـة، والتـي تحـت تأثيرهـا قادهـا أدهـم إلـى هـذا المـكان دون أي رد فعـل رافـض منهـا..
نجـح أدهـم كعادتـه فـي نسـج خيـوط شـبكة قويـة وأحـاط شـهيرة بهـا، خيـوط لثلاثـة رجـال رأى أدهـم أنهـم يشـكلون رابطـة قويـة فـي حياتهـا.
كانـت تجلـس أمامـه صامتـة لا تتكلـم، ولكـن كل ذرة فـي كيانهـا تسـتحثه أن ينطـق، تريـد أن تسـأله: «مـن أنـت؟ ومـن تكـون؟ وكيـف عرفتنـي؟ ومـا علاقتـك بأبـي؟ وكيـف عرفـت نـور الديـن وعبـده؟ ولمـاذا اخترتهمـا بالـذات؟..»
أسـئلة كانـت تنطـق بهـا ملامـح وجههـا.. أمـا عـن أدهـم فكانـت ابتسـامته الهادئـة الواثقـة لا تبـارح وجهـه، وكان يتأمـل سـكونها وصمتهـا ولا يخفـى عليـه مـا يـدور

ويضطرم بداخلها، ولا يدري لماذا شعر برغبة شديدة في تأمل وجهها وكأنه لم يره إلا في تلك اللحظة فقط..
وعندما بدأت عيناه المتقدتان في تأملها حتى شعرت بازدياد اضطرابها، فأخذت تبحث داخل حقيبتها بعصبية عن علبة سجائرها، وأخرجت واحدة وأشعلتها وأخذت تدخن وتنفث الدخان باضطراب وعصبية واضحة.
أما عن أدهم فما زالت عيناه تتأمل وجهها وتتفحصه، وأخذ يسأل نفسه ويقول:
"ما حكاية تلك المرأة؟ إن وجهها ينطق بالبؤس والحرمان رغم كل محاولاتها في إخفاء ذلك، سواء بهذا الشعر الهائج (الكنيش) أو بالمساحيق التي تغرق فيها ملامحها، إلا أن بؤسها وحرمانها لا تستطيع إخفاءهما خصوصا عن أعين خبيرة مثلي، خبر الدنيا وخبر النساء، ولكن على الرغم من هذا البؤس الذي يسكن ملامحها، وعلى الرغم من سُمرة بشرتها إلا أنها تعطيها سحرا وفتنة يجعلانها محط أنظار كثير من الجائعين، ولكن هل يوجد جوع كجوعها الذي ينطق به وجهها وتفسره عصبيتها التي تجعلها لا تستطيع الجلوس أمام رجل قوي الشخصية يتأملها ويتفحصها"
وفجأة وبعدما وصلت إلى ذروة اضطرابها، والتي لم تستطع عندها تملك أعصابها انفجرت فيه قائلة:
- لم أعد أستطيع تحمل نظراتك وهي تتفحصني هكذا.. هلا أخبرتني من أنت؟ وماذا تريد مني بالضبط؟
اعتدل أدهم في جلسته، وتأهب للمهمة، وقال:
- اسمي أدهم الكاشف، أعمل مساعدا لأبيكِ وجليسا له، وهذه هي مهمتي الأساسية، أما مهمتي الأخرى معه فهي مهمة إنسانية أخذتها على عاتقي، وهي أن أجمع
حوله شمل العائلة كلها مرة أخرى، وهذا أحد أسباب مقابلتي لكِ.
كان الذهول هو سيد الموقف بالنسبة لشهيرة التي حاولت استيعاب أن يكون هذا الرجل بشخصيته الساحرة يعمل جليسا لأبيها، وأيضا تلك المهمة التي يسميها إنسانية وهي جمع شمل العائلة حول أبيها مرة أخرى.
"ما علاقته بها؟ ومن وكله بذلك؟ وهل قابل أحدا من عائلتي قبلي؟ وماذا عرف عنهم؟ وماذا يعرف عني؟ وكيف يمكن لغريب عنا أن يجمع شملنا مرة أخرى؟ إن جميع الخيوط التي تربطنا بأبينا من ناحية، وببعضنا كأخوة من ناحية أخرى، بل الخيوط التي تربطنا بأسرنا وأنفسنا كلها متهالكة، بل تكاد تكون ممزقة.. كيف سيمكن إصلاحها حتى يجتمع الشمل مرة أخرى"
أسئلة كثيرة تدفقت على رأسها، قطعتها أيضا بسؤال:
- منذ أن قابلتك والأسئلة تتولد بداخلي بلا توقف وبلا إجابات أيضا، إنني لا

أفهمـك.. مـا علاقـة أن تعمـل عنـد والـدي جليسـا وأن تحـاول جمـع شـمل العائلـة حولـه؟
فابتسم أدهم قبل أن يقول:
ـ أسـئلتك طبيعيـة وكل إجاباتهـا عنـدي... الموضـوع باختصـار أننـي قبلـت العمـل عند والـدك كوسـيلة لقتـل فراغـي، ولكننـي مـع الوقـت ارتبطـت بـه روحيـا وعرفـت قصتـه مـع أولاده، وكيـف أنـه يعانـي كثيـرا مـن فقدانهـم مـن حولـه، وأنهـم لـو عـادوا إليـه لعـادت صحتـه وعافيتـه.. هـذا مـن ناحيـة، أمـا مـن الناحيـة الأخـرى فهـي أننـي وجـدت مـن خـلال تجربتـي مـع أفـراد تلـك العائلـة أن لـو جميـع بيوتنـا بهـا هـذا التفسـخ فإننـا بهـذا نصبـح أمـة فـي خطـر حقيقـي، لأن أهـم مـا يميزنـا كأمـة عـن العالـم أجمـع ـ وقـد عشـت كثيـرا بالخـارج ورأيـت هـذا ـ هـو العائلـة والأسـرة والارتبـاط الموجـود بيننـا، وهـو مـا لـم أجـده فـي هـذه العائلـة منـذ أن دخلـت بيـن أفرادهـا.
لـم يكـن كلامـا كبيـرا أو صعبـا علـى فهـم امـرأة كشـهيرة، تبـدو للعيـان أنهـا امـرأة لا تعيـش سـوى للمظاهـر أو للحيـاة الماديـة، بـل إنـه مـن صميـم مـا كـان يـؤرق فكرهـا وحياتهـا ولا يـزال، وهـو مـا أكدتـه تلـك التنهيـدة التـي نـدت عـن صدرهـا بعـد سـماعها لمـا قالـه أدهـم، فعلـم أنـه أصـاب فتشـجع قائـلا:
ـ الإنسـان منـا لا يسـتطيع أن يحيـا بمفـرده. إننـا كفـروع لشـجرة كبيـرة وهـي العائلـة، لا يسـتطيع فـرع منهـا أن ينـال غـذاءه ولا أن يحتفـظ باخضـراره ورونقـه إذا انقطـع أو انفصـل عنهـا، وهـذا سـر قوتنـا كأمـة، يولـد الفـرد منـا وسـط عائلـة يسـتمد منهـا إحساسـه بالأمـان والقـوة والسـند والحمايـة ويظـل يعيـش فـي ظلهـا الـوارف حتـى بعـد أن يكبـر ويعمـل ويتـزوج ويضيـف إليهـا فروعـا جديـدة وزهـورا تتفتـح مـن غذائهـا وشـريانها.. ولكـن مـن الـذي أفسـد علينـا تلـك النعمـة؟ نعمـة العائلـة والأسـرة المترابطـة؟ أي قيـم اقتحمـت حياتنـا فجعلـت كل منـا يعيـش منعـزلا وكأنـه فـي جزيـرة منفصلـة عـن باقـي أسـرته وباقـي عائلتـه؟ مـن الـذي اجتـث الفـروع مـن الأصـول؟ مـن الـذي مـزق خيـوط التواصـل بيـن العائلـة الواحـدة والأسـرة الصغيـرة الواحـدة، ففقـدت الفـروع اخضرارهـا وقوتهـا وعنفوانهـا وتسـاقطت أوراقهـا الخضـراء وأخـذت فـي الذبـول يومـا تلـو الآخـر.. هـذا مـا جعلنـي أحمـل علـى عاتقـي مهمـة جمـع شـمل عائلتـك وربطهـا بجذورهـا مـرة أخـرى.
كان الإحسـاس الـذي يـراود شـهيرة فـي تلـك اللحظـة، هـو ذلـك الإحسـاس بالأمـان الـذي كان يـراود الغريـق عندمـا يـرى سـفينة تلـوح لـه مـن بعيـد.. تشـعر أن أدهـم يمثـل هـذه
السفينة التـي تلـوح لهـا وهـي غارقـة فـي بحـر حياتهـا، وعلـى الرغـم مـن أن السـفينة لا تـزال بعيـدة ولـم تقتـرب منهـا إلـى الحـد الـذي تسـتطيع انتشـالها مـن هـذا الغـرق إلا أنهـا شـعرت باطمئنـان لا بـأس بـه؛ فاستسـلمت لهـذا الشـعور وحاولـت أن تسـتجيب

لحوار أدهم دون عصبية أو اضطراب؛ فقالت:
- ولكن أبي هو السبب في فرقتنا وتمزقنا، هو الذي أوصلنا لتلك المرحلة عندما حرمنا من ممارسة ما نحبه في حياتنا، وفرض علينا ما يراه هو فقط في صالحنا دون أن تكون لنا إرادة أو رأي؛ فتسبب في هجر زوج سلوى لها، وأفسد علاقة سلوى بأسرة فريد بسبب رفضهم لزواج طارق من ابنتها، وتسبب في حرماني من الشخص الذي كنت أعشقه، وتسبب في طرد أخي بلال من البيت لطيشه الطبيعي لمن في مثل سنه، بعد كل هذا كيف يمكن لنا أن نجتمع؟
شعر أدهم أن كثيرا من الأمور بدأت تتضح، وأن عليه تحليل تلك الفقرة السابقة معها سطرا بسطر، ولكنه وحتى يشجعها ابتسم ابتسامة واسعة وقال:
- من الواضح أنكِ لا تعلمين أي شيء عن أحوال عائلتك الجديدة، لذلك لن تصدقيني بسهولة عندما أخبرك بأن كل شيء قد تغير عما كان عليه؛ فأبوكِ ما فعل هذا معكم إلا بعدما علم بأن فريد قادته زوجته لرفع قضية حجر عليه، اشتركتم فيها جميعكم بعد ذلك، لبيع الفيلا وبناء برج سكني حديث مكانها، ولأن المحامي صديقه فأخبره بتلك الواقعة فاتخذ ضدكم هذا الموقف وطالبكم بالاعتماد على أنفسكم ومواجهة الحياة بمفردكم حتى تُخبَروها وتروها كيف تسير. وأظن أن كل تلك السنوات الماضية منذ فراقكم جعلتكم تلمسون الفرق بين أن تعيشوا معا في ترابط وتماسك، وبين أن تجتث فروعكم من شجرة عائلتكم مما عرضكم جميعا للجفاف..
أما عن سلوى وعاصم فلقد عادا إلى بعضهما ويعيشان الآن معا في فيلا العائلة، وأما عن طارق ونهى فلقد تزوجا وينتظران الآن فرعا جديدا سيضاف إلى شجرتكم بعد شهور قليلة.. أما المفاجأة الأكبر فهي أن نازك وفريد يعيشان الآن أيضا في بيت العائلة وتحت رعاية يوسف بك.
منذ أن قابلت شهيرة هذا الرجل والاندهاش لا يفارق ملامحها. «إن ما قاله الآن حكاية لا تُسمع إلا من فم شهرزاد في ليلة جديدة من ليالي ألف ليلة وليلة».. وأخذت تعيد بعض العناوين في عقلها.. «سلوى وعاصم يعيشان معا ببيت العائلة.. طارق ونهى تزوجا وينتظران مولودا، ونازك وفريد يعيشان في بيتنا القديم»
كان أدهم يتابع اندهاشها باستمتاع كبير حتى استطاعت أن تستفيق من دهشتها، وتبتسم قائلة:
- وهل أنت من صنعت كل تلك المعجزات؟
فابتسم وقال:
- بمنتهى التواضع.. نعم
فتأملته بملامح من ينظر إلى بطل خارق، وقالت:

ـ إذن فأنت رجل عظيم.
فضحك أدهم ضحكة عالية، وقال:
ـ قديمة..

(٣٣)

هـذا هـو لقـاؤه الثانـي بشـهيرة، ولكنـه لـم يكـن بسـان جيوفانـي، ولا بالإسـكندرية كلهـا، بـل كان علـى بحيـرة قـارون بالفيـوم، بعـد مـا طلبـت منـه أن يصحبهـا فـي رحلـة تنظمهـا للفتيـات اللاتـي تعلمـن عندهـا الرقـص بمدرسـتها احتفـالا بانتهـاء مـدة تلقيهـم دورات التدريـب معهـا، أي أنهـا أشـبه باحتفـال تخـرج تحـرص بـه علـى أن تطبـق هـذا التقليـد مـع كل الفتيـات اللاتـي يتدربـن ويدرسـن عندهـا.
كان أدهـم سـعيدا جـدا بالتجربـة التـي يعيشـها معهـا الآن، وكانـا يتمشـيان معـا علـى شـاطيء البحيـرة والفتيـات يرقصـن معـا رقصـات جماعيـة مـن خلفهمـا، فنظـر إلـى البحيـرة متأمـلا، وقـال:
ـ نحـن البشـر نحتـاج دائمـا إلـى أمـواج تجربـة تحـرك ركـود حياتنـا وتجددهـا كمـا تحتـاج البحيـرات إليهـا، وإلا تعفنـت وتكونـت بهـا الفطريـات كمـا يحـدث أيضـا فـي البحيـرات الراكـدة.
ابتسـمت وهـي تتأمـل معـه البحيـرة وتتأمـل مـا تولـده كلماتـه بداخلهـا مـن صـور، وقالـت:
ـ تعجبنـي فلسـفتك وتشـبيهاتك، بالفعـل أنـت محـق فـي كل مـا تقـول، ولكنـي أشـعر أحيانـا بشـعورين متناقضيـن فـي حياتـي، شـعور بركودهـا الممـل وبـطء سـيرها العنيـد، وشـعور آخـر بأمواجهـا العاتيـة والتـي تـكاد قوتهـا أن تقصمنـي، وبيـن الشـعورين أعيـش حياتـي.
ـ هنـاك الكثيـر مـن أمـور حياتـك مـازال غموضهـا يشـغل بداخلـي الرغبـة في كشـفها، لقـد ذكـرت لـي مـن قبـل أن أبـاك حرمـك مـن الأشـياء التـي تحبيـن ممارسـتها مثـل رقـص الباليـه علـى مـا أتذكـر، وهيـيء لـي أن هنـاك رابطـا مـا بيـن حبـك القديـم للباليـه، وبيـن مدرسـة الرقـص الحديـث الخاصـة بـكِ، فهـل أصبـت فـي ذلـك؟
ـ أنت دائما ما تصيب يا أدهم.
هكـذا قالتهـا دون ألقـاب ،كنـت منـذ صغـري أحـب الباليـه وأتمنـى أن أتعلمـه، وعندمـا أخبـرت أبـي بذلـك نهرنـي بشـدة، بـل وضربنـي، وقـال لـي: «أنـا لا أوافـق علـى أن تكـون ابنتـي راقصـة»، وحاولـت أن أفهمـه أنـه رقـص راقـي، وليـس كالرقـص الـذي يظنـه أو يتخيلـه، ولكنـه أبـى أن يفهـم أو حتـى يتنـاقش، ورفـض أن تكـون لـه ابنـة

تمارس الرقص تحت أي مسمى أو مصطلح، ورضخت لأوامره، وكنت كلما كبرت عاما شعرت بأنني سجينة ومقيدة ويراودني إحساس بالانطلاق كالذي تشعر به راقصة الباليه وهي ترقص كفراشة تسبح في فضاء لا يحده حد. وما أزاد من إحساسي بالكبت والضغط عندما رفض أبي الشاب الوحيد الذي أحببته في حياتي، وكان مدرب الباليه الذي كان يتابعني قبل أن يكتشف أبي هذا الأمر، ويمنعني عنه، وكانت حجته أنه غير كفء لتحمل مسئولية باعتباره مدربا للرقص والخلاعة.. وكما حرمني من ممارسة ما أحبه حرمني أيضا ممن أحببته حتى شعرت بأن حياتي لابد وأن تنتهي.. وحاولت الانتحار أكثر من مرة، ولكني لم أفلح، وفي هذا الوقت ظهر أمامي شاب آخر ـ زوجي الحالي ـ وظل يطاردني في كل مكان، ومع أني لم أحبه ولم أشعر ناحيته بأي عاطفة إلا أنني وجدته فرصة عظيمة للهروب من بيت أبي الذي لم أطقه. وتقدّم لي بناء على موافقتي وعلى الرغم من أن أبي كان لا يقبل أي عريس فقير إلا أنه وافق عليه لإحساسه بأنه لابد وأن يزوجني حتى يطمئن عليّ ويرتاح من أفعالي الجريئة والمتمردة، وأيضا لإعجابه بطموحه الشديد الذي يتمتع به، وتزوجت وأغلقت صفحة الماضي السوداء، ولكني اكتشفت أنني كنت أفتح صفحة جديدة لا تقل عنها سوادا، كان أول سطر فيها هو أنني تزوجت رجلا لا أحبه.

ـ وكيف سارت علاقتك بزوجك وأنت لا تحبينه؟

ـ في البداية كنت سعيدة لهروبي من بيت أبي، ولخروجي من نطاق سيطرته على حياتي، وحاولت أن أحب زوجي وأن أتأقلم على حياتي الجديدة معه، ولكني مع الأيام اكتشفت أنه هو الآخر لا يحبني، ولم يتزوجني لأنه أحبني رغم كل مطارداته لي، واكتشفت أنه شخصية وصولية كان يريد الارتباط بابنة أحد الشخصيات الثرية والتي لها اسم كبير، حتى يثبت بذلك أقدامه في تلك المدينة الكبيرة التي جاء إليها مهاجرا من إحدى قرى الصعيد، ويفسح لنفسه ولمستقبله مكانا بها بانتسابه إلى عائلة كبيرة بالتأكيد لها صداقات بعائلات كبيرة مثلها، وهذا ما كان يسعى إليه وناله بالفعل.

ـ وهل ساعد وجود أولاد بينكما في تقريب المسافات.. أنا أعلم أن لكما ابنة تدعى ندى، وهي الآن طالبة جامعية.

هنا التفتت شهيرة ناحيته التفاتة حادة، وكأنها قد طُعنت بخنجر في قلبها، وتلألأت الدموع في عينيها وقالت:

ـ أنا لا أنجب.

وتركته وانصرفت.

(٣٤)

كانت مفاجأة شديدة ولّدت بداخله أسئلة كثيرة عن تلك المرأة وعن حياتها، وحاول جاهدا أن يبحث لها عن إجابات.

كان الأتوبيس عائدا بهما إلى الإسكندرية، والشمس تودع السماء بأخر شعاع لها، وجاءت جلسة أدهم بجوار شهيرة كما كان الحال أثناء ذهابهما في الصباح.

ومنذ انطلاق الأتوبيس والصمت هو سيد الموقف ليس فقط بينهما بل بين الجميع، حيث استسلمت الفتيات للنوم بعد قضاء يوم ممتع وشاق، أما شهيرة فكان منظر الغروب في الصحراء المترامية قد سلب منها إحساسها وجعلها تنطلق بخيالها في آفاق بعيدة ساعدها اتساع الصحراء على بلوغها، وطوال تلك الفترة كان أدهم ينتظر الفرصة المناسبة لاستئناف الحديث بينهما ولمواصلة اكتشاف شخصيتها وما تحمله من أسرار وحكايات، وشعر أن الفرصة قد حانت فقرر استغلال تأثرها بمنظر الغروب الفاتن، وقال:

- من يتأمل منظر الشمس الآن وهي ضعيفة ومنكسرة ومستسلمة للموت والانطفاء يتعجب من كونها هي نفس الشمس التي كانت تلهب رؤوسنا وتكوينا بنارها عندما كانت في عز توهجها وذروة جبروتها في قلب النهار..

ألا تخشين أن تنطفيء شمس عمرك ويخفت توهجها وتميل نحو الغروب إذا استسلمتِ للضعف والانكسار؟

وكما استسلمت الشمس للغروب، استسلمت شهيرة لكلام أدهم بسرعة لم يتوقعها؛ فقالت بابتسامة ساخرة تسبق كلامها:

- لقد غربت شمس عمري منذ سنوات، وأنا الآن أعيش في ليل مظلم حالك السواد، لا فيه قمر يضيء ولا نجوم تهدي.

- دعيني أساعدك على إخراجك منه، أو على الأقل أضيء لكِ شمعة فيه.

- لن يستطيع إنسان أن يخرجني منه لأنه قدر، والقدر لا يتغير.

شعر أدهم بالتحدي يطرق أبوابه؛ ففتح له مرحبا، وقال:

- بالفعل القدر لا يتغير، ولكننا نستطيع تغيير أنفسنا.

- كيف؟

- أولا بالفضفضة وإخراج كل ما تحمله النفس من أعباء وهموم وأسرار(بشرط إختيار من هو محل ثقة) ، وهذا يؤهلك للخطوة الثانية وهي التفكير بشكل سليم في الخطوات التي تجعلك تتخطين أي عثرة أو مشكلة تؤرقك في حياتك، والتي من المستحيل أن تفكري في حلها، وأنتِ تتحملين كل هذه الأعباء بداخلك.

لم يفعل أحد من قبل ما يفعله معها أدهم الآن، ولذلك هي لم تستسلم لأحد من قبل كما استسلمت لأدهم الآن، لدرجة جعلتها تسأل نفسها وتقول:

”ماذا يمكن أن تكون عليه حياتي لو لم يظهر أدهم فيها؟ إن لديه قدرة عجيبة تجعلك تستسلم له منذ أول لقاء يجمعك به، ولا تشعر أبدا بأنه غريب عنك، بل تشعر وكأنك تعرفه منذ فترة طويلة، كما أن لديه فراسة قوية تجعله يشعر ويستشف ما يدور بداخلك من مشاعر وأحاسيس وما يدور بعقلك من أفكار، يستطيع قراءة من أمامه بسهولة.. إنه رجل مليء بالخبرة ومليء بالحياة»
كان أدهم يراقب حالة الصمت المتأمل المسيطرة على شهيرة في تلك اللحظة، ويحاول أن يجرها شيئا فشيئا نحو ما يريد معرفته؛ فقال بتودد ولطف:
ـ عندي بعض أسئلة بخصوصك تحاصرني ولا أستطيع الفكاك منها.
وفجأة فتحت شهيرة حقيبتها وأخرجت منها أجندة زرقاء، ثم التفتت إليه، وقالت:
ـ هذه الأجندة بها إجابات على كل الأسئلة التي تراودك عني، إنها مذكراتي.

(٣٥)

بهدوء وحذر دخل أدهم غرفة مكتبه وأغلق عليه الباب، وعلى «شيزلونج» قريب من المكتب جلس وفرد جسده عليه وأضاء أباجورة صغيرة بجواره بدلا من إضاءة نور الغرفة تجنبا للفت نظر زوجته لجلوسه بالداخل؛ حيث كان يريد ألا يعطله أحد عن الغرق بين صفحات تلك الأجندة التي كان يحملها بين يديه وبداخله شعور بأنه يحمل كنزا ثمينا سيمكنه من التغلغل داخل أعماق المرأة التي حيرته بغموضها وتناقضاتها..
أخيرا سيجد إجابات على كل التساؤلات التي عذبته وأرقت عقله وتفكيره.
وضع النظارة الطبية فوق عينيه اللامعتين، وبسمل في سره وفتح أولى صفحات الأجندة لتصطدم عيناه بعنوان كبير في منتصف الصفحة وهو «امرأة من ثلج»، ثم وجد نفسه يغلق الأجندة ويكرر العنوان في سره عدة مرات، وفي كل مرة يحاول أن يتأمله ويتأمل ما يولده في عقله من صور وتشبيهات استسلم لها عدة دقائق، وأخذ يتساءل حول معنى هذا العنوان، وعن سبب اختيار شهيرة له؟ وهل هو تجسيد لأحاسيسها ومشاعرها الداخلية؟ وهل هو انعكاس لصورتها التي ترى نفسها عليها؟
ثم انتبه من شروده الذي انخرط فيه فقط من مجرد قراءة العنوان؛ فأعاد فتح الأجندة مرة أخرى بفضول وصل لحد الذروة آملا في اكتشاف المزيد من الأسرار والتناقضات الموجودة بداخل الشخصية الإنسانية المتمثلة في تلك المرأة؛ فقلّب الصفحة التي بها العنوان حتى أصبح وجها لوجه أمام أول يوم قامت شهيرة فيه بتدوين مذكراتها والتي لاحظ أنها لا تدونها بالأيام والتواريخ، ولكنها فقط تكتب في أعلى الصفحة عبارة «يوم من الأيام»، وهذه كانت أول

صفحـة مـن صفحـات

"امرأة من ثلج"

الصفحة الأولى - يوم من الأيام

"لا أحـب أن أسجل مذكراتـي تحـت اسم يـوم أو شـهر أو سـنة، وذلـك لشـعوري بـأن كل الأيـام فـي حياتـي أصبحـت واحـدة ومتكـررة، ولا يوجـد بهـا جديـد، اليـوم مثـل الأمـس، وغـدا مثـل بعـد غـد.. كثيـرا مـا يراودنـي شـعور بـأن الحيـاة قـد توقفـت عنـدي وأن جـذوري انقطعـت وانفصلـت عـن الحيـاة فتوقـف تدفقهـا فـي عروقـي حتـى ذبلـت أوراقـي وأخـذت تتسـاقط يومـا بعـد يـوم.

ولقد أسميت هـذه المذكـرات باسم وجدتـه خير تعبيـر عمـا أشـعر بـه، حيث دائمـا مـا أشـعر بأنـي امـرأة مـن ثلـج جرّدهـا الزمـان مـن كل رداء يحميهـا، وألقاهـا عاريـة تحـت شـمس حاميـة ومتوهجـة أخـذت تذيبهـا يومـا تلـو الآخـر، وحتـى الآن لـم تجـد مـن يظللهـا ويحميهـا مـن تلـك الأشـعة التـي شـارفت علـى إذابتهـا والقضـاء عليهـا.. لقد قضيت عمـرا طويـلا أنتظـر - فـي أثنـاء ذوبانـي - ظهـور سـحابة ولـو صغيـرة تظلنـي وتمنـع أشـعة الشـمس الحارقـة عنـي حتـى أعـوض شـيئا ممـا ذاب منـي وانصهـر، ولكـن حتـى الآن لـم تظهـر تلـك السـحابة، ولـم تتوقـف الشـمس عـن إذابتـي وأصبحـت لا أدري مـا مصيـري..

اليـوم اسـتيقظت مـن النـوم بعـد الظهـر، وهـذا لا يحـدث عـادة كل يـوم، ولكـن اليـوم اسـتثنائي حيـث أجازتـي مـن مدرسـة الرقـص. كنـت وحـدي بالبيـت بعـد نـزول نـدى إلـى الجامعـة.. صنعـت قهوتـي التـي أتناولهـا بـدون إفطـار وجلسـت أمـام شاشـة الكمبيوتـر، وفتحـت الانترنـت لأرى أخـر الرسـائل المرسـلة إلـيّ عبـر البريـد الالكترونـي، والتـي عـادة مـا تكـون مـن شـخص واحـد أجهلـه شـكلا، ولكننـي مـع الوقـت ارتبطـت بـه روحـا لدرجـة أنـي لـم أعـد أتخيـل أن يمـر يـوم لا أتحـدث معـه فيـه. والغريـب أن هـذا الارتبـاط القـوي قـد حـدث علـى الرغـم مـن أنـي لا أعـرف شـكله ولا عملـه ولا عنوانـه ولا صوتـه ولا حتـى اسـمه حيـث أنـه يختـار لنفسـه اسـما مسـتعارا وهـو «صنـدوق الذكريـات»..

أذكـر أول مـرة تحدثـت فيهـا معـه عندمـا لفـت نظـري هـذا الاسـم وسـألته عـن معنـاه؛ فقـال لـي جملـة لـم أفهمهـا حتـى الآن وهـي: «أنـا الصنـدوق الـذي يرمـي النـاس فيـه ذكرياتهـم فأحفظهـا لهـم طـوال العمـر».

وضحكـت وقتهـا كثيـرا مـن هـذا التعليـق، ولا أدري هـل لأنـه كان مضحـكا أم لأنـي لـم أفهمـه وقتهـا وحتـى هـذه اللحظـة؟

تعـرف علـيّ منـذ مـا يقـرب مـن ثـلاث سـنوات بعـد أن طاردنـي برسـائله وإيميلاتـه كثيـرا، وعلـى الرغـم مـن الصـد والرفـض والإهانـة التـي قابلتـه منـي إلا أنـه لـم يتركنـي حتـى اسـتمعت إليـه فـي النهايـة وأعجبنـي حديثـه كثيـرا، والـذي كنـت فـي

البداية أعتبره مجرد تسلية وقتلا للفراغ، ولكن مع مرور الأيام أخذت أشعر بدفء شديد في كلامه معي، وصدق في مشاعره نحوي، وما أكد لي نبل شخصيته أنه لم يطلب مني يوما أن نتقابل أو أن نرتكب حماقة أو أن يرى لي صورة، بل وجدت منه سندا عند حاجتي إلى من يشعر بآلامي، وأنيسا لي عند حاجتي لمن يؤنس وحدتي، وأذنا تستوعب ما تحمله نفسي من أعباء عند حاجتي لمن أفضفض له..

وتوطدت علاقتنا لدرجة جعلتني أشعر أننا روح واحدة تسكن في جسدين، ولولا وعده لي في بداية علاقتنا الالكترونية بأنه لن يطلب مني أن أقابله إلا إذا طلبت أنا منه ذلك بناء على رغبتي، لكنا ارتبطنا بشكل لم يسبق له مثيل، ولكني لا أزال متمسكة بعدم مقابلته لإحساس يراودني بأنني لو قابلته من الممكن أن تفسد علاقتنا

الطاهرة، ونفقد دفء وصدق ونبل مشاعرنا تجاه بعضنا، لأن كال فرد منا الآن قد وصل إلى درجة من الاشتياق للآخر تجعلني أخشى إذا ما قابلته أن يفسد أرق وأجمل وأنظف شيء في حياتي وهو علاقتي به.

فتحت الإيميل فوجدته كعادة كل يوم أرسل لي في الصباح، وقبل أن يذهب إلى عمله رسالة يصبّح فيها عليّ، ويشبّهني ببعض أنواع الورود والطيور الجميلة.. وكما تنعشني رسالاته كل صباح وتزيل عني بعض همومي، أنعشتني رسالة اليوم ورسمت على شفتيّ البائستين ابتسامة، وهو ما يُعد شيئا نادرا في حياتي.

الصفحة الثانية ـ يوم من الأيام

في صباح هذا اليوم قرأت الرسالة الجديدة التي أرسلها هذا الحبيب المجهول، ثم نزلت مبكرا إلى مدرسة الرقص الخاصة بي والتي لولا وجودها في حياتي لكان البديل هو الانتحار، لأنها المكان الوحيد الذي أشعر فيه بكياني ووجودي، ولأن ثمة شيء في حياتي قد اخترته بإرادتي، وهذا ليس إحساسي وحدي، بل إحساس كل فتاة أو امرأة تأتي إليّ لأعلمها الرقص. كنت وما زلت أرى أن المرأة ليست فقط المصرية، بل والعربية بشكل عام، تعاني من حالة كبت شديد لحريتها وقتل متعمد لشخصيتها ووأد لإرادتها ورأيها وحقها في أن تختار الطريقة المناسبة لحياتها، وهذا ما كنت أشعر به وما زلت، طوال حياتي، لذلك قررت إنشاء تلك المدرسة لأخفف عني وعن كل من ينضم إليّ من أعبائي وأعبائهن النفسية والاجتماعية سواء كن متزوجات أصابهن إحساس بتوقف الحياة مثلي، أو فتيات أصابهن داء العنوسة القاتل، أو مطلقات بُلين بالانفصال، فأصبحن محل نقاش وجدل وانتهاك.

وصلت إلى المدرسة مبكرا، وكانت شذى وهي فتاة في العشرين من عمرها وتعمل كسكرتيرة أو مساعدة لي في إدارة شئون المدرسة قد وصلت قبلي بقليل،

ورتبت مواعيد التدريب وأعدت الصالات التي سيتم فيها التدريب وقضيت اليوم كله في المدرسة ولم أعد إلا في المساء.

الصفحة الثالثة ـ يوم من الأيام

اليوم أعدَّت أم صابر، وهي الخادمة التي تتولى شئون بيتي من طبخ وغسيل وتنظيف وترتيب، على الغداء مكرونة بالباشميل، فاستغربت لأنني لم أطلب منها ذلك، وعندما سألتها أخبرتني بأن الآنسة ندى قد أمرتها بصنعها لأن وائل صديقها سيأتي للغداء معها اليوم وهو يحب هذه المكرونة كثيرا.

هذه ليست أول مرة يزورها وائل فيها؛ فهو شاب ظريف ومن أسرة غنية.. صحيح أن والديه منفصلان، والأب يعمل بدبي والأم متزوجة وتعمل بالكويت، إلا أنهما يرسلان إليه بمبالغ طائلة ليعوضاه عن فقدانهما. ولقد عوّدتُ ندى منذ صغرها على الحرية والانطلاق، ولم أربِّها على التشدد أو الانغلاق؛ حتى لا تعيش حياة تعسة مثل التي عشتها أنا، ولكن علاقة ندى تغيرت معي كثيرا منذ عدة أشهر، وذلك بعد المواجهة الصعبة والمريرة التي حدثت بينها وبين نبيل زوجي، والتي سأذكرها فيما بعد، ومن وقتها وهي تتجنب الحديث معي أو اللقاء بي أو حتى رؤيتي. وانعزلت تماما عني، بل وعن كل الناس، ولكنني فرحة بأنها على اتصال بوائل؛ فأنا أعلم أنه يحبها ويريدها وهي كذلك وهذا من شأنه أن يخفف عنها عزلتها وشعورها القاسي الذي تشعر به.

وجاء وائل واستقبلته بغرفتها، وأمرت أم صابر بأن تدخل الغداء بالغرفة.. وانتظرتُ أن تدعوني ولكنها لم تفعل؛ فدخلت غرفتي وأغلقتها عليّ، وأسندت ظهري على الباب وأخذت أبكي بكاءً حارا من الوحدة التي أحياها بين قضبانها.. ولم أجد أنيسا لي في تلك اللحظة سوى الحبيب المجهول؛ ففتحت الانترنت سريعا وراسلته ولحسن حظي وجدته متصلا وحكيت له ما حدث فواساني وحاول أن يخفف عني، وكان من قبل قد سألني عن سبب هذا الجفاء الذي حدث بيني وبينها ولم أرد وقتها على سؤاله ردا كافيا؛ فعاود اليوم سؤالي مرة أخرى فوجدتها فرصة مناسبة لأحكي له ولأتخلص من حمل ثقيل أحمله على صدري منذ أعوام طويلة، فكتبت له متسائلة:

ـ هل عندك استعداد لسماع الحكاية من أولها؟

فكتب لي قائلا:

ـ وليس لي أمل غير ذلك.

فعدت بذاكرتي إلى حياتي القديمة، والتي كانت لا تقل ألما ولا هما عن حياتي الحالية، وتذكرت تلك الأيام، وكتبت له قائلة:

ـ وأنا ما زلت صبية في مقتبل العمر كنت أحلم كأي فتاة أن يأتي اليوم الذي سأصير فيه أما لأطفال كثيرين أحبهم وأرعاهم ويصبحون هم دنياي وحياتي،

وبعد أن حرمني أبي ـ سامحه الله ـ ممن أحببته وتمنيته أبا لأولادي وتزوجت من شخص آخر، حاولت أن أتأقلم وأتعود على حياتي الجديدة وأرضى بما قُسم لي. ولكن مرت الأيام والشهور، ولم تظهر عليّ أي أعراض لحمل فانتاب زوجي القلق وانتابني أنا أضعافه، وذهبنا لطبيب ليفحصني ويفحصه، وليقف على أسباب هذا التأخر، وكانت النتيجة صادمة بل وفاجعة، حيث كان سبب التأخر هو عدم قدرتي على الحمل والإنجاب مدى الحياة، وفي نفس تلك اللحظة شعرت بخروج روحي مني ولم أشعر بعودتها إليّ حتى الآن. ومع مرور الأيام أخذ الصمت الذي فرضه زوجي على نفسه، وبالتالي عليّ في التغلغل داخل بيتنا وحياتنا حتى أصاب كل شيء حولنا ـ حتى الجدران ـ الخرس الأبدي الذي يكاد من قوته أن يفتك بالأعصاب ويصيب بالجنون، وأصبحنا كغريبين يركبان مواصلة عامة من الممكن أن تتلاقى الأعين ولكن لا تتلاقى الألسنة إلا في تحية الصعود أو تحية النزول، وعندما ضاقت عليّ الحياة وأصبحت لا أطيق هذا السكون اقترحت عليّ إحدى صديقاتي أن أتبنى طفلا من إحدى دور الأيتام، أكسب ثواب تربيته ويملأ عليّ فراغ حياتي، وعندما عرضت على نبيل الأمر لم يقبل ولم يرفض وقال بلا مبالاة:

ـ إذا كنتِ تريدين ذلك فلم لا؟

وذهبنا معا لإحدى دور الأيتام الشهيرة بالإسكندرية، وأنا لا أعلم مَنْ الطفل الذي سيكون من نصيبي. وأخذتنا المشرفة إلى حديقة الدار والتي كان يتجمع بها عدد من الأطفال الصغار، وقالت لي:

ـ اختاري ما تشائين..

وكانت لحظة صعبة لم أنسها حتى الآن، حيث قلت في نفسي لحظتها:

"إنها حقا لسخرية أن أقف لأختار أنا التي لم يتح لي اختيار أي شيء في حياتي من قبل حتى في إنجاب الأطفال، الآن عليّ أن أختار طفلا لم أنجبه لأربيه ولأمثل عليه دور الأم، وليمثل عليّ هو دور الابن، ولنعيش في تمثيلية لا يدري أحد فينا ماذا ستكون

أحداثها المستقبلية، أو ماذا ستخبيء لنا حلقاتها؟ ولا عما ستنتهي؟»

ولكن يظهر أن القدر لم يتح لي حتى هذا الاختيار، حيث أن الطفلة هي التي اختارتني، عندما فوجئت بطفلة صغيرة لم تبلغ الثلاثة أعوام تترك جميع الأطفال وتجري نحوي وعلى وجهها ابتسامة عذبة وتقف بجواري وتحتضن رجليّ. لم أستطع أن أفيق من ذهولي وشعرت بنهر من الحنان يتفجر بداخلي ويتدفق؛ فنزلت إليها ونظرت في عينيها فألقت نفسها داخل أحضاني، وكأنها تقول لي: «لقد اخترتكِ أما لي؛ فلا تتركيني»

هكذا أحسست وقتها، وسالت دموعي أنهارا على خدي، حتى نبيل زوجي لم

يستطع مقاومة تلك اللحظة المؤثرة، وهذا المشهد الإنساني الصعب، وسالت دمعات حارة على خديه، وأيضا لم تسلم المشرفة من التأثر وإن انتابتها الدهشة لما حدث، ولاختيار الطفلة لي وانجذابها نحوي حتى قبل أن تعرفني أو تقترب مني. وفي نفس الليلة كنت قد أصبحت أما لندى، وأصبحت ندى ابنة لي بعد أن تولى نبيل إنهاء كافة الإجراءات القانونية مع الدار وتسجيلها باسمه.
ومضت السنون وندى هي الجزء الرطب في حياتي إلى أن جاء اليوم الذي كشفت لنا حلقات التمثيلية التي نعيشها عن مفاجأة في أحداثها عندما كنت أتشاجر مع نبيل في أخر مرة قبل أن يترك البيت، وفي وسط انفعاله وغضبه اعترف لندى بأنه ليس بأبيها وبأني لست أمها وأننا تبنيناها من إحدى دور الأيتام وآويناها وربيناها. كانت لحظة لا يعلم تأثيرها عليها إلا خالقنا، ولكنها كانت لابد وأن تأتي، هكذا عودتنا الحياة أن الحقائق لابد وأن تتكشف مهما طالت فترة إخفائنا لها، أو إخفائها عنا. ومنذ تلك اللحظة انفصلت ندى عنا انفصالا تاما وأصبحت في جزيرة منعزلة كما الحال بالنسبة لي ولزوجي.. هذه يا سيدي هي قصتي مع ندى التي اختارتني وهي صغيرة ولفظتني وهي كبيرة، ولكني أصبحت قلقة عليها خصوصا في الفترة الأخيرة، حيث نحل عودها، وفقدت حيويتها وبهاءها، وظهرت هالات سوداء حول عينيها.. أنا أعلم أنها تدخن السجائر مثلي، وأحيانا تدخن الشيشة مثلي أيضا، ولكني لا أدري سبب تدهورها المستمر هذا خصوصا في الفترة الأخيرة. أخشى أن تكون المخدرات قد طالتها، وهي في مثل هذه الظروف النفسية السيئة، هذا جزء صغير من معاناتي الكبيرة التي أحياها بين جنبات هذا البيت.. ادع لي يا صديقي الحميم، فأنا في أشد الحاجة إلى الدعاء.
الصفحة الرابعة - يوم من الأيام
ذهبت في المساء إلى محل الكوافير الذي أمتلكه وأديره بمنطقة كليوباترا، وكنت قد تغيبت عنه لعدة أيام موكلة عبده مساعدي الخاص بإدارة شئونه أثناء غيابي، وعند وصولي استقبلني عبده كالعادة بسيل من الأسئلة عن سبب غيابي وعن صحتي وأحوالي، وبفيض من النظرات المعبرة والتي لا يفهمها أحد سواي، وهكذا هو حاله معي دائما عندما أغيب عنه ولو لعدة أيام. لا يرتاح له بال ولا يهدأ إلا بعد انتهاء فترة العمل واصطحابه معي في سيارتي وأنا أوصله إلى منطقة سكنه بسيدي بشر، وبالفعل مر الوقت سريعا، وفي حوالي الساعة الثانية صباحا أغلقنا المحل وانطلقنا على كورنيش البحر لأوصله ولأطمئن عليه وعلى أخباره، أو بالأحرى ليطمئن هو عليّ وليعرف سبب تغيبي عن المحل وعنه. وعندما وصلنا إلى سيدي بشر قبلي وأمام شارع الصداقة الذي يقطن به، وقبل أن ينزل مال عليّ وطبع على شفتيّ قبلة طويلة حارة عبر فيها

عـن اشـتياقه لـي طيلـة الأيـام السـابقة ثـم تركنـي ونـزل.
هنا أغلق أدهم الأجندة غير مصدق ما قرأه، ومحاولا استيعاب المشهد:
"عبـده ذلـك الشـاب العشـريني الصغيـر يطبـع قبلـة طويلـة حـارة علـى شـفتي شـهيرة التـي تكبـره بمـا يقـرب مـن ضعـف عمـره تقريبـا. أنـه لشـيء عجيـب، مـاذا حـدث فـي المجتمـع؟ أي خلـل أصابـه فأفقده توازنـه؟"
وسـرعان مـا قفـزت صـورة شـهيرة فـي عقلـه وكأنـه يتخيلهـا فـي هـذا المشـهد العجيـب وتسـاءل فـي نفسـه:
"هـل يمكـن أن تكـون ثمـة علاقـة غيـر شـرعية قـد قامـت بينهـا وبيـن هـذا الشـاب الصغيـر؟"
وبسرعة فتح الأجندة مرة أخرى ليبحث عن إجابة لهذا السؤال.

(٣٦)

اعتـدل أدهـم فـي جلسـته علـى الشـيزلونج، ومازالـت آثـار الدهشـة مرتسـمة علـى ملامـح وجهـه، وأخـذ يقلـب فـي صفحـات الأجنـدة باحثـا عـن إجابـة لسـؤاله حتـى عثـر عليهـا أخيـرا فـي الصفحـة السـابعة عشـرة، عندمـا لمـح اسـم عبـده يحتـل الأسـطر الأولـى منهـا، فأخـذ يقـرأ بفضـول ممـزوج بقلـق.
الصفحة السابعة عشرة - يوم من الأيام:
- اليـوم اصطحبـت عبـده بسـيارتي فـي الصبـاح إلى شـقتي الثانيـة بالمعمـورة الشـاطيء، كانـت السـماء غائمـة والأمطـار تنهمـر بغـزارة وتغسـل شـوارع الإسـكندرية. نزلنـا مـن السـيارة سـريعا وجرينـا نحـو مدخـل العمـارة الصغيـرة هربـا مـن ميـاه الأمطـار، وصعدنـا إلـى الـدور الثالـث حيـث شـقتي التـي اشـتراها لـي نبيـل زوجـي منـذ فتـرة لنصيِّـف بهـا، ولـم تكـن هـذه هـي المـرة الأولـى التـي أدخلهـا مـع شـخص غريـب غيـر زوجـي، فلقـد التقيـت فيهـا بعبـده عـدة مـرات قبـل ذلـك، وبغـض النظـر عـن الأسـباب الكثيـرة والمتشـابكة التـي جعلتنـي أفعـل ذلـك إلا أننـي لا يهمنـي الآن سـوى تسـجيل تلـك الذكـرى حتـى تظـل محفوظـة أمامـي دائمـا ليـس للافتخـار بهـا ولكـن لأذكـر نفسـي بلحظـات ضعفـي التـي عشـتها والتـي كانـت انتقامـا منـى مـن صاحـب تلـك الشـقة ومالكهـا، كان الفتـى صغيـرا حقـا وكنـتُ كثيـرا مـا أراقبـه وأنـا فـي الكوافيـر وأتخيّـل صورتـه معـي إذا مـا أعطيتـه فرصـة لينالنـي كيـف سـتكون؟ وهـل سيسـتطيع؟ وهـل سـأكون مذنبـة حيالـه عندمـا سـأريه دنيـا هـو لـم يرهـا مـن قبـل، ولـم يعشـها أو يدخلهـا قبـل ذلـك؟ أفـكار كثيـرة تداخلـت بعقلـي فزادتـه شـتاتا، ولـم أسـتطع أن أهتـدي إلـى رأى رشـيد، حيـث تشـابكت الأحاسـيس بداخلـي مـا بيـن الرغبـة فـي الحصـول علـى المتعـة المفتقـدة، والرغبـة فـي الانتقـام ممـن حرمنـي إياهـا.

كنت قبل ذلك اليوم بعدة أشهر قد لاحظت نظرات الفتى لي أثناء وجودي بالكوافير، نظرات المفتون الساذج الذي لم يستطع لحداثة سنة أن يخفيها أو يهذبها أو يسيطر عليها، الأمر الذي جعله ذات مرة وأثناء مروري بجواره، يمد يده ويمسك أحد نهديّ بيده، ثم يفر هاربا من أمامي، وعلى الرغم من مفاجأتي بالموقف إلا أنني ضحكت كثيرا مما حدث.

وفي هذه الفترة كان ظمأى وحرماني قد وصلا للذروة، وهذا التصرف الأبله من الفتى قد لفت نظري إليه

وجعلني أنظر نحوه نظرة مختلفة لم أكن أنظرها له من قبل، وانتبهت إلى هذا الفتى المراهق وبدأت أتخيله وهو يداعب أنوثتي الحارة وأعضائي الملتهبة حتى أخذت القرار وجئت به إلى هنا لكي نتبادل معا ما يحتاجه كل منا من الآخر، فيطفيء لهيبي وظمئي بشبابه الأخضر، وأدخله أنا دنيا هو يتمنى دخولها ولا يستطيع .

لا أشعر هل كنت أنانية حين فكرت في ذلك؟ أم أن عدم شعوري بالأمومة هو الذي جردني من أي عطف أو شفقة نحوه؟ لا أدرى، كل ما أدريه أننا صعدنا إلى الشقة وتم التبادل على نحو ناجح أرضى الطرفين، ثم استمر هذا التبادل بعد ذلك لعدة أيام فأسابيع فشهور، ظلت خلالها العلاقة تتشكل وتتطور وتصبح أكثر حميمية وتغيّرت حياتنا بشكل كبير، لا أدرى هل إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ المهم أن ثمة تغيير قد حدث قتل معه الروتين والسكون والفراغ في حياتي، وأحدث تقدما ملحوظا في حياته خصوصا بعدما بدأتُ أغدق عليه بالمال ليحسِّن حياته الصعبة التي يحياها مع زوجة أبيه وأخوته الصغار، وعلى الرغم من أنني مازلت زوجة لنبيل إلا أنني لم أحزن يوما لكوني أخونه مع شخص آخر. بل على العكس تماما كنت أشعر بأنني أنتقم منه ومن قسوته التي كان يعاملني بها في الفترة الأخيرة التي سبقت رحيله عن البيت، والتي كان يضربني فيها ويعذبني ويوجه إلىَّ الإهانة تلو الأخرى وكل ذلك بلا أي سبب أعلمه، وكأنه يريد أن يجعلني أكرهه أو أطلب منه الطلاق، ولكني لم أستطع أن أطلبه ـ رغم حلمي به ـ حتى لا تضيع ندى إذا لم تجد مأوى يؤويها، ولكني أشعر بالحزن على نفسي، وعلى شرفي، وعلى حصولي على لقب خائنة، لدرجة تجعلني في أوقات كثيرة أحتقر نفسي وأنا نائمة مع مراهق في عمر ابنتي التي ربيتها. وعلى العكس تماما من ذلك الإحساس بالفجر والنجاسة أشعر بالطهر فقط عندما أتحدث مع الحبيب المجهول على الإنترنت والذي دائما ما يضيء لي حياتي وقلبي ونفسي بحديثه العذب معي، ومعاملتي باعتباري إنسانة لها قلب ومشاعر وأحاسيس وكيان وشخصية لا باعتباري جسدا أنهكه الحرمان، ولا قطعة أثاث نسيت في جانب من جوانب البيت، وأصبحت أعيش بين هذين

الشعورين، إحساس بالعهر لا أستطيع التخلي عنه، وإحساس بالطهر لا أستطيع الإمساك به.

(٣٧)

أغلق أدهم الأجندة وأخذ يتفكر في كل ما قرأه واكتشفه بعقل مشتت ومشاعر مختلطة من المفاجآت التي ظهرت له، وأخذ يستعيد صورة لقائه الأول بعبده في الأستوديو وتذكر ملامحه التي كادت أن تنطق عندما علم بأنه يسأل عن مدام شهيرة، وتذكر تلك اللمعة التي لمحها في عيني الشاب الصغير وهو يناوله الكارت المدون به عنوان وتليفون مدرسة الرقص، وتأكد له صدق إحساسه بأن هذا الشاب الشعبي البسيط له دور هام في حياة تلك المرأة.
"ولكن من يكون هذا الرجل الذي يراسلها على الانترنت ويحبها كل هذا الحب ولا يستطيع أن يقابلها أو أن يكشف لها عن نفسه؟ أيكون هو نور الدين السكندري صاحب الأستوديو المجاور لها؟ لديّ إحساس ليس مؤكدا بأنه هو الحبيب المجهول الذي يراسلها، ألم تقل شهيرة في مذكراتها أنه يسمى نفسه صندوق الذكريات، وأن الناس تلقى بذكرياتهم فيه فيحفظها لهم طوال العمر، أليس في هذا إشارة لمهنة
التصوير التي يمتهنها نور الدين؟ إنها مجرد تخمينات لا أكثر والأيام كفيلة بأن تكشف المستور.. يا لك من امرأة مليئة بالأسرار يا شهيرة»
ولكن كان هناك سؤال يلح عليه في تلك اللحظة وهو: لماذا تأزمت علاقتها بزوجها ووصلت إلى هذا الحد؟ وما هي الأسباب التي وراء ذلك؟.. لقد ذكرت له وهما في رحلة الفيوم أن زوجها شخصية وصولية وأنه لم يكن يحبها ولكنه تزوجها من أجل اسم عائلتها، ولكن ما السبب الذي جعل الأمر يصل بينهما إلى الحد الذي تشاجر معها فيه وأفصح أمام ندى ـ تلك المسكينة ـ عن سر تبنيها الذي كانا يخفيانه عنها؟ بالتأكد إجابة هذا السؤال هي كلمة السر في علاقة شهيرة بزوجها لأنه من الواضح أن هذا الرجل يحمل بداخله سرا ما جعله يتصرف تصرفا كهذا وإلا كانت قد استمرت العلاقة بينهما كما كانت مستمرة طيلة السنوات الماضية. وإجابة هذا السؤال لن يحصل عليها إلا من هذا الزوج نفسه، نبيل الفنجري.

على نفس المنضدة بفندق سان جيوفاني، كان اللقاء بين أدهم وشهيرة في مساء اليوم التالي وبعد انتهائه من العمل وخروجه من عند أبيها يوسف بك، كانت شهيرة مشتاقة لهذا اللقاء خصوصا وأنه أول لقاء يجمعهما بعد أن قرأ أدهم مذكراتها واكتشف أسرارها، وإن كانت قلقة ومضطربة بعض الشيء لشعورها بأنها تجرَّدت أمامه وتعرت عندما أطلعته على ما لم تطلع عليه أحدا غيره، وكان أدهم يقدر ذلك ويعيه تماما، مرت فترة صمت حاول أدهم فيها أن يجمع شتات عقله وأن يجد المدخل المناسب للحديث على الرغم من الصعوبة التي واجهته في تحقيق ذلك من شدة صدمته ومفاجأته مما اكتشفه ولكن هذه المرة كانت هي الأجرأ والأشجع فسبقته قائلة:

ـ أشعر وكأنك لا تجد كلاما تعبر به عما اكتشفته من أسرار حياتي، وأنت محق في ذلك، فالحقيقة دائما ثقيلة على اللسان.

تفاجأ أدهم بأنها استطاعت أن تقرأ أفكاره، هو الذي ما ترك أحدا إلا وقرأ كل ما بداخله فابتسم قائلا:

ـ كل شخصية نقابلها في حياتنا، لو استطعنا أن نقرأ فيها ولو سطرا واحدا لفهمنا طبيعة النفس البشرية، ومن ثم استطعنا أن نتعامل معها على اختلافاتها دونما بغض أو كره أو خداع أو ضغائن، المهم ألا ننظر إلى نقائص وأخطاء بعضنا البعض على أنها جرم أو سوء خلق لأننا جميعا لا نخلو منها، وإنما ننظر إليها على أنها تعبير صادق عن لحظات الضعف الإنسانية والتي خلقنا لكي نرتكبها ونتعلم منها ومن ثم نتجاوزها ونحن أكثر قدرة على التعامل مع الحياة بفهم ووعي.

ـ الله.. ما أعظم كلامك وفلسفتك، هذا عين ما أنشده طوال حياتي، أن يتعاون كل البشر مع بعضهم البعض بمبدأ التكامل لا بمبدأ الندية، بروعة اكتشاف القدرات والإيجابيات، لا بتعمد اصطياد السلبيات والأخطاء ثم الإمساك بها واستخدامها للتشهير أو للاقتناص.

ـ وهذا هو المبدأ الذي أتعامل معك على أساسه.

توقفت قليلا عند هذه الجملة، وعلى استحياء قالت:

ـ وكيف رأيت أخطاءي وحماقاتي ؟

وبلهجة تأكيد صاحبتها ابتسامة قال:

ـ كما رأيت مواقفك الإنسانية العذبة.

لم يعد للقلق ولا الاضطراب مكان في نفسها بعد جملة أدهم الأخيرة، ووجد الاطمئنان لنفسه مكانا فسيحا بعد

رحيلهما؛ فسكنت نفسها وهدأت أعصابها واستسلمت له تماما.
أما هو فكان لا يزال مهموما جدا بقضيتها ومشكلاتها ولا يكف عقله عن التفكير في حلول لها؛ فقال بلهجة جادة ومؤكدة:
ـ لقد اكتشفت من قراءتي لما كتبتِه في مذكراتك أن مأساتك الحقيقية ليست فقط حرمانك الجنسي وإنما حرمانك العاطفي، الحب الذي غاب عن كل تفاصيل حياتك، وفقدانك لاحتواء شامل وكامل من قبل أي رجل في حياتك سواء زوجك أو حتى علاقتك العابرة مع الشاب الصغير والذي لم يعطك ما تحتاجينه من شعور بالاحتواء، بل تحصلي منه دائما على شعور بالذنب والاحتقار وبكونك امرأة خائنة. مازلت تحتاجين إلى من يحتويكِ قلبا وعقلا وروحا وإلى ارتواء قلبك وروحك قبل ارتواء جسدك، وهذا ما وجدتِه أو على الأقل شعرتِ به في علاقتك بالرجل الغامض الذي يراسلك على الإنترنت، والذي عما قريب سيكشف لك عن غموضه.
وعلى الرغم من انبهارها واندهاشها بتحليله لشخصيتها وبتشخيصه لكل ما يؤرقها ويدور بداخلها، إلا أن اندهاشها الأكبر كان من جملته الأخيرة، والتي قال فيها أن الرجل الغامض سيكشف عن غموضه عما قريب؛ فسألته قائلة:
ـ وهل تعرفه؟
ـ عندي شك في أحد الأشخاص، وسأتأكد بنفسي.
وبلهفة كبيرة قالت:
ـ وفيمن تشك؟
وبهدوء أكبر قال:
ـ ليس قبل أن أتأكد، ولكن لدىَّ تساؤلات تحيرني، وهي لماذا تغيّر زوجك معك في الفترة الأخيرة من حياتكما معا؟ وما الذي دفعه لأن يفصح لندى عن حقيقة أمرها؟ ولماذا لم يطلقك بنفسه وظل يضيق عليكِ ويهينك لكي تطلبي أنتِ ذلك بنفسك ؟
ـ كل هذه الأسئلة سألتها لنفسي من قبلك وقد حيّرتني كثيرا، أشعر بأن هناك سرا ما في حياته، هو السبب وراء كل ما افتعله معي من مشكلات وحتى الآن لم أنجح في الوصول إلى هذا السر.
ـ أريد منك عنوان زوجك في مقر عمله.
فقالت شهيرة متسائلة:
ـ لماذا؟
فقال أدهم مؤكدا:
ـ لنعرف ما هو هذا السر.

(٣٩)

كان أدهم في طريقه لزيارة نبيل الفنجري في منزله بكفر عبده، وهي من المناطق الراقية جدا بالإسكندرية ـ بغض النظر عن اسمها ـ بعد أن ذهب إليه بمقر عمله وأبلغته السكرتيرة بأنه غير موجود نظرا لانشغاله بالتحضير لسفره إلى ألمانيا مساء اليوم؛ فطلب منها عنوان منزله بعد أن أقسم لها بأن الأمر خطير ولا يحتمل التأخير، وكان طوال الطريق يفكر فيما ينبغي عليه قوله وفعله عند لقائه بهذا الرجل الغريب صاحب الشخصية الوصولية ـ على حد وصف شهيرة ـ كما كان يحمل له العديد من التساؤلات وعلامات الاستفهام ولكن التساؤل الأبرز والأهم من وجهة نظر أدهم والذي ظل يشغله طيلة الفترة الماضية وبالتحديد منذ أن تعرّف على أسرار شهيرة وقرأ مذكراتها هو: «لماذا تطرق الخيانة الزوجية أبواب بيوتنا؟ وما هي مسئولية الزوجين في التصدي وعدم فتح الأبواب لها؟»

وبعد أقل من نصف ساعة كان يقف أمام باب شقته ويرن الجرس، وبعد أقل من دقيقتين فتح نبيل الباب، هكذا عرفه أدهم منذ أول نظرة: رجل قصير القامة، ممتلىء الجسم، أسمر البشرة، تدل ملامحه على صعيديته التي جاء منها، وإن كانت تبدو عليه الأناقة، صاحب نظرات حادة لا تخلو من شك، وتدل ملامحه ونظراته على أنه صاحب خبرة في الحياة وله رصيد من التجارب الحياتية لا بأس به. كانت تلك انطباعات أدهم الأولية عنه، وكان يبدو عليه الإرهاق نتيجة قيامه بعمل ما، دل على ذلك العرق المتصبب من جميع أنحاء جسده وملابسه غير المكتملة:

ـ حضرتك الأستاذ نبيل الفنجري؟

هكذا سأله أدهم. وهكذا كانت أجابته:

ـ نعم.. حضرتك تعرفني؟

ـ طبعا، لقد علمت أنك مسافر اليوم إلى ألمانيا؛ فجئت أولا لأودعك، وثانيا لأستشيرك في بعض الأمور الخاصة بشهيرة هانم و(مدموزيل) ندى.

بدا الاهتمام واضحا على وجه نبيل وسرعان ما رحبّ به قائلا:

ـ إذن تفضل بالداخل.

لاحظ أدهم عند دخوله مدى فخامة الشقة وعصرية أثاثها، وإن كانت معظم قطع الأثاث قد غطيت بملاءات بيضاء، كما لاحظ أيضا وهو في طريقه إلى غرفة الصالون بعض الحقائب وقد جهزت للسفر. وبغرفة الصالون نزع نبيل الملاءات عن بعض الكراسي، وأجلس أدهم بعد ما اعتذر له عن سوء تنظيم الشقة نظرا لسفره الذي يستعد له بعد ساعات من الآن.

ـ أحمد الله على أنني أدركتك قبل أن تسافر.
قالها أدهم محاولا إحاطة زيارته بأهمية كبيرة في نظر الرجل، وكان نبيل ينظر إليه مبتسما ولم يعقّب منتظرا من أدهم مزيدا من التوضيح؛ ففهم أدهم ذلك وقال:
ـ أعلم أنك تتساءل في نفسك عني وعن سبب زيارتي، وحتى لا أطيل عليك وأعطلك عن سفرك، سأقول لك كل شيء باختصار، الموضوع يا سيدي أنني أعتبر من المقربين جدا ليوسف بك المصري ومن ثم لأولاده، ولقد حدث وتقابلت مع شهيرة هانم وتعرفت على ظروفها، وفي الحقيقة ساءني كثيرا ما وصل إليه حالها من شعور بالضياع وإحساس بالتمزق، ولا أخفيك أنني اكتشفت من حديثها أنها تعانى من أزمة شديدة يسمونها أزمة منتصف العمر؛ حيث تنطبق الكثير من أعراض تلك الأزمة عليها، ولا يخفى عليك أيضا مدى احتياج الشخص في تلك الحالة لمن يساعده ويسانده حتى يعبر هذه الأزمة بسلام. كما أن أحوال ندى ـ ابنتكما بالتبني ـ تسوء يوما بعد يوم، وهي وإن كانت ليست من صلبك فإنها لها حق عليك لأنها تحمل اسمك، وما جئت إليك إلا بصفتي واسطة خير أحاول أن أصلح ما أفسدته الأيام بينكما، ولأعرف سر تغيرك المفاجئ نحوهما، وأرجو ألا تعتبر ذلك تطفلا منى أو تدخلا في شئونك الخاصة.
وضع نبيل وجهه في الأرض، وبدا كمن يحمل بداخله هموم الدنيا، وانتظر لحظات حاول فيها أن يجد ما يقوله، ثم تنهد وقال:
ـ لقد انتظرت طويلا حتى أجد من أبوح له بما تنوء نفسي بحمله ولم أجد، وفقدت الأمل في ذلك حتى جئت أنتَ في اللحظات الأخيرة لتنقذني من هذا الهم.
فرح أدهم لسماع هذا الكلام من الرجل ولكنه كان شغوفا لمعرفة السر؛ فسكت حتى لا يقطع حدثيه، فأكمل نبيل قائلا:
ـ بغض النظر عن مدى قربك من عائلة شهيرة، يكفيني أنك حملت على عاتقك همها، لكن دعني أحكي لك أشياءً لابد وأن تعرفها قبل أن تحكم على كل ما فعلته معها لأنها بالتأكيد ستغير وجهة نظرك تماما.. لقد تلقيت في صغري تربية صعبة وقاسية جعلتني أهاجر من قريتي الصعيدية إلى الإسكندرية بحثا عن حياة جديدة، وعندما رأيت شهيرة لأول مرة تشترى من محل الأقمشة الذي كنت أعمل به شعرت بأنني وجدت ما كان يجب عليّ أن أجده في تلك الفترة من حياتي، وظللت أطاردها حتى استطعت أن أوقعها في شباكي، وقد ساعدتني في ذلك تجربتها الأليمة مع والدها وحرمانها من حبها الأول ومن ممارسة رقص الباليه الذي كانت تعشقه مما جعلها تسارع في الموافقة عليّ، وأستطيع أن

اعترف لك أنني لم أحبها في هذا الوقت حبا حقيقا، وإنما كنت أعتبرها محطتي الأولى في رحلة كفاحي وصعودي.. وتزوجنا وبمرور الوقت توطدت علاقتي بها بحكم العشرة الطيبة، وعلى الرغم من أنني لم أحبها لكني أيضا لم أكرهها وظللت أحتفظ لها ـ حتى الآن ـ بمكانة هامة في حياتي، ولكن الصدمة الأولى التي تلقتها علاقتنا الزوجية هي التي جعلت الهوة تتسع بيننا، والصدمة كانت عندما قرر يوسف بك أن يحرم جميع أبنائه من ميراثه حيا أو ميتا حتى يعتمدوا على أنفسهم ويتركوا حياة الدعة التي كانوا يعيشونها ـ على حد قوله ـ ويكدوا ويتعبوا ويبنوا مستقبلهم بأيديهم كما بناه هو، كانت ضربة قاسية بالنسبة لي لأني كنت أرتب للحصول على أي نصيب لها من أبيها لأفتتح عدة مشروعات سياحية من شأنها أن تُحدث نقلة كبرى في حياتي، وكانت لطمة قوية ليست فقط لي، بل لكل العائلة من حوله.. الأمر الذي دعاهم لرفع قضية حجر عليه بعد ذلك ولكنها باءت بالفشل نظرا للإجراءات التي اتخذها مع صديقه المحامى الذي وكلناه، ومن وقتها تغيرت مشاعري ناحيتها وانخفضت حرارة علاقتي بها حتى تحولت مع الأيام إلى هجر صامت ساعد عليه عملي في السياحة، والذي يتطلب منى إنفاق معظم وقتي وأيامي خارج البيت، ولكن...

ونكس رأسه في الأرض خجلا، فاستعد أدهم لتلقى الإجابة التي انتظرها طويلا، وقال:

ـ سر حياتك كله يكمن بعد هذه الكلمة.

ـ بالفعل أنت محق في ذلك ـ لكن ـ حدث في حياتي تحول كبير لم أكن أتوقعه أو أعمل له أي حساب، فلقد أحببت امرأة ألمانية تعرفت عليها عندما كانت تستقل أحد أتوبيسات شركتي السياحية مع الـ (جروب) المصاحب لها وتعرض الأتوبيس لحادث إرهابي شهير في ذلك الوقت بالأقصر وكانت أحد الناجين، وذهبت لأزورها بالمستشفى هي ومن نجا معها.. وكنت أزورها بصفة مستمرة حتى تعافت تماما من الكدمات التي أصابتها، وبدأت خيوط الحب تنسج بيننا وتعمقت العلاقة بيننا ولكن دونما حدوث زواج، واستمر الحال هكذا عدة أشهر حتى اكتشفت السر.

كان الفضول قد وصل بأدهم إلى حد جعله غير مستقر بجلسته؛ فقال متلهفا:

ـ وما هو هذا السر؟

فقال نبيل بأسى واضح:

ـ أنني أصبت بالإيدز.

وما بين الوعي واللا وعي توقف عقل أدهم، حتى أنه لم يستطع أن يتكلم أو أن يكون له أي رد فعل، فقط يتأمل ما سمعه ويكرر بداخله الكلمة عدة مرات، وبعد أن نجح في أن ينتقل بعقله إلى منطقة الوعي، قال بصوت أنهك صاحبه

التأمل: ـ وهل انتقلت العدوى إلى شهيرة؟
اغتصب نبيل من فمه ابتسامة مرة وقال:
ـ هذا هو سبب شجاري مع شهيرة وإهانتي المستمرة لها حتى تكرهني وتطلب منى الطلاق، ومن الطبيعي أن تسألني طالما أنك لا تحبها لماذا لم تطلقها؟.. الغريب أنني منذ علمت بتلك المصيبة شعرت بتحول كبير في مشاعري تجاه شهيرة وندى، وكأن بركانا من الحب والرحمة والشفقة قد انفجر في قلبي، شعرت بخوف شديد عليهما لدرجة جعلتني أعجز عن تطليقها، فأردت أن أجعلها تطلبه بنفسها فأخذت أختلق المشكلات وأفتعل الخناقات وأوجه لها الإهانات، ولما لم تطلب منى الطلاق تركت لها البيت وقررت ألا أعود إليه.
ـ ولماذا أفصحت لندى عن سر تبنيك لها؟
ـ لأنها كانت متعلقة بي جدا لدرجة جعلتها تريد أن تترك البيت معي حتى لا تتركني وحدي، فلم أجد أمامي سوى أن أفصح لها عن تلك الحقيقة المرة حتى لا تتعلق بي بعد ذلك، أو تأتى معي خوفا عليها من الإصابة بما أحمله، مع علمي بأن ما ستسمعه سيكون قاسيا عليها كثيرا، ولكنه أهون من أن تُصاب لا قدر الله.. أرأيت يا سيدي ما أحمله من هموم وحدي؟
شعور قوى بالتعاطف شعره أدهم تجاه الرجل المسكين، وقد استشعر نبله وتضحيته من أجل إنقاذ من حوله من خطر ما أصابه، متحملا في سبيل ذلك ألم البغض والصورة السيئة التي سترسم عنه؛ فقام أدهم وفتح ذراعيه للرجل مشاركا إياه مصيبته، وما كان من نبيل إلا أن قام هو الآخر ورمى بنفسه بين ذراعي أدهم وانهمر في البكاء. وبعد أن هدأت أعصابه قال:
ـ أشكر لك مشاركتك لي في مصابي، وتحملك مشقة سماعي، لعلى لو كنت قابلتك قبل ذلك كانت أشياء كثيرة قد تغيرت، أنا أعلم أنى عصيت الله، وقد جازاني وأنا راض بهذا الجزاء.
ـ الحمد الله على كل شيء، ولكن أخبرني، هذا ستفعل في سفريتك هذه؟
ـ أنا لست مسافرا، بل مهاجر، لقد صفيت كل أعمالي هنا ونقلتها إلى هناك عدا مكتب واحد للسياحة، ولي عندك خدمة أتمنى أن تسددها لي.
ـ أنا تحت أمرك.
فقام نبيل وذهب إلى غرفة نومه، ثم عاد ببعض الأوراق وناولها لأدهم ثم أشار إلى أول ورقة وقال:
ـ هذه ورقة طلاق شهيرة.. لن أجد خيرا منك ليسلمها لها بعد سفري. ولكني أوصيك وأنت تعطيها الورقة أن تبلغها اعتذاري لها عن كل لحظة صعبة تسببت في أن تعيشها، واطلب منها أن تدعو لي في مصابي.
قلب أدهم باقي الأوراق، وقال:

ـ وما بقية هذه الأوراق؟
ـ إنها تنازلات مني عن المكتب وعن كل ما أملك من أموال داخل مصر.
ـ لمن؟
ـ لندى...ابنتي.
شد أدهم على يد الرجل بقوة وهو يصافحه، وقال:
ـ أتمنى لك التوفيق والسلامة.
وأوصلـه نبيـل إلـى البـاب.. وقبـل أن يمضـى اسـتدار أدهـم نحـوه واحتضنـه بيـن ذراعيـه مـرة أخـرى ثـم نـزل مسـرعا ولـم يسـتطع أن يحجـز دمعـة أبـت أن تظـل فـي عينيـه.

(٤٠)

كانـت هـذه هـي المـرة الأولـى التـي يـزور فيهـا أدهـم شـقة شـهيرة بنـاءً علـى دعـوة منهـا للغـداء نظـرا لتعبهـا المفاجـيء، والـذي لـم تسـتطع بسـببه تلبيـة دعوتـه لمقابلتهـا بالخـارج.
كان متحرجـا فـي البدايـة أن يذهـب إليهـا، وهـو يعلـم أنهـا تعيـش هـي ونـدى بمفردهمـا، ولكـن رغبتـه الشـديدة فـي اكتشـاف ومعايشـة العالـم الـذي تعيـش فيـه هـي التـي جعلتـه يتجـاوز هـذا الحـرج.
وبعـد تنـاول الغـداء خرجـا سـويا إلـى الشـرفة وجلسـا متواجهيـن، لا يفصـل بينهمـا سـوى منضـدة صغيـرة وضعـت عليهـا أم صابـر صينيـة الشـاي وخرجـت.
كان أدهـم يحمـل إليهـا الكثيـر مـن المفاجـآت السـارة والأخبـار السـعيدة، ولكنـه تعمّـد أن يؤخرهـا لسـببين، الأول هـو حالـة الشـجن التـي لا تـزال تتلبسـه منـذ لقائـه بنبيـل عصـر الأمـس وتأثـره الشـديد بهـذا اللقـاء، والثانـي رغبتـه فـي الحصـول علـى إجابـات لبعـض التسـاؤلات التـي تشـغل عقلـه ككاتـب يسـعى لمعرفـة أسـباب الخلـل والشـروخ التـي تصيـب الأسـرة والعائلـة فـي مجتمعنـا المعاصـر، وهـو مـا جعلـه يبـدأ حديثـه قائـلا:
ـ هنـاك بعـض الأخبـار الجديـدة التـي جئـت مـن أجـل إخبـارك بهـا، ولكـن ليـس قبـل أن تجيبينـي علـى بعـض أسـئلة تشـغلني.
ورغم أنها استغربت لهجته الجادة، إلا أنها قالت ساخرة:
ـ وأنا تحت أمر حضرة الضابط.
فابتسم رغما عنه، ليشجعها وقال:
ـ لسـتِ بـأول أو بآخـر امـرأة تخـون زوجهـا، ولكـن فـي رأيـك ومـن خـلال تجربتـك مـا هـو السـبب الرئيسـي فـي دخـول تلـك الآفـة إلـى بيوتنـا؟

صدمها السؤال وأعاد إليها شعورها بالخزي من نفسها مرة أخرى، ولولا أنه صادر من صديق تعتز به لثارت في وجهه، ولكنها حاولت تجاوز هذا الشعور، وقالت:

- من خلال تجربتي أستطيع أن ألخص لك السبب الرئيسي للخيانة في كلمة واحدة وهي - الاحتواء - كما سبق وقلت لي أنت؛ فعندما يفشل الزوج في احتواء زوجته قلبا وعقلا وروحا وجسدا فببساطة شديدة يصنع منها امرأة خائنة، خصوصا لو كانت غير متدينة مثلي.. لقد جاءت عليّ لحظة شعرت فيها بأنني قطعة ثلج لم تجد من يحتويها ويحميها من الذوبان، كنت أقف أمام المرآة طويلا وأتأمل وجهي وجسدي وأتساءل: هل مازلت مرغوبة؟.. أم أنني أصبحت زهرة بلا رحيق؟.. ودائما ما كنت أردد شعارا اخترعته وآمنت به وهو:

"إذا خرج الحب من الباب، دخلت الخيانة من النافذة"

وسكتت قليلا ثم أردفت ساخرة:

- وكم من البيوت في مجتمعنا الآن قد فتحت نوافذها على مصراعيها؟

أكد كلامها صدق نظرته وتحليله لشخصيتها في السابق، ولكنه لم يزده إلا شجنا، وحاول أن يقارن بين حالة خيانة شهيرة مع الشاب عبده، وحالة خيانة سلوى مع الطبيب الذي كانت تعمل بعيادته، وأن يطابق بين الأسباب في الحالتين؛ فوجد أن الكثير منها متشابه على الرغم من اختلاف الظروف المحيطة، والطبقة الاجتماعية، والعوامل المؤثرة، وكانت الأسباب المتطابقة من وجهة نظره كالتالي: «غياب الزوج، غياب الحب، غياب الود، غياب الرحمة، غياب الوازع الديني، عدم الاحتواء، والفقر في حالة سلوى، وفقدان الحب والثقة بالنفس في حالة شهيرة».

ولرغبتها في الخروج من الحديث في هذا الموضوع الذي كان، ولا يزال، يسبّب لها ألما كبيرا حاولت تغييره حيث قالت:

- حتى الآن لم تخبرني بما تحمله لي من أخبار قلتَ أنها جديدة، هل نجحت في مقابلة نبيل؟

فهم أدهم رغبتها في تغيير الموضوع؛ فاستجاب لها وأعاد الابتسامة إلى وجهه، وقال مفتخرا:

- وهل تعوّدتِ منى على غير النجاح؟

فانطلقت منها ضحكة أعادتها سنوات للخلف، وقالت:

- وهل خلقت لغير النجاح؟

أطربه إطراؤها فتشجع لمفاجأتها، وأخرج من جيبه ورقة طلاقها، ثم قدمها لها قائلا:

ـ اسمحي أن تقبلي منى هذه الهدية المتواضعة.
تناولتها منه، والاستغراب يملأ ملامحها، ثم فتحتها ونظرت فيها، وما هي إلا لحظات حتى قفزت صارخة من الفرحة والذهول معا، حتى أن أم صابر قد جاءت مصعوقة من صرختها، وقالت:
ـ ماذا بكِ يا سيدتي، هل أصابك مكروه؟
فقامت شهيرة واحتضنتها وأخذت تمسك بيدها وترقص معها وتغنى، والأخرى في منتهي الاندهاش، وتقول:
ـ اليوم هو أسعد أيام حياتي، لقد نِلتُ حريتي، واستخرجت شهادة ميلادي.
وعلى الرغم من أن أم صابر لم تفهم شيئا مما حدث أو مما قيل أمامها، إلا أنها حاولت أن تبدي ابتهاجها مجاملة لسيدتها ثم عادت من حيث أتت؛ فنظرت شهيرة نحو أدهم بعينين لم ير صفاءهما من قبل، وقالت:
ـ كيف استطعت أن تقتلعها من بين أنياب هذا المتوحش؟
هنا تلبسته حالة الشجن مرة أخرى، ورأى أنه من الواجب أن يخبرها بحقيقة هذا الرجل النبيل وسر حياته المؤلم. وبالفعل ما هي إلا دقائق حتى كانت شهيرة تعلم كل شيء حتى الوصية التي أوصاه بها، وتلبستها نفس الحالة التي تلبست أدهم عندما سمع هذا الكلام لأول مرة من نبيل، عندما شعر بعقله يقف بين منطقة الوعي واللا وعي، واختلطت بعقلها الصور كما اختلطت بداخلها المشاعر، لكن سرعان ما تغلبت العاطفة الإنسانية، وتبدّلت إلى حالة من التعاطف الشديد نحوه والتأثر بما آل إليه حاله، ولكنها وفي الوقت نفسه شعرت بأن ما حدث هو عقاب له على ظلمها وعلى هجرها، وعلى الرغم من هذا التعاطف إلا أنها لم تستطع أن تنسى أنه كان السبب في سقوطها في براثن الإثم ووحل الخيانة، الأمر الذي أورثها احتقارا لنفسها لا يزال يؤرقها.
وبعد فترة من الصمت والتأمل قالت:
ـ على العموم كانت صفحة في حياتي وقد طويت اليوم.
أمّن أدهم على كلامها، وقال:
ـ الآن لا يتبقى أمامي سوى خطوة واحدة، وبعدها أطمئن عليكِ إلى الأبد.
ـ وما هي؟
فقال متحمسا:
ـ أن أعرف من الشخص الذي يراسلك على الإنترنت؟

(٤١)

مرَّ شهر كامل منذ لقاء أدهم الأخير بشهيرة، حدثت به نقلات كبيرة في حياة العائلة جميعها تمت بنجاح؛ ففي تلك الفترة كان أدهم قد تعرّف على ندى وحبيبها وائل واقترب منهما ونجح في احتوائهما وإحداث تغيير شامل في سلوكهما وحياتهما؛ فاستطاعا أن يتقدما في دراستهما الجامعية حيث كانا يدرسان السياحة والفنادق بإحدى الجامعات الخاصة. كما نجح في إقناعهما بالعلاج من الإدمان الذي كان قد تمكن منهما بشكل كبير وخطير، وهي المهمة الأصعب التي واجهته معهما، ولكنه بمزيد من الحنان الذي كانا يفتقدانه وفي أشد الحاجة إليه نجح في التأثير عليهما؛ فعدم وجود أسرة تحتويهما ولد بداخلهما إحساسا بالتمزق والضياع؛ فندى بعد أن كانت تنعم بكونها ابنة لرجل أعمال وسيدة مجتمع ناجحين، اكتشفت فجأة أنها ابنة من الملجأ مجهولة المصدر والمنبت، ووائل انفصل والداه وتزوج كل منهما ببلد عربي مختلف وتركاه وحده دون رعاية، وأخذا يغرقانه بالمال ظنّا منهما أنهما بذلك يعوضانه عما افتقده من عدم وجودهما حوله، كل هذه الظروف جعلتهما يشعران بالضياع الذي ساقهما إلى الإدمان رغما عنهما، ولولا ظهور أدهم في الوقت المناسب ما كان أحد يدرى ماذا سيكون مصيرهما، كما نجح أدهم في تثبيت أقدامهما في النشاط المسرحي، هوايتهما التي يحبانها وهي التمثيل لندى، والتأليف والإخراج لوائل، وعرّفهما على أصدقاء له في هذا المجال، وساندهما حتى خرجت أول مسرحية لهما وعرضت على مسرح قصر التذوق بسيدي جابر؛ مما كان له بالغ الأثر في تحسين حالتهما النفسية خصوصا بعد العلاج من الإدمان مباشرة وشعورهما بالنجاح وإثبات الذات، كما أنه وبعد شفائهما وتخرجهما سلم ندى الأمانة التي تركها لها نبيل - أبوها بالتبني - من قبل، وهي تنازل عن ملكية المكتب السياحي لها، وبذلك ضمن لها مستقبلها التعليمي والعملي والفني، كما نجح في إتمام الزواج بينها وبين وائل بعد أن أقنع وائل بضرورة الإسراع في ذلك حتى يحقق لهما الشعور بالاستقرار.. وبالفعل تزوجا بشقة وائل وحضر الزفاف كل من شهيرة ونور الدين السكندري وسلوى وأسرتها، وفريد وأسرته وبعض ممن كن تلميذات لشهيرة بمدرسة الرقص، وأيضا يوسف بك بعد أن بذل أدهم جهدا كبيرا في جمع كل هؤلاء؛ ليشعروا ندى بأن لها عائلة وأنها ليست وحيدة. وكان يوما لا ينسى لكل من حضر هذا الحفل، وبهذا اطمأن أدهم عليهما من حيث الزواج والعمل والاستقرار.

أما عن شهيرة، فقد حدثت تغيرات كبيرة أيضا في حياتها وتغيّرت شخصيتها بشكل ملفت، حيث أصبحت أكثر إشراقا وبهاءً وأهدأ نفسا وأطيب خاطرا؛

فبعد أخر لقاء لها مع أدهم، ذهب لزيارة نور الدين السكندري للمرة الثانية في الأستوديو وظل وراءه حتى اعترف له بأنه هو الذي يراسلها وأنه يحبها حبا شديدا ولكنه لا يستطيع أن يكشف لها عن نفسه احتراما لكونها امرأة متزوجة، ولما علم بأمر طلاقها من نبيل، اتفق معه أدهم على التقدم لها بالزواج إن كان جادا في حبها، وفي نفس الشهر كانت شهيرة قد أصبحت زوجة لنور الدين على سنة الله ورسوله.

(٤٢)

بمطار الإسكندرية الدولي، وفي ساحة الانتظار بالخارج، كان أدهم يجلس بجوار فريد بك وطارق ونهى في انتظار الطائرة العائدة من الأراضي المقدسة، والتي تحمل على متنها يوسف بك وسلوى ونازك، بعد عودتهم من أداء العُمرة.
مهمة نجح فيها أدهم كعادته، وهي أن يقنع يوسف بك بالذهاب لقضاء عُمرة من شأنها أن تثرى حالته الروحانية بعد التحسن النسبي في حالته الصحية والنفسية، خصوصا بعد النجاحات التي حققها أدهم مؤخرا مع أبنائه والتغيرات الجذرية التي أحدثها في حياتهم، كما نجح في إقناع نازك بأن هذا هو أوان تلك الخطوة والتي من شأنها أن تساعد في تقدم خطة التغيير التي وضعها من أجلها، أما عن سلوى فكان يرى أن تلك الرحلة ستعود عليها بفائدتين: الأولى هي تحسين حالتها الروحية خصوصا بعد فترة الجفاف الروحي التي قضتها أثناء غياب عاصم عنها وما مرت بها من تجارب أفسدت تلك الحالة تماما، والثانية هي محاولة التقريب أكثر بينها وبين نازك خصوصا بعد ما لمس تحسن العلاقة بينهما وسعى نازك الدائم لرد جميل سلوى على تبرعها لها بالدم ووقوفها بجوارها طيلة الفترة الماضية حتى استطاعت عبور أزمتها.
وصلت الطائرة، ووصل الرجل والمرأتان، واستقبلوهم بحفاوة كبيرة، ولكن كانت هناك مفاجأة لم يتوقعها أحد حتى أدهم، وهي ظهور نازك في زيها الجديد حيث لم تعد من الأراضي المقدسة إلا وهي محجبة؛ فقد أخذت القرار هناك، ونفذته أيضا هناك، إنه الآن أمام نازك جديدة بالفعل شكلا وموضوعا؛ فبعد كل تلك التحولات الكبرى في حياتها وشخصيتها ووجود أدهم إلى جوارها خلق منها إنسانة جديدة في كل شيء أكثر إشراقا وصفاء ونورا، ولقد زادها الحجاب توهجا وجمالا.
وفي أثناء عودتهم جميعا من المطار مستقلين سيارة أدهم وبجواره يوسف بك، وبالخلف يجلس فريد بك وسلوى ونازك، كان يختلس النظر إلى وجهها الجميل في المرآة ويتأملها ويتأمل رحلته معها وتبدلها من حال إلى حال، وعندما

تلتقي أعينهما يبتسم لها بحب وفرح، وتبتسم له بود وامتنان، ولم لا؟ وهو الذي ولدت على يديه من جديد؛ فبعد أخر لقاء لهما عند قلعة قايتباي، وبعد ما وعدها بأنه سيقف بجوارها حتى تعبر أزمتها، أخذها وعرّفها على مديرة إحدى الجمعيات الخيرية لتشارك في عمل يقتل فراغها، ولكنه كان يهدف إلى شيء آخر وهو أن تتعرف فيها على حالات إنسانية غاية في الصعوبة، من نساء ترملن، وأطفال تيتموا، ومرضى يعانون أشد المعاناة، وفتيات فاتهن قطار الزواج، ونساء لم ينجبن وحُرِمن نعمة الأولاد، الأمر الذي جعلها ترى وجها آخر للحياة لم تكن تعرفه أو حتى تدرك وجوده؛ فرأت أنها أفضل حالا بألف مرة من أناس كثيرين؛ فأخذت تقتنع بما هي عليه من حال، وتحمد الله على ما أعطاها من نعم، في الوقت الذي كان يجلس فيه أدهم مع سلوى فيبلغها كذبا بأن نازك تحبها وتقول عنها أشياء طيبة، ويعطيها هدايا من عباءات وأحذية على أنها من نازك، وفي الحقيقة هي منه ومن ماله، ولكنها كانت محاولات منه للإصلاح والتوفيق بينهما. ونفس الأمر كان يفعله مع نازك ويعطيها هدايا مثلها على أنها من سلوى، الأمر الذي جعل كثيرا من البغضاء تزول من النفوس، ويحل محلها حبا صافيا يوصل بينهما، فبدأت نازك تنزل وتساعدها في أعباء البيت وتشارك أدهم في مراعاة يوسف بك، خصوصا في الفترات التي كان ينشغل فيها مع باقي أفراد العائلة، كما وصل الأمر بينهما إلى أنها طلبت من سلوى أن تعلمها الصلاة وقراءة القرآن، ثم أصبحتا تترددان على الدروس الدينية بأحد المساجد الشهيرة بالإسكندرية، كما صحبتها نازك معها إلى الجمعيات الخيرية الكثيرة التي أصبحت عضوا فاعلا فيها؛ لتشارك معها في تقديم المساعدة لمئات الأسر الفقيرة في المجتمع، وهكذا نجح أدهم في أن يضعها في الأماكن التي من شأنها أن تحدث انعكاسا قويا على شخصيتها وتغيّر الكثير من قيمها ومعتقداتها، وكان تحولا مذهلا شهدته العائلة كلها عندما قررت أن تشترى ماكينة خياطة وتعمل عليها في البيت وتبيع من إنتاجها، وتساعد فريد في دخل البيت، كما أنها جاءت ببعض النساء الأرامل التي تعرفت عليهن في الجمعية وعلمتهن الخياطة وأخذن يساعدنها في عملها حتى توفر لهن دخلا كريما لبيوتهن وأولادهن اليتامى، وهكذا ظلت نازك في تقدم مستمر نحو الأفضل بمساعدة مستمرة أيضا من أدهم الذي خطط ودبر وصنع لها كل ذلك ثم دفعها دفعا إليه، وكانت آخر تلك التدابير هي سفرها إلى العمرة لتعود وهي «الحاجة نازك» بعد أن كانت نازك هانم المغرورة حفيدة الباشاوات الإقطاعيين.

أما عن فريد فلقد حصل على فرصة عظيمة بعد خروجه على المعاش للتدريس بالأكاديمية البحرية؛ نظرا لخبرته الطويلة في البحر، مما كان له أثر على

تحسن حالتهم شيئا فشيئا بعد النكبة التي تعرضوا لها.
وصلت السيارة إلى الأنفوشي واستقرت أمام الفيلا ، وصعد الجميع في فرح وبهجة وكان في استقبالهم بالأعلى سالي والتي لم تستطع أن تذهب إلى المطار؛ لحملها الذي بدأ يظهر عليها بعد زواجها من الدكتور وحيد بأشهر قليلة، ولقد أهداها جدها شقة صغيرة بالدور الثالث كهدية زواجها. وأصبحت المنافسة الآن على أشدها بينها وبين نهى ابنة عمتها، والتي تسبقها هي الأخرى في الحمل بحوالي شهر أو اثنين، وأصبح الجميع الآن في انتظار الجيل الجديد من أحفاد العائلة.

أســــــرة بلال

(الأخـــــلاق)

(٤٣)

مـرت أكثـر مـن نصـف سـاعة، وأدهـم مـازال جالسـا فـي سـيارته الصغيـرة علـى الجانـب الآخـر مـن معـرض سـيارات بـلال موتـورز بمنطقـة جليـم، والمملـوك للدكتـور بـلال الابـن الأصغـر ليوسـف بـك وأخـر عضـو فـي العائلـة، منتظـرا مجيئـه وظـل يراقـب المعـرض فلـم يجـد أي حركـة تـدل علـى وجـود أحـد بداخلـه غيـر ذلـك الرجـل الجالـس أمـام بـاب المعـرض الخارجـي، والـذي تـدل ملابسـه وجلسـته علـى أنـه حـارس المكـان.

فكـر أدهـم فـي الذهـاب إلـى هـذا الحـارس وسـؤاله عـن مواعيـد الدكتـور بـلال؛ فمـن الممكـن أن يظـل منتظـرا إيـاه هكـذا وهـو غيـر آت اليـوم. وبالفعـل نـزل مـن سـيارته وعبـر الطريـق فـي اتجـاه الحـارس، ولكـن قبـل أن يصـل إليـه صـك أذنيـه صـوت صـراخ عجـلات سـيارة مسـرعة وهـي تحتـك بالأسـفلت قبـل أن تصدمـه وتلقيـه علـى الرصيـف أمـام الحـارس.

تألـم أدهـم ألمـا شـديدا مـن أثـر الصدمـة، وقـام الحـارس وأجلسـه علـى كرسـيه وسـرعان مـا نـزل سـائق السـيارة وعلـى وجهـه آثـار الذعـر والخـوف وجـرى نحـو أدهـم ليطمئـن عليـه، وعندمـا رآه الحـارس قـال:

ـ لابد وأن ننقله للمستشفى يا دكتور بلال.

ومـا هـي إلا دقائـق حتـى كان أدهـم جالسـا علـى مكتـب الدكتـور بـلال بالمعـرض وجهـا لوجـه معـه، بعـد مـا رفـض أن يذهـب للمستشـفى باعتبـار أن مـا أصابـه بعـض الكدمـات البسـيطة، واختلطـت ابتسـامته بتألمـه، وقـال:

ـ كنـت أعبـر الطريـق بشـوق كبيـر لأسـأل عنـك، ولكـن مـن الواضـح أن شـوقك أنـت كان أكبـر وأقـوى.

ابتسم بلال ابتسامة خجل، وقال معتذرا:

ـ لقد كنت أقود سيارتي وأنا في شدة الغضب.

ـ وما الذي كان يغضبك؟

سـؤال طرحـه أدهـم عليـه آمـلا أن يجـد مدخـلا مناسـبا للحديـث معـه، فصمـت بـلال قليـلا، وكأنـه يسـتعيد صـورة فـي رأسـه، ثـم قـال:

ـ لقـد حـدث شـجار بينـي وبيـن زوجتـي قـرب الفجـر؛ فهددتهـا بأنـي سـأطردها فـي الصبـاح، ثـم تركتهـا وخرجـت، وعندمـا عـدت وجدتهـا قـد أبـت الانتظـار حتـى الصبـاح وتركـت لـي البيـت وانصرفـت؛ فظللـتُ هائمـا علـى وجهـي بالسـيارة مـن وقتهـا لا أعـرف أيـن أذهـب؟ أو مـاذا أفعـل؟ فجئـت إلـى المعـرض فـي هـذه السـاعة المبكـرة علـى غيـر عادتـي.

لـم يسـتطع أدهـم فـي تلـك اللحظـة أن يحـدد، هـل هـي طيبـة وسـذاجة يتمتـع بهـا قلـب

هذا الشاب؟ أم هي رغبة حقيقية في أن يجد من يفضفض له ويلقي عليه مما يحمله ويثقله من هموم حتى وإن كان شخصا لا يعرفه، أو يراه لأول مرة.
كان أدهم يحمل هم هذا اللقاء، ويفكر طويلا في طريقة مناسبة للتعرف عليه، ثم لمدخل مناسب للدخول إلى عالمه، ولكن الأمور سارت على نحو لم يتوقعه حيث تم التعارف بسبب حادث تصادم خدمه كثيرا، وتم الدخول إلى عالمه بمساعدته هو وبمحض إرادته، مما شجع أدهم وملأه بالحماس والأمل، فقال:
- بما أنني لي عندك حق عرب. فما رأيك أن نتمشى قليلا على شاطيء البحر، فأنت تريد أن تتكلم، وأنا ما جئت إلا لأسمع.

(٤٤)

تعددت اللقاءات، وتعددت بها الأسئلة وكذلك الإجابات، واستطاع أدهم أن يوثق العلاقة بينه وبين بلال حتى تكونت بينهما صداقة قوية مكنت أدهم من الاطلاع على كل ما في جعبة هذا الشاب، والحصول على إجابات لكل أسئلته بمنتهى السهولة واليسر، كما مكنته من تكوين وجهة نظر في شخصيته؛ فوجدها شخصية طيبة وساذجة كما توقع، وبسبب هذه السذاجة لم يتمكن هذا الشاب الطائش من اتخاذ قرارات حكيمة في حياته، فأخذ يضيّع ما يجب الحفاظ عليه، ويحافظ على ما ينبغي عليه تركه، كما وجدها شخصية مهزوزة وضعيفة، وليس هذا بسبب حداثة سنه أو مرحلته العمرية كما بدا له، فهو في الثلاثين من عمره، أي ناضج وواع، ولكن لعدم وجود أي قيم أو مثل في حياته، فالانحلال هو القيمة العليا التي على هداها يسير.
وفي نفس الوقت كان بلال قد تعرف على أدهم، وعلم طبيعة عمله مع أبيه ورغبته في أن يعيد له أولاده من حوله مرة أخرى، كما علم أيضا بكل إنجازات أدهم مع إخوته الثلاثة، والإصلاحات الجذرية التي حدثت في تكوينهم وأفرادهم، وكانت كلها مفاجآت سارة له استغرق وقتا طويلا حتى يعيها ويستوعبها ويحاول تصديقها، وكانت كل تلك الأخبار والمفاجآت دافعا له للمزيد من الإفصاح والحكي عن أدق ما يؤرقه في حياته لهذا الرجل المعجزة، والذي حقق أشياءً كانت أقل ما توصف به أنها مستحيلة، وفيما يخص حلم أدهم في إعادة لم شمل العائلة حول أبيه مرة أخرى، كان رده:
- أشكر لك هذه النية الطيبة والشعور النبيل، ولكن الذي لا تعرفه - أو قد تكون عرفته ممن قبلي - أنه كان السبب في تلك الفرقة وذلك الشتات، حتى وإن كان قد رأى أن في ذلك مصلحة لنا ليعلمنا تحمل مسئولية أنفسنا، ولكنه لم يدر ماذا فعلت تلك الفرقة فينا وكم عذبتنا.

كانا يسيران في شارع صفية زغلول بمحطة الرمل في الصباح الباكر كما تعودا، وقبل أن يذهب أدهم إلى عمله مع أبيه، وكان يتأبط ذراعه، وبعد قليل من الصمت سأله قائلا:

ـ ولماذا طردك يوسف بك من البيت ؟

اندهش بلال من سؤاله، وأيقن أنه بالفعل قد تغلغل داخل كيان العائلة بدرجة كبيرة مكنته من معرفة معلومة مثل هذه، ولكن طيبته وسذاجته لم تجعلاه يغضب من ذلك، بل عمقتا من شعوره بأنه وجد الصديق المناسب الذي حُرم منه طيلة حياته؛ فابتسم قائلا:

ـ ياله من يوم، كنت عائدا لتوى من رحلة كانت شاقة بقدر ما هي ممتعة، استغرقت حوالي أسبوع في شرم الشيخ، وعندما عدت نهرني أبي بشدة بسبب تغيبي عن البيت وعن عملي في الجامعة في ذلك الوقت، وبعد مواجهة ساخنة طردني من البيت وأقسم ألا أعود الا عندما أصبح رجلا.

وبشارع صفية زغلول ومع تقاطعه بشارع السلطان حسين، جلسا الإثنان علي المقهى الذي يحمل نفس الاسم ليستريحا من المشي، وليدقق أدهم في بعض المعلومات التي تنقصه ليفهم أمورا كثيرة غامضة فسأله قائلا:

ـ لقد علمت منك قبل ذلك أنك ليس لك أي أصدقاء، فمع من إذن كنت في رحلة شرم الشيخ؟

ابتسم بلال لسؤاله، وكأنه قد توقعه وقال:

ـ كنت مع زوجتي الأولى.

اندهش أدهم للحظات، فهو يعلم أن النساء في حياة الشاب هم أكثر ما يملأها، ولكنه لم يكن يعلم بأمر تلك الزيجة، فقال مستفهما:

ـ هناك أمر يحيّرني.. ما السبب الذي دفعك للزواج وتحمل المسئولية في الوقت الذي كنت فيه شريدا بلا مأوى، خصوصا وأنك لم تكن محروما من النساء؟

ـ السبب الذي تستغرب منه هو نفسه الذي دفعني للزواج، وهو أنني أصبحت شريدا بلا مأوى بعدما طردني أبي، فالمرأة التي كنت معها في شرم الشيخ لم أتزوجها إلا بعد هذه الرحلة، عندما وجدت نفسي في الشارع ولم يكن أمامي سواها.

ـ هل لك أن تحدثني عنها؟

ـ هي قصة غريبة بعض الشيء. كانت سوزان أرملة رجل أعمال ثري، وكانت عجوزا وتكبرني بالكثير من السنوات. كنت قد تعرفت عليها في أحد البارات، وعرفت قصتها وأن أبناءها تركوها وسافروا إلى الخارج ليحققوا أحلامهم وأصبحت وحيدة لا تعرف لها أنيسا سوى كأس الخمر، وكانت تسهر كل ليلة في هذا البار تشرب حتى الثمالة، وبعد أن تعرفت عليها دفعني حبي للنساء أن

أحاول إيقاعها والحصول منها على ميعاد غرامي، فهي على الرغم من كبرها إلا أنها كانت لا تزال مشتهاة، ولكنها كانت أكثر استجابة مما توقعت، فالميعاد تحول إلى رحلة لمدة أسبوع إلى شرم الشيخ، وبعدما طردني أبي لم أجد أمامي أحدا سواها فعرضت عليّ عرضا كان بالنسبة لي سببا في تغيير حياتي كلها، وهو أن أتزوجها وأعطيها شبابي مقابل أن تكتب لي كل ثروتها ـ فهي كبيرة ـ حتى تحرم أبناءها من ميراثها عقابا لهم على أنهم تركوها ولم يسألوا عنها أو يردوا بعضا من جميل تربيتها ورحلتها معهم، وقد كانت امرأة ثرية وتعيش في مستوى راقي جدا، وعلى الرغم من سلوكياتها الخاطئة إلا أن حياتها كان بها الكثير من المواقف الإنسانية التي تجعلك تتعاطف معها، وقبلت العرض وتزوجتها وبالفعل كتبت لي كل ثروتها، وشعرت أنها تعويض لي عما حرمني أبي منه. وفي ليلة شتوية قارسة حاولت الاتصال بإحدى بناتها في الخارج، فحدثتها ابنتها بطريقة قاسية ووبختها وأمرتها ألا تتصل بها مرة أخرى. وكنت قد علمت منها في وقت سابق أن أولادها لا يحبونها بسبب سلوكياتها، ولأنها كانت على علاقة آثمة وغير شرعية برجل قبل وفاة أبيهم؛ مما جعلهم يكرهونها لاعتقادهم بأن معرفته بتلك العلاقة كانت هي السبب في وفاته، ولكنها كانت دائما ما تبكي وتقول أن كل ذلك قد حدث رغما عنها وأن معاملة زوجها السيئة وخيانته لها هي التي دفعتها لذلك. وبعد هذا الاتصال بابنتها ظلت تبكي وتشرب من الخمر ما يفوق كل حد طبيعي، وهو ما لم يستطع سنها أن يتحمله فعدت ليلتها إلى البيت ووجدتها قد أسلمت الروح لله. لم أفرح ولم أحزن أيضا، فطوال رحلتي معها لم أكن أعرف هل كنت أعتبرها مجرد فرصة أو محطة في حياتي أم كنت أتعاطف معها ومع حكايتها المؤلمة.

ـ وهل ضايقك أحد من أبنائها بعد موتها؟

ـ بالعكس، لم أر منهم أحدا حتى الآن، ومن أجل الوفاء لها ولما صنعته من أجلي أرسلت لهم جميعا برقيات عزاء لأبلغهم خبر وفاتها، ولكنهم لم يردوا ولم يأتوا

ومن الواضح أنهم لم يكونوا في حاجة إلى شيء من ميراثها فضلا عن كرههم لها. ومنذ ذلك الحين انتهت فترة من حياتي وبدأت فترة جديدة فافتتحت معرضا للسيارات بجليم وأصبحت صاحب ثروة كبيرة.

ـ وماذا عن زوجتك الثانية؟

كسا الحزن ملامح بلال قبل أن يقول:

ـ إنها إيمان، أطهر وأغلى امرأة في حياتي.

(٤٥)

ـ لو كان في الإسلام رهبانية، لما سميت إيمان إلا راهبة، ولكن الفرق بين رهبنتها والرهبنة في المسيحية أنها تعيش الرهبنة في الحياة ووسط الناس وليس في دير أو مغارة، ولكنها في نفس الوقت تطبق كل تعاليم دينها دون أن يعوقها ذلك عن أي تقدم في العمل أو نجاح في الحياة؛ فهي متديّنة عن غير تعصب، وملتزمة دونما انتماء لجماعة أو فئة معينة، ودائما ما كانت تقول أن الإسلام أكبر وأشمل من أن يختزل في أيديولوجيا أو جماعة.

هكذا وصف بلال زوجته، إيمان راسخ، لأدهم الذي كان لا يصدق أن يسمع مثل هذا الكلام على شخص ارتبط في يوم من الأيام بشخصية مثل بلال؛ فهو يكاد يصف نقيضه؛ فالصورة التي رسمها لتلك المرأة ما هي إلا الصورة النموذجية المبتغاة للمرأة المسلمة الملتزمة بتعاليم دينها عن غير تعصب أو انتماء لأيديولوجيا أو جماعة، وهي المثال المفتقد كثيرا للأخلاق كما يجب أن يكون ويعمم,, ولكن كيف عرفها؟ وكيف تزوجها؟ وكيف اجتمع الانحلال والتجرد من كل القيم والمثل مع الأخلاق وما توجده من رقي وترفع في الشخصية التي تتحلى بها.

ـ وهل تحبها؟

ـ أكثر من أي شيء في حياتي، أكثر حتى من نفسي، لن أكون مبالغا إذا قلت لك أنه من النادر العثور على مثلها وخصوصا في زماننا هذا، ومجتمعنا هذا والذي اختلطت فيه كل الأوراق والمفاهيم والأحوال، ولكنني أضعتها من يدي بسبب غبائي وعدم تقديري للنعمة.

ـ وكيف عرفتها؟

يبتسم بلال للذكرى، ويقول:

ـ قبل عدة سنوات، كنت مارا بسيارتي بالأزاريطة وبالتحديد بشارع سوتير، ومن بين عشرات الطلبة والطالبات المنتشرين أمام أبواب مجمع الكليات، خطف جمالها عيني وقلبي، وشعرت برجفة تسرى في أطرافي لم أدر سببها، كانت تسير مع بعض زميلاتها تضحك وتهزر ولكن بوقار استغربته في باديء الأمر ـ أنا الذي ليس لكلمة وقار مكان في حياتي ـ وعندما كادت تختفي عن أنظاري شعرت بأني لا يجب أن أضيّعها منى، فركنت سيارتي بجوار سور كلية الحقوق ونزلت منها مسرعا لألحق بها، وعلى محطة ترام الأزاريطة ودّعت زميلاتها واستقلت ترام رقم واحد المتجه إلى باكوس، وعلى الرغم من أنني لم أركب هذا الترام من قبل في حياتي، إلا أن إعجابي بها جعلني من الممكن أن أفعل أي شيء حتى وإن لم أكن قد اعتدت عليه قبل ذلك.

انطلق الترام وانطلقت معه مشاعر وأحاسيس من قلبي لم أشعر بها من قبل، كنت راكبا بعربة الرجال، وهي بعربة السيدات، ومن النافذة الموجودة بمؤخرة العربة والمطلة على العربة الأخرى راحت إليها نظراتي،
وعندما لاحظتْ وقفتي ورأت ابتسامتي احمرّ وجهها وركبها الارتباك وارتسم على وجهها الرقيق علامات الضيق والاستنكار، خصوصا بعدما وجدت مني إصرارا على مغازلتها مما دفعها إلى ترك مكانها والذهاب إلى أخر العربة حيث وقفت بجوار إحدى النوافذ ثم أولتني ظهرها، شعرتُ بخيبة أمل ولكنها أشعلت بداخلي التحدي، ظلت عيني تراقبها حتى وجدتها تستعد للنزول، وكانت محطة باكوس، نزلت وراءها وعبرت الطريق حتى قهوة البطل ودخلت شارع محطة السوق وأنا وراءها، لفتت نظري طريقة سيرها الهادئة والوقورة وعينيها اللتين لم تفارقا الأرض إلا للضرورة، وعندما توقفت لتشترى بعض الخضروات والفواكه لمحتني وكنت واقفا على مقربة منها؛ فاستشاطت غضبا وحاسبت البائع بسرعة ثم انطلقت بخطوات ليست هادئة هذه المرة بل مسرعة، مما دفعني إلى أن أجرى خلفها محاولا إيقافها للتحدث معها فلم أجد منها إلا زيادة في السرعة حتى استطعت أن أتجاوزها وأقف أمامها، وما كان منها إلا أن خلعت حذاءها ورفعته في وجهي قائلة:
- إن لم تبعد عن طريقي لعدت إلى بيتك اليوم بلا كرامة.
ولم يمر أسبوع إلا وكنت جالسا في بيتها لأطلب يدها.
- بهذه السرعة؟
- لا تستغرب، فتجاربي السابقة جعلتني أفقد الثقة في كل النساء، حتى رأيتها؛ لذلك لم يكن من السهل أن أفرط فيها.
- وهل تم الزواج سريعا؟
قال ساخرا:
- لم يكن الأمر بهذه السهولة كما كنت أتصور؛ ففي الوقت الذي كنت أشعر فيه بالسعادة وبأنني أولد من جديد، ظهر لي من حاول إعاقتي عن ذلك.
- من هو؟
- أبى، الذي كان يقف أمام كل سعادة في حياتي؛ فلقد غضب عندما علم أنني طلبتها من أبيها دون الرجوع إليه، فأفهمته أنني ذهبت لأحصل على الموافقة الأولية فقط، ثم سألني عن عائلتها، وهنا شعرت بأن كارثة ما ستحدث، وعندما أبلغته بأنها ابنة عامل ومن أسرة بسيطة استشاط غضبا ورفض رفضا لا رجعة فيه لدرجة أنه هددني بحرماني من الميراث في حالة ما إذا تزوجت من ابنة هذه الأسرة الفقيرة، حاولت أن أثنيه عن هذا الرفض ولكن هيهات حتى انفجرت فيه قائلا:

- ما دخل الفقر والغنى في الحب والزواج، المهم الأخلاق، ألم تزوج ابنك فريد من قبل لابنه قبطان مثلك، فماذا كسب؟ وماذا فعلت له غير أنها ركبته وكانت سببا في تعاسته وشقائه؟

ولأول مرة أرى أبى يصمت ويركبه الهم وتركته وأنا عازم ألا أسمح لقوة على الأرض أن تمنعني من الزواج منها، وبالفعل تزوجنا وكانت بداية مرحلة جديدة في حياتي.

- ومتى حدث الخلاف بينكما؟

فأجاب مهموما:

- عندما ظهرت الراقصة صافى في حياتي.

(٤٦)

لم يصدق أدهم ما سمعته أذناه عندما علم من بلال أنه كان يعمل أستاذا جامعيا بكلية العلوم، بعدما سأله عن سر كلمة دكتور التي يناديه بها بعض الناس. هل هذا معقول؟ هذا الشاب الذي لا يعرف في دنياه سوى الخمر والنساء كان مربيا لأجيال في واحدة من أهم الكليات العلمية؟

- كيف كان ذلك؟

هكذا كان سؤاله، وهكذا أجاب بلال:

- كنت منذ صباي أحلم بالسفر حول العالم، وظل هذا الحلم يكبر بداخلي كلما كبرت وتقدم بي العمر وعندما آن أوان تحقيقه تحطم على صخرة رفض أبى كعادة كل حلم في حياتي. كنت أتمنى دراسة الطيران بالخارج، كنت أتخيل نفسي دائما وأنا أحلق في السماء كطائر حر طليق، وبحجة الخوف عليَّ رفض أبى أن يجعلني أدرس الطيران سواء بالخارج أو حتى بالداخل وعندما خيرني بين الطب والعلوم اخترت الثانية لعدم توافق الأولى ورغباتي. وعلى الرغم من أنها لم تكن حلمي إلا أنني أحببتها وقررت أن أتميز بها خصوصا أنني كنت بقسم الحاسب الآلي، وقد تكلل هذا التميز بتعييني معيدا بها بعد التخرج، ولكنني سرعان ما فصلت منها.

- وما السبب؟

- في هذه الأثناء كنت قد أعجبت بإحدى الطالبات الجالسات أمامي، وظللت أتابعها باهتمام في كل محاضراتي، وذات يوم كنت قد شربت الكثير من الخمر قبل مجيئي إلي الكلية بعد ليلة حمراء قضيتها بصحبة تلك المرأة العجوز التي تعرفت عليها حديثا في أحد البارات وسافرت معها إلي شرم الشيخ - والتي أصبحت زوجتي بعد ذلك - ودخلت القاعة لألقى المحاضرة ولكن الخمر كانت

قد لعبت برأسي إلى حد كبير، وعندما رأيتها جالسة أمامي صور لي عقلي المخمور أنها عارية وتناديني؛ فذهبت إليها وحاولت احتضانها وتقبيلها بالقوة.. الأمر الذي دفع بعض الطلبة والأمن إلى الإمساك بي وتخليصها من بين يديّ، وكل هذا وأنا لا أعي أي شيء مما يصدر منى أو يدور حولي،وتحولت إلى التحقيق وفُصلت من الجامعة بفضيحة نكراء.

كان أدهم يستمع إلى حديث الشاب، والاستغراب يملؤه؛ فحياته مليئة بالأسرار والمتناقضات ليس فقط على مستوى شخصيته وشخصية زوجته، بل حتى على مستوى حوادث حياته الغريبة، من الثروة التي حصل عليها جرّاء زواجه من امرأة مسنة، أو عمله بكلية من كليات القمة أستاذا بها ثم فصله منها بسبب محاولة اعتدائه على فتاة.. أمور متناقضة تصيب من يسمعها لأول مرة بالدهشة والاستغراب، ولكن وقبل أن يفكر أدهم في محاولة إصلاحه أو تغييره وتغيير حياته، كان لابد وأن يعرف أولا ما هي قصة الراقصة صافى؟ وكيف دخلت إلى حياته؟ مما تسبب في تعكير صفو علاقته بزوجته وإعادته إلى حياة اللهو والمجون مرة أخرى.

ـ وماذا عن حكاية تلك الراقصة؟

تنهد بلال ثم سرح بخياله وقال:

ـ كنت جالسا ذات مرة بمعرض السيارات، وإذ بامرأة أقل ما توصف به أنها فاتنة تدخل عليّ وبصحبتها رجل قصير، علمت بعد ذلك أنه مساعدها ويدعى فلفل، وقبل أن تصل إلى مكتبي كنت قد فحصتها بعيني الخبيرة في النساء وعلمت من طريقة سيرها ولون شعرها وماكياجها أنها لابد وأن تكون راقصة. جلست أمامي على المكتب وجلس مساعدها وتعارفنا وعلمت أنها جاءت لتشترى سيارة جديدة، وعلى الرغم من البهرجة التي تحيطها إلا أنني لاحظت في لكنتها شيئا من

الشعبية السكندرية القديمة وأكد لي ذلك بعض الكلمات والألفاظ التي تعبر عن ذلك مثل «أيووه يا جدعان» وما نحو ذلك، ولا أخفيك أنها استطاعت بنظرة واحدة أن تعيد إلى قلبي الشغف بالنساء على الرغم من أنني منذ زواجي لم أقرب امرأة غير زوجتي. وكان نوع السيارة التي طلبتها غير موجود عندي ولكني وعدتها أن أبحث لها عنها وستكون عندها في وقت قريب، وكان ذلك اللقاء كافيا لبداية علاقة بيني وبينها، خصوصا على خبير مثلي بدنيا النساء، وعلى راقصة لا تحتاج إلى طرق ملتوية للإيقاع بها، المشكلة الحقيقية تكمن في أن ظهور صافى في حياتي تزامن مع حدوث شرخ في علاقتي بإيمان.

ـ وما سببه؟

ـ منذ بداية زواجي وأنا أنتظر بفارغ الصبر اليوم الذي ستلد فيه زوجتي وأكون

فيه أبا، كنت أشعر أن الإحساس بالأبوة سيزيد من إصلاح حالي وحياتي ولكن بعد ما وضعت زوجتي بنتا ورضيت بها، اكتشفنا أنها من ذوى الاحتياجات الخاصة.

تفاجأ أدهم بتلك المعلومة فسأله:

ـ وماذا فعلت زوجتك؟

ـ قالت الحمد لله.

ـ وماذا فعلت أنت؟

ـ تركت لها البيت أسبوعا..

كانت صدمتي كبيرة، فبعد ما انتظرت كل هذا الانتظار أفاجأ بأني أصبحت أبا لفتاة متأخرة عقليا، أي عذاب هذا؟ ومنذ تلك اللحظة حدث شرخ في علاقتنا، غضب من ناحيتي بسبب تلك الفتاة، وحزن من ناحيتها بسبب موقفي هذا، لدرجة أنها اختارت للفتاة اسما غريبا بعد ما رفضت أنا تسميتها.

ـ وماذا أسمتها؟

ـ أسمتها هدية.

"ما أجمله من اسم، إن تلك المرأة بداخلها إيمان عميق بالله، كم تشتعل فيّ الرغبة للقائها كلما سمعت شيئا عنها"

هكذا قال أدهم في نفسه، ولكنه سرعان ما عاد إلى الحديث عن الراقصة مرة أخرى، وقال:

ـ لنعد إلى صافي؟

ـ تطورت العلاقة بيني وبين صافي بشكل ملحوظ لدرجة أنني ما كنت أفوّت ليلة بدون السهر معها سواءً في البار الذي كانت ترقص فيه بفندق ميركيور بسابا باشا، أو حتى بعد ذلك في شقتها الفاخرة بشارع الإقبال، ولم تقف العلاقة بيننا عند حد السهرات الحمراء فقط بل تطورت إلى حب متبادل خصوصا من ناحيتها.

استغرب أدهم من الحديث عن الحب بينه وبين الراقصة، وتراءت له بعض الظنون ولكي يؤكدها لنفسه سأله قائلا:

ـ وهل تغدق عليها بالمال؟

ـ لا تطلب منى شيئا إلا ويكون تحت رجليها في الحال حتى وإن كان غاليا جدا.

هنا أومأ أدهم برأسه بعدما تأكدت له ظنونه.

(٤٧)

في غرفة الصالون بمنزل إيمان راسخ، بباكوس جلس أدهم ينتظر، وبعد قليل دخل عم «فؤاد راسخ» والدها يحمل صينية عليها كوبان من الشاي، عم فؤاد رجل طيب وقور، أول شيء تلمحه في وجهه هو «زبيبة» صلاة تعلوه كقنديل ينيره، وجسد قصير ممتلىء، ولحية صغيرة بيضاء تلف وجهه وتزيده نورا وضياءً.. لا تبدو عليه علامة لخبث أو لؤم، بل هو من النوع الذي تحبه منذ أن تراه، ولا تمل حديثه إذا ما استمعت إليه، ورغم كل هذا الصفاء إلا أن أدهم لاحظ بخبرته مسحة من هم أو حزن تسكن ملامح وجهه لم تستطع ابتسامته ولا ترحيبه أن يخفياها، فوجدها أدهم مدخلا مناسبا للحديث فقال:

ـ ما شاء الله، راحة غريبة احتلت نفسي منذ دخولي بيتكم الكريم، ورؤية هذا الوجه المضيء والذي لا يشوب ضياءه سوى مسحة من هم تسكنه.

وضع عم فؤاد صينية الشاي على منضدة صغيرة أمام أدهم ثم جلس وندت عنه تنهيدة قبل أن يقول:

ـ الحياة يا ولدى صراع وكبد، والعمل يلتهم العمر التهاما، ولا نرث منه سوى الهموم والمشاكل.

ـ وأين تعمل؟

ـ كنت حتى وقت قريب وقبل أن يدب الشيب في أوصالي عاملا بشركة النحاس المصرية الموجودة بحجر النواتية منذ أكثر من ثلاثين عاما، أي قبل أن يصيبها عطن الفساد ويلتهمها الكبار.

أراد أدهم أن يستغل شهية الرجل في الحكي وأن يتيح له ذلك حتى يقترب منه أكثر، خصوصا وأن الرجل يعرف أدهم مسبقا ويعلم سبب زيارته من المكالمة الهاتفية التي أجراها معه بالأمس قبل الاتفاق على موعد تلك الزيارة؛ فسأله قائلا:

ـ من تقصد بالكبار؟

فقال الرجل بألم ومرارة:

ـ الكبار الذين امتصوا خيرنا وخير بلدنا، سأحكى لك القصة من بدايتها علك تشاركني ألمي وحزني لأنها مثال على كل ما آلت إليه ممتلكاتنا العامة، كانت شركة النحاس المصرية مقسمة إلى قطاعين، أحدهما لإنتاج الصلب والآخر لإنتاج النحاس والألومنيوم، وكانت واحدة من الشركات الرائدة في الشرق الأوسط، وكانت تساهم في مد القوات المسلحة في حروبها، كما كان لها العديد من فروع البيع في جميع أنحاء الجمهورية بل وفي بعض الدول العربية مثل السعودية وليبيا، وكان إنتاجها من الألومنيوم الخاص بالمنازل يُعد من

أرقـي الأنـواع فـي العالـم، كمـا كانـت تقـوم الشـركة بإرسـال العمـال الفنييـن إلـى الـدول العربيـة، وخاصـة ليبيـا للمسـاعدة فـي الإنشـاءات العملاقـة وتصديـر أرقـي أنـواع الحديـد، وكنـت أنـا واحـدا مـن هـؤلاء العمـال الذيـن سـافروا إلـى تلـك الـدول، والشـركة تطـل علـى ترعـة المحموديـة والتـي تعرضـت هـي الأخـرى لمـا تعرضـت لـه الشـركة، فأصبحتـا تشـكيان همهمـا لبعضهمـا وتنعيـان زمانـا ولـى كانـا فيـه فـي عزهمـا، وفخـرا لوطنهمـا، وكانـت الشـركة فـي أيـام خيرهـا وعزهـا تقـوم بذبـح العجـول وتوزعهـا علـى العامليـن والأهالـي الفقـراء وكذلـك كانـت لنـا وجبـة سـاخنة يوميـا ممـا كان يزيـد مـن شـعورنا نحـن العمـال البسـطاء بالانتمـاء لهـا وبالتفانـي فـي عملنـا حتـى نرفـع مـن شـأنها، ولكـن ولـي علينـا مـن لا يحملـون فـي قلوبهـم ذرة مـن حـب أو إخـلاص لوطنهـم فعملـوا علـى إضعافهـا شـيئا فشـيئا حتـى يسـهل عليهـم اقتناصهـا وبيعهـا بأبخـس الأثمـان، وتحولـت الشـركة مـن قلعـة صناعيـة كبـرى إلـى مـا لا أسـتطيع وصفـه بكلمـات.

قال أدهم بانفعال واضح:

ـ ولماذا لم تدافعوا عنها؟

ـ ومـن قـال أننـا لـم نفعـل، لقـد حاولنـا بـكل قوتنـا ولكـن مـن كان يسـمعنا أو يعيرنـا اهتمامـا نحـن العمـال البسـطاء، مـن

منـا كان يسـتطيع أن يقـف أمـام الحكومـة ويمنـع قـرار الخصخصـة والـذي كان بقانـون ٢٠٣ لسنة١٩٩٨، والـذي كان بداية النهايـة لهذا الصـرح العظيم، فبعدهـا لـم يكـن أحـد يعيرهـا أو يعيرنـا أدنـى رعايـة أو اهتمـام، فأصابتنـا جميـع الأمـراض مثـل الروماتيـزم والحـروق والتشـوهات بأماكـن متفرقـة بالجسـم خصوصـا فـي عنابـر صـب الحديـد المنصهـر، ومنـا مـن لقـي حتفـه، وكثيـر منـا أصيبـوا بعاهـات مثـل بتـر الأطـراف أو الأرجـل ولـم يكـن هنـاك رعايـة أو حتـى مقابـل بحجـم الفقـد، الأمـر الـذي قلـل مـن شـعورنا بالانتمـاء إليهـا ومـن تفانينـا فـي العمـل ممـا عـاد علينـا وعليهـا بالاضمحـلال المسـتمر.

ـ والآن ما وضعها؟

ـ مـن كان يريـد الحصـول عليهـا هـي مجموعـة (ط.م)، وكان قبـل اتهـام رئيـس مجلس إدارتهـا (هـ.ط.م) فـي قضيـة مقتـل فنانـة مشـهورة بحوالـي شـهر أو يزيـد تقدمـت المجموعـة لشـراء أرض شـركة النحـاس بالإسـكندرية والتـي تبلـغ مسـاحتها٨٠ فدانـا عـن طريـق مزايـدة طرحتهـا الشـركة القابضـة للصناعـات المعدنيـة. مالكـة الأرض ـ وإمعانـا فـي الشـفافية ثـم العـرض فـي شـكل مزايـدة ممـا يتطلـب تقـدم شـركات أخـرى لمنافسـة تلـك المجموعـة حتـى تظهـر وكأنهـا منافسـة شـريفة، وبالفعـل تقدمـت شـركتان للمنافسـة عليهـا وتقدمـت المجموعـة للصفقـة بسـعر وصـل لمبلـغ ١٣٠٠ جنيـه للمتـر، بينمـا تقدمـت إحـدى الشـركتين بمبلـغ ألـف جنيـه للمتـر والأخـرى بسـعر

٥٠٠ جنيه للمتر، وبالطبع كل هذه العروض ما هي إلا مسرحية هزلية اتفقت عليها الشركتان مع المجموعة حتى يمكناها من الصفقة باعتبار أنها تقدمت بالسعر الأعلى، وهو ما يعنى أن سعر الأرض وفقا لهذه العروض الوهمية سيصل إلى ٤٣٦ مليونا و٨٠٠ ألف جنيه، بينما سعرها الحقيقي وفقا لمعايير السوق يصل إلى ٣ مليارات و٣٦ مليون جنيها، وبذلك سيتم اغتيال الشركة العريقة للمرة الثانية بعد أن اغتيلت المرة الأولى بالخصخصة، هل رأيت العفن الذي نعيش فيه؟ والهم الذي في قلوبنا نحن العمال البسطاء، ونحن نرى ما بنيناه في سنوات ينهار بجرة قلم؟

اغتم أدهم مما سمعه من عم فؤاد، وشاركه ألمه وحزنه، فهي كما قال مثال على كل ما آلت إليه ممتلكاتنا العامة في عصر يمكن أن نسميه أزهى عصور الخصخصة، فقال بعد أن ارتشف أخر ما في الكوب.

ـ ما كادت مصر تفيق من انفتاح السادات، حتى أجهزت عليها خصخصة مبارك.

ـ السبب الوحيد في رأيي لكل ما حدث ومازال يحدث لنا هو انعدام الأخلاق والمثل والعمل على وأدها من المجتمع بشكل منظم ومدروس، وزرع الانحلال كقيمة في النفوس فتكونت نتيجة الانفتاح طبقة لا تعرف من الأخلاق سوى أحطها، وتتخذ من الانحلال دستورا لحياتها وما أن أتيحت لهم الفرصة لامتطاء السلطة وساعدتهم الخصخصة عاثت في الأرض فسادا.

حاول أدهم تقليب كلام الرجل في رأسه ثم أومأ له تصديقا عليه وقد ذكره الحديث عن الأخلاق بالدكتور بلال وزوجته وسبب زيارته فشحذ من همته، وقال:

ـ والآن تعال نفكر كيف يمكننا أن نعيد المياه بين إيمان وبلال إلى مجاريها.

(٤٨)

عبر أدهم بسيارته ميدان الخرطوم وكليتي الطب والصيدلة، ثم دخل أحد الشوارع المتفرعة من شارع السلطان حسين، وتوقف أمام بنك فيصل الاسلامى، وعندما دخل البنك سأل عن مكتب المحاسبة إيمان راسخ، وبعد عدة دقائق كان يجلس أمامها وجها لوجه.

كانت إيمان تنهي بعض الإجراءات لأحد العملاء، وفي أثناء ذلك كان أدهم يتأملها جيدا، فانبهر بما رآه فيها من أدب جم، ووقار رزين، وحديث لبق، وجمال ملحوظ حدّت من شراسته تربيتها العالية وأخلاقها الكريمة، فتلك عينان خضراوان تشعان صفاءً ونورا، وهذا حجاب يلف وجهها فيمنحه استدارة تزيد

من توهجه، وتلك عباءة فضفاضة تغطي جسدها وتحفظه من الأعين المتلصصة مما يجعله غاليا وعزيزا.
وأكثر ما لفت نظره فيها هو خفتها ورشاقتها في الحديث والعمل بلا أي تزمت أو انغلاق، كانت مثالا حيا لوسطية الإسلام، والتي كان يؤرق أدهم اختفاؤها من مجتمعنا، مما جعل الأمر يزداد تعقيدا بين التعصب الشديد والسفور الحاد، وهذا كان سر إعجابه بها كنموذج للمرأة المسلمة يتمنى تعميمه.
كانت تلك الزيارة بناءً على موعد سابق حدده أدهم بالتليفون، وسرعان ما تم التعارف بل والتقارب لأن أباها كان قد أخبرها بزيارته لهم بالبيت وسببها، مما قصّر عليهما الطريق، فقال بابتسامة سبقت حديثه:
ـ الحقيقة أنني تمنيت لقاءك قبل أن أراك نظرا لما سمعته عنكِ.
ابتسمت مبتهجة وقالت:
ـ أتمنى أن يكون ما سمعته خيرا.
ـ هو كذلك بالفعل؛ فالبيت الذي خرجتِ منه والسمت الذي رأيتك عليه لا يعبران إلا عن كل خير.
أصابها الخجل فاحمرّت وجنتاها، ولم تجد ما تقوله، ولكن أدهم سرعان ما امتص خجلها ودخل في الموضوع مباشرة، وقال:
ـ أنتِ تعلمين هدف زيارتي، فهل لكِ أن تساعديني على تحقيقه؟
تبدل الخجل على ملامح وجهها الرقيق بالحزن قبل أن تقول:
ـ لن أخفيك سرا أنني أتمنى تحقيقه أكثر منك، أنت لا تعلم مدى المعاناة التي أعانيها وأنا بعيدة عنه، ومدى ما أتعرض له من مضايقات تصل أحيانا إلى التحرش اللفظي والجسدي، في الشارع والمواصلات وحتى في العمل، أعين الناس لا ترحم لا الأرملة ولا المطلقة ولا حتى المحجبة، ولولا إيماني بربي وتمسكي بديني وأخلاقي، لما استطعت أن أصد عني كل هذا، فضلا عن افتقادي له كزوج وحبيب، ولقد حاولت كثيرا أن أغيّره، ولكنه للأسف الشديد كان يتغيّر لفترة قصيرة ثم يعود لما كان عليه.
ـ إنني أقدّر جدا كل ما قلتِ وأتفهمه، وأعلم مدى التناقض الشديد بين شخصيتك الخلوقة وشخصيته المنحلة، وهذا ما ولد الصراع بينكما. ولكن من معاشرتي له وتحليلي لشخصيته وجدت أنه يفتقد في حياته أهم عنصر وهو الأمان، خصوصا أنه بسبب تلقيه لأسلوب تربية خاطيء حرمه من كل ما أراده وتمناه، وتعدد العلاقات غير الشرعية التي مر بها، ولدا بداخله أزمة ثقة سواء في نفسه أو فيمن حوله، وظل يبحث عن هذا الأمان كثيرا حتى وجدك، فاختارك لمعايير لم يجدها في أحد سواك من قبل، فأحبك وشعر معك بهذا الأمان، ولكن مع مرور الوقت اكتشف أنك نموذج مناقض له تماما وشعر بالتضاد

الكبير بينكما سواء في تربيتك أو أخلاقك أو سلوكياتك، الأمر الذي أعاد إليه الشعور بعدم الأمان مرة أخرى، كما أعاد إليه أزمة ثقته بنفسه لشعوره بأنك أقوى إيمانا منه فتحجج بأن الفتاة التي رزق بها متأخرة عقليا ليفتعل المشكلات، وحاول إثبات ثقته بنفسه عن طريق شخص آخر، وهذا هو الدور الذي لعبته الراقصة صافي.

كانت إيمان تتلقى حديثه بمزيج من الاستغراب والإعجاب، وكأنه يمسك بكتاب مفتوح ويقرأ ما فيه بدقة واقتدار فقالت بلهجة تحمل نفس المزيج:

ـ ما شاء الله عليك. لقد حللت شخصيته بشكل أعجز عنه أنا زوجته، ويعجز عنه أقرب أقربائه.

ابتسم لإطرائها ولكنه لم يعقب، فصمتت قليلا ثم قالت:

ـ لقد تربيت منذ صغري على السماح والغفران حتى لمن يسيء إليّ لأننا جميعا بشر خطاءون، فكنت أراه كل ليلة يعود سكرانا تفوح منه رائحة الخمر، وأرى تلك الراقصة من النافذة وهي توصله بسيارتها، فأشعر بجرح في كرامتي ولكنني ظللت أدعو له بالهداية، وذات ليلة لم أحتمل فانفجرت فيه موبخة إياه على أفعاله وهددته بترك البيت إن لم يصلح من نفسه، وكأنه كان ينتظرها ـ وفقا لتحليلك ـ فأبلغني بأن أرحل في الصباح إلى بيت أهلي، ولما لم أعد أطيق الوجود معه وهو على هذه الحال، فلم أنتظر الصباح، وبعد نزوله خرجت قبيل الفجر بقليل ودموعي إلى بيت أهلي تسبقني، ولكنني ورغم كل هذا على استعداد لأن أعود إليه ولكن بشرطين..

فرح أدهم بهذا النصر فسألها متحمسا:

ـ وما هما؟

ـ أن يقطع علاقته بتلك الراقصة بشكل نهائي، وأن يتقبل ابنتنا بقبول حسن.

لم يكن هذا أخر لقاء يجمع أدهم بها أو بأسرتها، فتعددت الزيارات واللقاءات، وتعرّف إلى هدية، تلك الفتاة الصغيرة والجميلة وأغرقها بالهدايا واللعب والعرائس مما جعلها تتقرب منه وتحبه، وكان يلعب معها كلما زارها ببيت جدها، واكتشف أنها ذكية للغاية، ولديها قدرات عقلية وذهنية كبيرة جدا، فجلب لها لعبة البازل وعلمها طريقة اللعب وأخذ يراقبها وهي ترتب القطع بجوار بعضها لتركب الصور حتى أنها استطاعت تركيب أصعبها، فأخذها وأمها وقدما لها بإحدى دور الرعاية الخاصة بمثلها، حتى تحتك بمن في مثل سنها وتتلقى برامج وتدريبات تساعدها على النمو بشكل طبيعي، كما وعد أمها بالعمل على تحقيق شرطيها حتى يعيدها إلى زوجها مرة أخرى، وكانت أول خطوة في سبيل ذلك هي أن يكشف صافي على حقيقتها أمام بلال.

(٤٩)

عندما انتصف ليل الإسكندرية، كان أدهم يجلس ـ ولأول مرة في حياته ـ بالبار الموجود بالدور الثاني بفندق ميركيور رومانس، بسابا باشا على البحر، وقد تعمّد أن تكون لحظة دخوله هي نفس لحظة انتهاء رقصة صافي أمام الجالسين في هذا البار الصغير الضيق حتى لا يأخذ وقتا طويلا بالداخل مما يضطره أن يشرب ما لا يريد أو يحب أن يشربه، كان مرتديا بدلة سوداء أنيقة زادته هيبة وبريقا، وبعد أن جلس نادى الجرسون وأخرج من جيبه قلما وعملة ورقية فئة المائة دولار ـ كان قد أخذها من بلال ـ كتب عليها بقلمه:

"إلى صافى جميلة الجميلات"

ثم ناولها للجرسون وطلب منه أن يوصلها لصافي في يدها، سال لعاب الجرسون عندما رأى الورقة الخضراء، فأخرج أدهم ورقة أخرى فئة العشرة دولارات، وأعطاها له كبقشيش على أن ينجز مهمته سريعا، وقبل أن تنشغل صافي بزبون آخر، وأسرّ في أذنه ببضع كلمات انطلق على أثرها وذهب مسرعا إلى حيث غرفة صافي.

وبعد أقل من ربع الساعة كان أدهم بجوار صافي في سيارتها متجهين إلى شقتها بشارع الإقبال بلوران.

كان أدهم قد اتفق مع بلال على أن ينتظره بشقتها وهو سيأتي بها إليها وسيثبت له أنها لا تحبه ولا تخلص له ولا تعرفه إلا من أجل ماله وثروته. وقتها ضحك بلال وقهقه عاليا لدى سماعه هذا الكلام وقال:

ـ عفوا لا تغضب مني. ألا ترى أنها وسعت منك بعض الشيء؟

فابتسم أدهم ابتسامته الهادئة وقال بثقة:

ـ إذن دعنا نرى، والمياه دائما تكذب من يدعي الغطس.

وها هو قد حقق ما أراد، ويجلس بجوارها في سيارتها، وذلك لأنه يعلم تمام العلم أن صافي ومن على شاكلتها لا هم لهن في الحياة سوى المال؛ فهو الذي من أجله يتعرين ويرقصن ويتنقلن بين أحضان الرجال، وقد أحسن اختيار المدخل إليها عندما أرسل لها الورقة الخضراء مما يوحي بأنه من الأثرياء، كما نجح في تلقين الجرسون ببضع كلمات مفادها أنه رجل أعمال مصري يعيش بالخارج وموجود بالإسكندرية لليلة واحدة ولا يريد أن ينزل بفندق طالما أن شقة صافي موجودة، ونجحت تلك الكلمات في اصطيادها.

ـ سترتاح عندي كثيرا.

قالتها وهو جالس بجوارها بلهجة لم تخل من إباحية، فقال مجاراة لها وبلهجة لا تقل إباحية عنها:

ـ بالعكس ستكون ليلة مرهقة للغاية.

ضحكت ضحكة خليعة لم يستغربها أدهم، خصوصا بعد ما علم من بلال قصتها كاملة قبل أن يلقاها، وعلم المستنقع التي هي ساقطة فيه، وحياة الانحلال التي تحياها ويحياها بلال معها، فلقد أخبره بأنها كانت متزوجة من رجل فقير بأحد المناطق الشعبية القديمة بالإسكندرية وهى منطقة كرموز، يعمل نجارا مسلحا ويدعى عزوز، وكانت تعيش معه حياة صعبة وقاسية حيث لم يكن يصرف عليها ويضيّع كل ما يكسبه على الحشيش والأفيون، وذات ليلة أقيم بالشارع الذي يسكنون فيه فرح شعبي لجارتها وإحدى صديقاتها، وعندما صعدت إلى المسرح لتهنئة العروس جذبتها إحدى الفتيات لترقص معها، فشعرت بحرج شديد واحمرّت وجنتاها حيث كانت المرة الأولى التي تتجرأ وتهتز فيها أمام أحد غير زوجها، وحاولت أن تبحث عنه بعينيها لترى وقع هذا الطلب عليه، ولكنها فوجئت به مبتسما بفخر وغير معترض، فبدأت في الرقص، وتعلقت كل العيون الموجودة سواء بالشارع أو أمام المسرح، أو التي في الشرفات، بهذا الجسد اللولبي الفاتن وحركاته الساحرة والتي لطشت العقول أكثر من الخمر والأفيون، ومنذ ذلك اليوم ترك زوجها صنعته وتفرغ لها وعرض عليها أن ترقص بالأفراح بمقابل مادي وهو سيكون حارسها. كانت مفاجأة لها، فرفضت وغضبت، وفي النهاية لم تجد بدا من الرضوخ لأمره ولكنها كرهته من داخلها واحتقرته وتبدد من قلبها أخر ما تبقى فيه من مودة له، وتألقت صفية ـ هكذا كان اسمها ـ وذاع صيتها وبدأت الانتقال تدريجيا من الأفراح الشعبية إلى القاعات المتوسطة فالفخمة حتى وصلت إلى الفنادق، وهناك تعرفت على متعهد حفلات ثري أعجب بها وعرض عليها الزواج، وكانت فرصتها التي انتظرتها طويلا لتتخلص من عزوز الذي باعها وجعلها سلعة تباع وتشترى أمام عينيه دون أن يحرك ذلك فيه شيئا من شعور أو غيرة طالما أنها أصبحت مصدرا يكسب منه المال الوفير والذي يصرف منه على مزاجه، فقتل فيها ما تربت عليه فى صغرها من أخلاق وقيم مقابل ثمن زهيد، فتخلصت منه تحت ضغط من رجلها الجديد وألقت إليه ببعض المال ولكنه عزم في نفسه على قتلها، ونقلت إلى مستوى أرقى وأعلى ساعدها على بلوغه زوجها الثاني كمتعهد للحفلات، وما أن وصلت لما تريد كان مصيره كمصير الأول عندما عشقها وزير، فأطاح بسلطته، زوجها من أمامه، وأصبحت حرة تتنقل بين الأحضان المختلفة سعيا وراء المال دون أن تتقيد بزواج، ولا تزال تواصل طريقها ويأخذها طموحها إلى طرق أبواب عالم السينما والفن من خلال بعض المنتجين الذين يسهرون أمامها كل ليلة ويتمنون تقديم فروض الطاعة بين يديها.

كان أدهم ينظر لها على أنها نصف ضحية ونصف جانية، ألقاها زوجها على

قارعة الطريق وأكملت هي المسير.
دخلا الشقة، واستأذنته لتبدل ملابسها، فأخذ يتجول في الصالة الفسيحة الأنيقة ولاحظ الرقي الذي ينطق به كل ركن فيها، حتى فوجيء بصورة لبلال معلقة على الحائط في برواز أنيق.
وبعد دقائق جاءت وبصحبتها خادمة أجنبية تدفع أمامها عربة صغيرة عليها زجاجة خمر وكأسان وبعض أطباق المزّات. حاول أدهم أن يجد مخرجا من تلك الورطة حيث أنه لا يشرب الخمر أبدا فتظاهر بأنه يريد دخول الحمام للتقيؤ، وبالفعل ذهب واصطنع أنه يتقيأ ثم عاد واضعا يده على بطنه، ثم قال:
ـ من الواضح أنني أصبت ببرد في معدتي، لذلك اعفني من الشراب.
فقالت بابتسامة وقحة:
ـ وهل سأعفيك من أشياء أخرى؟
فابتسم وقال مغيرا الحديث، وهو يشير إلى صورة بلال:
ـ صورة من هذه؟
فجلست بجواره، واقتربت منه محاولة إثارته:
ـ دعك من الصورة.. خلِنا في الأصل.
انتابه بعض الارتباك، خصوصا وهو يعلم أن بلال موجود بالشقة ويسمع حديثهما، لذلك تزحزح قليلا، وقال:
ـ لديّ رغبة شديدة في التعرف عليك وعلى حياتك.. هل هو زوجك؟
وعاود الإشارة إلى الصورة؛ فقالت وهي تصب كأسا لنفسها:
ـ إنه رفيقي.
ـ وهل يعيش معك؟
ـ أغلب الوقت.
التمعت عيناه بالمكر قبل أن يقول:
ـ وهل تحبينه؟
صدمها السؤال، ولكنها التفتت إليه، وقالت بحزم:
ـ أنا لا أحب سوى المال.
سعد أدهم بتلك الإجابة وشعر أنه اقترب من غايته، فضغط عليها أكثر وقال:
ـ وكيف ترافقين شخصا لا تحبينه؟
فاقتربت منه في دلال، وقد بدأت الخمر تلعب برأسها، وقالت:
ـ أنه مخزني الاستراتيجي الذي أعتمد عليه حتى لا أتعرض لثروتي.
وبمزيد من المكر سألها:
ـ وهل هو يعلم ذلك؟
وبمزيد من الدلال أجابت:

- هو من السذاجة لدرجة اعتقاده بأنني أحبه، وما هو إلا محطة سيأتي يوم وأتجاوزها.
هنا ظهر بلال كالإعصار، مما فاجأ أدهم قبل صافي، وأمسك بها كالمجنون وأخذ يكيل لها الضربات من كل مكان، حتى كادت تموت بين يديه، وأدهم حاول بكل ما أوتي من قوة أن يحول بينه وبينها، حتى صرخت فيه قائلة:
- أيها المجنون الساذج، اغرب عن وجهي واخرج من بيتي.
فقال بلال بعصبية بلغت مداها:
- أيتها الخائنة، هل كنت تمثلين عليّ الحب كل هذه المدة؟
فضحكت بهستيرية، والدموع والدماء تملأ وجهها:
- بل سذاجتك صوّرت لك أن مثلي يحب ويصون، وأنت تعلم أين أسهر كل ليلة ومع من.
لم يجد أمامه سوى الصمت، كان يشعر بأن جبلا ثقيلا يجثم على صدره، فسحبه أدهم وانصرفا، وإلى أقرب مسجد انبعث منه أذان الفجر أخذه أدهم، ومع إشراقة يوم جديد، كان قد ولد بلال جديد.

(٥٠)

أيام وشهور مرت، تغيرت فيها كل العائلة تغيرا جذريا عما كانت عليه قبل ظهور أدهم في حياة أفرادها، فاليوم الكل مجتمعين بمدرجات نادي الاتحاد السكندري بالشاطبي لحضور أول مباراة يشترك فيها حمادة بعد انتقاله مع مدربه من النادي الأوليمبي إلى فريق الناشئين بالاتحاد السكندري، حيث أظهر أداءً متميزا جعله محط أنظار الجميع، فحضرت أمه سلوى وأبوه عاصم، وقد تغيّرت حياتهما كثيرا بعدما اشترك عاصم مع نسيبيه فريد وبلال في تأسيس شركة استيراد وتصدير اختاراه ليصبح رئيس مجلس إدارتها لخبرته السابقة في عمله بالميناء واحتكاكه بالمصدرين والموردين وأسموها «شركة العائلة للاستيراد والتصدير»؛ مما كان له أثرا كبيرا وواضحا في تحسين حالته المادية ووضعه الاجتماعي..
كما اشتركت سلوى مع شهيرة ونازك في إقامة مصنع للملابس أسموه «المتحدات» بنفس مقر مدرسة الرقص التي كانت مملوكة لشهيرة، بعدما قامت بتغيير نشاطها بناءً على رغبة زوجها نور الدين السكندري، وجعلت كل العاملات بهذا المصنع من النساء الأرامل والفتيات اليتيمات، وبهذا تحسّن دخل الجميع وتقدمت أحوالهم المادية.

كما حضر المباراة كل الجيل الثاني من العائلة.. طارق ونهى ومعهما ابنهما المولود حديثا وقد أسموه فريد على اسم جده لأبيه. وحضرت سالي والدكتور وحيد ومعهما ابنتهما الوليدة وقد أسموها نازك على اسم جدتها لأمها، والتي تطير فرحا بها. كما حضرت أيضا ندى ووائل وقد أنجبا ولدا أسموه أدهم تيمنا بأدهم الكبير والذي كان صاحب فضل قوي في حياتهما، أما عن حياتهما الجديدة فأصبحت أكثر إشراقا واستقرارا فتركت ندى التمثيل وتقدمت في إدارتها لشركتها السياحية وهي في طريقها لتصبح سيدة أعمال لها سمعة وصيت، أما وائل فوضع كل تركيزه في موهبة الكتابة المسرحية والتي وجد نفسه فيها أكثر من الإخراج، وأصبحت له مسرحيات عديدة معروضة ومطبوعة وبدأ اسمه يلمع في الأوساط الفنية والثقافية وأصبح يُطلب في الندوات والحوارات الصحفية والتليفزيونية، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية مؤخرا. وحضرت أيضا شهيرة وزوجها نور الدين السكندري الذي أسهم كثيرا في إدارة حياتها بشكل جديد ومغاير لما كانت عليه من قبل؛ فساعدها في إنشاء مصنع الملابس وطلب منها بيع محل الكوافير لتشترك مع إخوتها في ترميم الفيلا.

كما حضرت نازك وزوجها فريد، وحضر بلال وزوجته إيمان وابنتهما هدية والتي كسبا بفضلها رحلة للعمرة ينظمها أحد رجال الأعمال.

وقد لاحظ أدهم تغير بلال الملحوظ حيث ارتدى جلبابا ونبتت له لحية تطول شيئا فشيئا بعدما أصبح يداوم على حضور درس أسبوعي بأحد المساجد السلفية الشهيرة بالإسكندرية، وتطور في طلب العلم حتى أصبح هو أيضا يعطي درسا بمسجد آخر، ولُقِّب بالشيخ بلال، وكان قد باع معرض السيارات باعتباره من أصل مال السيدة العجوز التي تزوجها، وافتتح بهذا المال شركة لإنتاج الشرائط الدعوية، وأخذ يتابع الفضائيات الدينية الجديدة وتولد لديه طموح، اعترف به لأدهم، في الوصول إلى إحدى تلك الفضائيات في المستقبل وتقديم برنامج بها..

أما عن زوجته فلا تزال محتفظة بتدينها المعتدل وتحاول جاهدة أن تكون في حياته بمثابة رُمانة ميزان تمنعه من الانحراف إلى أقصى اليمين أو إلى أقصى اليسار كما تعلمت بالأزهر الشريف.

وحضر أيضا يوسف بك، والذي كان في غاية السعادة ليس فقط بحفيده حمادة، ولكن بتجمع أولاده حوله. ولكن أدهم قد لاحظ أفوله الواضح وكأن الشيب قد ظهر عليه فجأة فازداد انحناء ظهره وانكبابه على عكازه، وزادت انكماشات وجهه، مما كان يثير في نفس أدهم شجنا لشعوره بأن شمس الرجل قد مالت نحو الغروب.

كان أدهم يراقب الجميع ويتأملهم، وعلى وجهه ابتسامة نصر وابتهاج بما صنعه معهم، وظل يسأل نفسه:

"ترى ماذا كان سيحدث لكل هؤلاء لو لم يكن قد ظهر في حياتهم؟ وماذا يكون مصير هم؟"
وكان الجميع يتابعون حمادة بقلوب وجلة ونفوس سعيدة حتى أدهم كان يتابعه وهو يجري بالكرة بمهارة بين اللاعبين، ولا يدري لماذا ربط بين حياة هذا الصبي ولون فانلته الخضراء حيث لون الطرح والثمر، ليس فقط له بل لكل عائلته.
أما عن الفيلا فلقد قرر الجميع وتم الاتفاق على ترميمها، وتنازلوا عن قضية الحجر واعتذروا لوالدهم وقبلوا يده، وطلبوا منه العفو والغفران، فعفا عنهم وأعلن ذلك لهم، ووضع كل فرد منهم ما يملكه من أموال وتقدم بها إلى أدهم ـ والذي اختاروه بالإجماع ـ ليتولى قيادة مشروع إعادة الترميم، وفي خلال الأشهر الماضية تم ترميم الفيلا بالكامل كما تم بناء دورين وإعادة تقسيم الفيلا إلى أربعة ووزعت عليهم وفقا للشرع ـ للذكر مثل حظ الأنثيين ـ فأخذ الدكتور بلال الدور الأول هو وزوجته، بعدما باع شقته الأخرى ليشارك في ترميم البيت، وأخذ فريد وزوجته الدورالثاني، بينما الابنتان سلوى وشهيرة فاقتسمتا الدور الثالث، وأخذت كل واحدة منهن شقة به، أما الدور الرابع فقسم أيضا إلى شقتين أهدى يوسف بك إحداهما لطارق ونهى، والأخرى لسالي ووحيد كهديتين لأحفاده..
وأخذ أدهم وفريد وبقية الجيل الثانى من الشباب يزرعون حديقة الفيلا ويعيدون إليها توردها وإخضرارها من جديد ويزرعون بها الشتل والورود ويسقيانها ..وبهذا عاد كل الأبناء إلى بيت أبيهم مرة أخرى.
انتهت المباراة بفوز فريق حمادة وسط تشجيع وهتاف جميع أفراد عائلته، وبهذه المناسبة قرر يوسف بك أن يدعو كل العائلة غدا على الغداء في البيت الكبير ، ليكشف لهم سر الصندوق الذى بداخله .....
الكنز .

أدهم

(٥١)

- "من هو أدهم؟" ....
سؤال طرحه يوسف بك على أدهم وهو ممدد على سريره بغرفته الجديدة بشقة فريد بك في الصباح، وقبل أن تجتمع العائلة على الغداء، والحقيقة أنه سؤال كان يدور في عقول وأذهان كل أفراد العائلة وإن لم تواتهم الشجاعة على طرحه عليه، ولكنه كامن في نفوس الجميع، عن سر هذا الرجل الساحر في عقله وشخصيته وأسلوبه..
كان السؤال دائما مرسوما في أعينهم، بينما يحاول هو الهروب حتى لا يجيب عليه، ولكن يوسف بك ألحّ عليه هذه المرة وذكره بالوعد الذي وعده به أثناء وجودهما على شاطيء البحر بالساحل الشمالي بأن يكشف له عن غموض حياته؛ فلم يجد أدهم أمامه سوى أن يحكي للرجل كل ما يريد معرفته فقال:
-كما بدأت حياة أبينا (أدم) بـ « خطيئة « جعلته يدفع ثمنها طوال حياته عندما أكل من الشجرة المحرمة ، بدأت أنا أيضا (إبن آدم) حياتى بـ « خطيئة « عندما ....
خنت وطنى .
إتسعت عينا يوسف بك من الدهشة بعد سماعه الجملة الأخيرة من أدهم ، وظل ينظر له وفمه مفتوحا ببلاهة وكأنه صورة قد ثبتت بالريموت كنترول ، لا يعرف ماذا يقول ؟ ولا كيف يرد ؟ ولا حتى كيف يستفسر ؟ فاذردر ريقه وهو لا يزال صامتا حتى قال أدهم :
-أعلم أن المفاجأة كبيرة وقوية وغريبة أيضا ، ولكن تأكد أن الأغرب لم يأتى بعد.
وكأن أدهم بتلك الجملة قد خيّر يوسف بك سواء بقصد أو دون قصد (مع العلم بأن أدهم لا يفعل شيئا مطلقا دون قصد) إلى أن يكمل حكايته أو يصمت ، فخرج يوسف بك عن صمته ، وإن كانت دهشته لازالت مستمرة وقال :
- لا أجد كلاما أقوله سوى كلمة واحدة فقط ... كيف ؟
- بما أننا بدأنا ندخل فى الجد ، فلنبدأ إذن كما بدأ العمر ..
بالطفولة .
ثم إستند أدهم بظهره إلى مقعده بجوار سرير يوسف بك وهو يجرى فى دهاليز ذاكرته عائدا إلى سنوات عمره الأولى حيث تنهد وقال :
-أبدأ لك من طفولتي والتي شهدتها قرية أجا بالدقهلية حيث ولدت لأم لم أرها، وأب كان يعمل بالجيش، وتلقيت تعليمي من الابتدائي حتى الثانوي في مدارس مدينة المنصورة، ثم نقل أبى إلى القاهرة وانتقلت معه وتزوج هو، ولم أستطع

أن أكمل تعليمي نظرا لتعثر حالة أبي المادية، فألحقني عن طريق علاقاته بالعمل في الشئون الإدارية بالجيش حيث كنت أتسلم أوراق المتقدمين للخدمة العسكرية وأراجعها وأتمم إجراءات التحاقهم من عدمه، وتم اغتيال أحلامي والتي قد بدأت تتشكل منذ وصولي إلى العاصمة، فبدأت أحب الأدب وكتابه، والصحافة وروادها، ونبت بداخلي حلم أن أصبح أديبا وكاتبا صحافيا، كما بدأت السياسة في جذبي وتكونت لي وجهات نظر سياسية وبدأت أحضر ندوات وصالونات كبار أدبائنا وكتابنا وبدأت في خط مقالاتي وقصصي الأولى وطرحها عليهم ثم إرسالها للجرائد والمجلات، وبالفعل كان يُنشر بعضها ويُرفض بعضها، كما بدأت في الاشتراك بالمظاهرات وتنظيم الوقفات والمسيرات، وانضممت إلي تنظيم الإخوان المسلمون السري في ذلك الوقت واشتركت معهم في علميات ضد الاحتلال البريطاني، ثم اختلفت معهم وتركتهم. ولكن التحول الأكبر الذي حدث لي كان بعد الثورة وهو اعتناقي للشيوعية، فآمنت بها وشعرت بأنني ولدت معها من جديد، وأصبح كارل ماركس* بالنسبة لي كنبي أو مخلص للبشرية من الظلم والاستعباد، ولكنني لم أكن أعلم أن هذا الإيمان سيصاحبه عذاب أليم وكبير، وكان أوله من أبى الذي عارضني وقاطعني بل وطردني عندما وجد منى إصرارا على مبدأي وأرجع ذلك لسببين، الأول لأنه يعمل بالجيش وهذا قد يعرضه للأذى، والثاني لتعارض تلك المباديء الشيوعية مع تدينه الشديد الذي ورثه عن أبيه الشيخ الأزهري، ولكنني كنت ورفاقي قد وصلنا لدرجة إيمان عميق بتلك المباديء ورأينا أنها الخلاص لشعبنا ولمجتمعاتنا التي كانت تعاني من كافة أنواع الظلم والاستبداد، وليتها جاءت على معارضة أبى فقط، ولكن الأمور تطورت وتعقدت خصوصا بعدما بدأ اسمي في التوسع والانتشار، وبرزت كمعارض نشط فى حركة « حدتو « * له فكر ووجهة نظر ومقالات تنشر هنا وهناك، وبدأت أجهزة الأمن ترصد تحركاتي حتى استطاعت أن تلقى القبض علىّ وضبطت معي بعض المنشورات التي كنا نجهزها للتوزيع، وسُجنت وتعرضت لأنواع وألوان من العذاب لم أكن أعلم بأنها موجودة في بلادنا.. وخرجت من السجن وعقلي خالي من أي فكر دخلت به خصوصا بعدما اكتشفت أن الكثير من رفاقي قد فعلوا ذلك وهاجروا، خرجت وبداخلي شعور بأنني مهزوم وبأن أشياء كثيرة بداخلي قد كسرت، واستطعت أن أعود لعملي بالجيش مرة أخرى، وتزوجت من فتاة طيبة كانت ابنة لأحد أساتذتي وقادتي في فترة شيوعيتي، وكانت تعيش بمفردها بعد موت أبيها فتزوجت عندها وبدأت صفحة جديدة في حياتي، كما توفى أبى أثناء سنوات اعتقالي ولم يترك لي أي شيء يسندني حيث كان فقيرا ولا يملك شيئا.. ثم اعتنقت الناصرية وآمنت بها وعلى الرغم من أخطاء صاحبها إلا أنني لم أكفر بها

وسرت في حياتي الجديدة حتى تعثرت وتأزمت حالتي وساءت ظروفي يوما تلو الآخر، وفي هذه الأثناء تقدمت لي إحدى الأمهات وطلبت منى أن أحاول تزوير أوراق ابنها لأعفيه من الخدمة العسكرية نظرا لظروف أبيه المريض ولأنه سندها الوحيد حيث أن إخوته منحرفون وهاربون من الخدمة وهو الوحيد الذي يساعدها وإذا غاب عنهم ماتوا من الجوع، ورغم مخالفة ذلك للقانون إلا أنني تأثرت لها وصَعُبَ علىّ حالها وساعدتها في ذلك ونجح الأمر دون أن يُكشف أي شيء، ففرحت لمساعدتها ولكنني للأسف الشديد قد ضعفت بعدها عندما جاءني أحد الرجال الكبار والأغنياء في وقتها وطلب منى نفس الطلب لإعفاء ابنه مقابل مبلغ كبير وشجعني نجاحي في المرة الأولي على تكرارها تحت تأثير المبلغ المعروض، وبالفعل قمت بالمخاطرة للمرة الثانية ونجحت أيضا؛ وظلت المرة تجر أخرى حتى ذاع صيتي وكثرت النقود بيدي وتحسنت حالتي بشكل ملحوظ، حتى جاءت المرة الموعودة وقبض على متلبسا، ولكنني استطعت الهرب أثناء ترحيلي وسافرت إلى بيروت وعملت هناك وقد تم الحكم على غيابيا ولكنهم لم يستدلوا على مكاني.. وفي بيروت بدأت رحلة جديدة في حياتي حيث تعرفت على صاحب مطعم يقدم مأكولات مصرية وكنت بارعا في الطهي فأعجبته وعملت معه وآواني عنده وتوطدت علاقتي به حتى زوجّني ابنته مادلين ووكلني بإدارة المطعم نظرا لتقدم سنه وتدهور صحته، وبعدها بقليل توفاه الله وكبر المطعم واستطعت تكوين ثروة ضخمة ، حتى هنا كانت حياتى تسير بطريقة عادية .

سأله يوسف بك مستغربا :

-ومتى أصبحت غير عادية ؟

فقال أدهم مؤكدا :

-عندما وقعت فى أيدى الموساد الاسرائيلى.

(٥٢)

-الخيانة أمر قاسٍ ، ولكن عندما تأتيك من أقرب الناس إليك تصبح أقسى شعور فى الحياة .

هكذا قال أدهم وهو يكمل حديثه عن رحلة حياته الغامضة ليوسف بك ، ثم أردف قائلا :

-عندما تزوجت من مادلين ، أصبحت أرى كل الوجود جميلاً ، كانت بارعة الجمال ، كانت ملكة جمال لبنان فى وقت من الأوقات ، ولكنها فى نظرى كانت ملكة جمال الكون ، ولكن كان أجمل ما يجذبنى بها هو ذلك الاحساس

بالضعف الذى تشعر به الأنثى إذا ما كانت بعيدة عن حبيبها وشريك حياتها ، وقتها تعلمت أن قوة المرأة بالفعل فى ضعفها ، إحتياجها لى ، وشعورى بأنى مسئول عنها فى كل شىء وعلى رأسها حمايتها من شرور العالم كان يجعلنى أشعر برجولتى ، ويقربنى منها أكثر ، كنت أنام بجوارها كل ليلة وأنا أشعر بأن بين يدى أجمل وردة رأيتها فى بساتين العالم ، ولكنى لم أكن أعلم أيضا أن تلك الوردة الناعمة الجميلة ، تحوى من الأشواك ما هو كفيل بالقتل وليس فقط بالجرح.

- هل خانتك مع شخص آخر ؟

إبتسم أدهم ساخرا :

-ليس مع شخص واحد ، بل مع دولة كاملة .

وقبل أن يعطى فرصة ليوسف بك أن يزداد إندهاشا على إندهاشه ، أومىء برأسه

قائلاً :

-نعم ، كانت زوجتى مادلين تعمل لحساب الموساد الاسرائيلى .

هنا لم يستطع يوسف بك إلا أن يشهق من المفاجأة ويعتدل فى جلسته متحفزاً لمعرفة المزيد عن تلك الحكاية العجيبة ، فأردف أدهم وقال :

-ذات صباح إستيقظت من نومى كالعادة حتى أذهب لأدير شئون المطعم ، ولكنى فوجئت بأنها ليست نائمة بجوارى ، فى البداية لم أستغرب حتى بعد أن بحثت عنها فى الشقة كلها ولم أجدها ، وظننت أنها قد خرجت لشراء شىء ، وذهبت إلى المطعم غير عابىء بالأمر ولكن ما أن وصلت حتى فوجئت بإتصال تليفونى بصوت شخص لا أعرفه لهجته شامية يبلغنى بأنه قد إختطف زوجتى ثم أسمعنى صوتها وهى تصرخ وتستنجد بى ، لم أكن مستوعبا لكل ما سمعته من فرط المفاجأة ، فنحن ليس لنا أى أعداء بلبنان ، فمن سيفكر فى خطفها ، فكرت فى لحظة أن أبلغ الشرطة اللبنانية ولكن من يحدثنى وكأنه قد قرأ أفكارى فحذرنى من الاتصال بالشرطة إن كنت حريصا على رؤية زوجتى مرة أخرى ، سألته ما طلباته ؟ فقال لى بأنه سيعاود الاتصال بى مرة أخرى بعد ساعة وأغلق الخط .

شعرت وقتها بأننى لا أستطيع الوقوف ، فجلست مكانى مثبتاً لا أستطيع التفكير أو حتى الحركة ومرت الساعة وأنا مازلت فى مكانى وليس فى خيالى سوى صورة زوجتى مادلين وأنا أحاول أن أتخيل ماذا يمكن أن يكون هذا الخاطف قد فعله بها ، وفجأة رن هاتفى مرة أخرى معلنة للمرة الثانية عن إسم غير معروف يتصل ، فرددت ولهفتى على زوجتى تسبق كلامى ، ولكن كان صوتا غريبا آخر هذة المرة هو الذى يحدثنى ، أعطانى عنوانا فى إحدى الأماكن

بجبال لبنان وطلب منى أن أتجه إلى هناك فور إنهائى للمكالمة معه ، ولم ينسى أن يؤكد علىّ عدم إبلاغى لأى شخص ، وبمجرد إغلاقى للخط معه إنطلقت دون تفكير وأخذت سيارتى إلى العنوان الذى أبلغنى به ، وعندما وصلت إنتظرت حتى وجدت من يتصل بى ويطلب منى التحرك بالسيارة إلى منطقة جبلية أخرى ، ورغم مشقة ذلك إلا أننى نفذت ما طلبه ، وبعد أن وصلت إلى هناك تلقيت إتصال من شخص غريب آخر وطلب منى أن أترك السيارة وأن أتوجه إلى أحد الجبال سيراً ، وبالفعل نفذّت ، وما أن وصلت إلى الجبل حتى تلقيت إتصالاً يأمرنى فيه بأن أصعد إلى قمة الجبل ، وكان كل ذلك للتأمين وحتى يتأكدوا من عدم وجود أحد يتبعنى ، ورغم مشقة الصعود إلا أننى تحملتها فقط من أجل زوجتى ، وليس فى تفكيرى سوى ما كانت تشعرنى به من إحساس بأنّى مسئولاً عنها وعن حمايتها ، وليس لى همّ سوى إثبات ذلك لها الآن فى ظرف كهذا ، يختبر رجولة المرء ومدى شجاعته.

وصلت إلى قمة الجبل حتى أصبحت أستطيع رؤية لبنان الخضراء بشجر الأرز على إمتداد نظرى ، ثم فوجئت بمن يخرج من كهف صغير فى قلب الجبل ، كان رجلاً فى ثلاثينياته ، ملامحه غير عربية ، ورغم أن لهجته شامية ، إلا أنها غيرسليمة مما يجعلك تدرك بخبرتك أن أصله غير عربى ، وقف أمامى وإبتسم لى قليلا دون كلام ، ثم دار حولى وهو عاقد ذراعيه خلف ظهره يتأملنى ، ثم أخيرا تكلم وقال :

-أخيرا تقابلنا مستر أدهم ؟

-حضرتك تعرفنى ؟

-نعرف عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك مستر أدهم ، منذ طفولتك بقرية أجا ، وحتى هروبك من مصر خوفا من السجن.

لا أخفى عليك أننى شعرت ولأول مرة فى حياتى بالخوف ، لا أعلم لماذا ؟ هل لشعورى بأننى ليس أمام مجرد رجل يعرف عنى كل شىء ، بل أمام ما هو أكبر من هذا الرجل ؟ أم لأن زوجتى لازالت فى حوزة من أجهل التعامل معهم ؟

-أياً ما كنت تعرفه عنى ، وأياً من تكون ، لا همّ لى الآن سوى الاطمئنان على زوجتى.

-زوجتك بخير ، ستراها بعد قليل ، ولكن ليس قبل أن نتفق .

-كل ما تطلبه من مال أياً ما يكن الرقم مستعد لدفعه .

فوجئت به يضحك ضحكاً عالياً بطريقة مقززة ، ثم قال :

-مستر أدهم ، أنت لا تتعامل مع خاطف نساء من أجل المال ، أنت تتعامل مع مؤسسة أكبر من هذا بكثير .

ها هو ينطقها ليؤكد لى إحساسى بأنه ليس مجرد رجل ، بل يقولها صراحة بأننى أتعامل مع مؤسسة ، فقلت :
-أى مؤسسة تلك التى تقدم على خطف إمرأة من زوجها ؟ ولماذا تفعل ذلك ؟
-نفعل ذلك لأننا نحبك ونود التعاون معك ، أما أى مؤسسة نحن فدعنى أقولها لك بصراحة حتى نتعامل معاً بوضوح ، هل سمعت عن الموساد الاسرائيلى من قبل ؟
ولا تسألنى عن إحساسى وقتها ، ولا عن ردة فعلى والتى كانت أشبه بمن وجد نفسه فجأة يسقط من أعلى برج خليفة * ، فذلك الذى يسقط من الحماقة أن تقترب منه وتسأله ما هو شعورك الآن وأنت تقع وتقترب من الأرض ، وواضح أنه كان متفهماً لما أنا فيه لذلك لم يستغرب ، فأكمل قائلاً :
-نعلم أنه أمر سيسبب لك صدمة فى البداية ، ولكن يمكنك تقبله إذا ما نظرت إليه نظرة مختلفة ، نحن لدينا شىء يهمك ، ونحن نحتاج منك شىء يهمنا ، فإذا ما عقدنا إتفاقا للصداقة ، سنحقق لبعضنا ما يفيد الطرفين ، وصدقنى لن تندم على صداقتنا.
هنا كنت قد بدأت أستعيد شيئاً من إدراكى وتماسكى بعد الصدمة وإن كانت بالطبع لم تزول كلها ، وسألته قائلاً :
-وما الشىء الذى يهمكم منى ؟ وأنا مجرد رجل صاحب مطعم ؟
إبتسم إبتسامته الغريبة والتى بدأت أفهم أنها الإبتسامة المميزة لليهود وقال :
-لا تحقر من شأنك هكذا أدون أدهم ، أنت أكبر من كونك صاحب مطعم ، أنت لك تاريخ كبير داخل أروقة الجيش المصرى ، تعلم كل خباياه ، كل أركانه ، كل من دخله أو خرج منه ، كل المعلومات عن المجندين ، أسمائهم ، ظروفهم الإجتماعية ، ميولهم السياسية ، إستعداهم النفسى للحرب ، همومهم ، أحلامهم ، واقعهم المعيشى ، درجة انتمائهم لوطنهم ؟ وأشياء أخرى كثيرة تجعلك أكبر من مجرد صاحب مطعم فى نظرنا ، ونحن نقدّر الإنسان جيداً ، أكثر حتى من بلادك التى خرجت منها هارباً .
كنت مذهولاً مما أسمعه ، ليس فقط من الموقف الذى لا يحسدنى عليه أحد ، فزوجتى مخطوفة وهى حامل فى طفلى الأول ، وجهاز الموساد يبتزنى ، ولكن كان ذهولى أيضا لأننى رأيت نفسى بمنظور آخر لأول مرة فى حياتى ، أن أجد فى حياتى ما يستحق أن يكون ذا قيمة وذا أهمية قصوى حتى وإن كنت أراه أقل من ذلك بكثير كما حدث فى السابق ، وأخذت أتساءل « هل من الممكن أن أكون بمثل هذة الأهمية ؟ هل ما كنت أراه بسيطاً وليس له قيمة يمثل كل هذة الدرجة من الحساسية لدى جهة أخرى؟ ولكن ليست هذة هى الأسئلة الصعبة الآن ، وإنما السؤال الأصعب والذى لابد وأن تكون إجابته حاضرة فى الثوانى

القليلـة القادمـة هـو :
هل سأخون بلدى ؟ « .
-وما يدريك أننى سأوافق على التعاون معكم ؟
هكذا كان سؤالى إليه ، وهكذا رد علىّ مبتسماً :
-لأنـك بالتأكيـد لا تـود أن نسـلمك إلـى السـلطات اللبنانيـة ومنهـا الـى المصريـة لتقضـى عقوبـة السجن ، والأهـم لـن تـود أن تـرى زوجتـك مقتولـة أمـام عينيـك و ... إبنـك فـى بطنهـا .
يـا أولاد الخنازيـر ، حتـى معلومـة حمـل زوجتـى وصلتـم إليهـا ؟ ولكـن كيـف ولا أحـد يعلـم سـوى أنـا وهـى فقـط ؟ فقد أجـرت الإختبـار بالبيـت ؟
هنا خرج يوسف بك عن صمته والشغف يكاد يقتله ، وسأل أدهم قائلاً :
-وهل قبلت ؟
قفزت دمعة من عين أدهم أوجعت قلب يوسف بك قبل أن يقول :
-لـم يكـن أمامـى خيـار آخـر ، إمـا أن أقبـل وأكسـب حريتـى مـن السـجن ، والأهـم أكسـب حيـاة زوجتـى وإبنـى الـذى فـى أحشـاءها ، وإمـا أن أخسـر كل ذلـك .
إختلطـت المشـاعر بداخـل يوسـف بـك مـا بيـن التعاطـف لحـال أدهـم وموقفـه القاسـى والصعـب الـذى وضـع فيـه ، ومـا بيـن عـدم رغبـة عقلـه فـى تصديـق أن ذلـك الرجـل السـاحر فـى عقليتـه وشـخصيته والـذى أثّـر فيـه وفـى حيـاة عائلتـه بأكملهـا مـا هـو إلا خائـن وجاسـوس لبـلاده ولصالـح ألـدّ أعدائهـا ، فأطـرق نـاظـراً إلـى الأرض ، ثـم هـزّ رأسـه غيـر مصـدق مـا سـمعه حتـى قـال :
-الحقيقـة أننـى لا أعـرف مـا أقـول ، وغيـر مسـتوعب لمـا حكيـت ، أشـعر بفرحـة كبـرى فـى أنـك تحكـى لـى عـن حياتـك الغامضـة التـى إشـتقت لمعرفـة أسـرارها كثيـرا ، ولكنـى فـى الوقـت نفسـه أشـعر بغصـة مريـرة فـى حلقـى كلمـا حاولـت تخيلـك فـى مثـل هـذا الأمـر ، لكـن علـى أىّ حـال يهمنـى أن تكمـل لـى باقـى مـا حـدث مهمـا كانـت درجـة بشـاعته.
تنهد أدهم وأطلق زفيرا طويلا أخرج معه شىء مما يحمله بداخله ثم قال :
-لا أريـد أن أدخـل فـى تفاصيـل تلـك المرحلـة حتـى لا أسـتدعى مـن الذاكـرة مـا لا يـزال يثيـر شـجونى وألمـى وسـخطى علـى نفسـى (رغـم تكفيـرى عنـه فيمـا بعـد) ، لكـن كل مـا يمكننـى ذكـره هـو أنهـم بالفعـل قـد نجحـوا فـى تجنيـدى ، وحصلـوا منـى علـى كل مـا يريـدون مـن معلومـات عـن الجيـش وفتـرة عملـى فيـه ، وكل التفاصيـل عـن المجنديـن حتـى وإن بسـيطة وتافهـة مـن وجهـى نظـرى ، كمـا نجحـت فـى إسـتعادة زوجتـى مـن بيـن أيديهـم مـرة أخـرى ، والتـى كانـت تشـجعنى دائمـا علـى مسـاعدتهم حتـى لا يكـررون خطفهـا ، وكنـت أرى خوفهـا الكبيـر منهـم كلمـا حكـت لـى عمـا رأتـه أثنـاء وجودهـا معهـم مـن أماكـن يعذبـون فيهـا مـن يخـرج

عن طوعهم أو ينقلب ضدهم ، وكانت تستحثني وتستحلفني أن أحفظها منهم بأن أطيعهم ، بل لقد كانت تقوم من النوم مفزوعة مدعية أنه كابوس مفزع رأت فيه نفسها وهى تعذّب فى معتقلاتهم حتى أصبحت حياتى جحيم لا يطاق ، حتى إكتشفت خيانتها.

-وكيف اكتشفت ذلك ؟

كنت فى كثير من الليالى أشعر بها تقوم من جوارى متسحبة وفى أوقات متأخرة جدا ، فى البداية كنت أظن أنها ذاهبة إلى دورة المياه وتتسحب حتى لا تزعجنى وأنا نائم ، ولكنها لم تكن تعلم أننى فى تلك الفترة كان بداخلى ضمير يتعذب ويتلوى من العذاب ولا يجعل عينى تذق طعم النوم ندما على ما فعلته ضد وطنى ، وعندما تكرر الأمر لفت نظرى ، وذات ليلة تسحبت خلفها حتى وجدتها تخرج إلى شرفة الصالة وتتحدث هامسة فى تليفونها المحمول إلى أحد ما ، استغربت من ذلك واقتربت أكثر من الشرفة وداريت نفسى فى الستائر وحاولت جاهدا التنصت على المكالمة حتى سمعتها تعطى موعدا غدا فى أحد الأماكن الخاصة وذكرت أنها ستنزل بعد خروجى أنا للمطعم .

لحظتها شعرت بأننى طعنت فى شرفى وكرامتى عندما ظننت بأنها تخوننى مع رجل آخر ، وقبل أن تنهى المكالمة عدت مسرعا إلى غرفة نومى ونمت فى مكانى حتى جاءت هى متسحبة ونامت بجوارى بهدؤ حتى لا توقظنى ، كنت أشعر كمن غرزت سكين فى قلبه مباشرة ولا يستطيع أن ينطق ويقول آه ، وأخذت أتساءل « هل بالفعل تخوننى زوجتى ؟ ترى مع من ؟ والأهم هو لماذا ؟ هل قصرت معها فى شىء ؟ أبعد كل ما فعلته من أجلها ومن أجل الحفاظ على حياتها للدرجة التى جعلتنى أخون وطنى ، وبعد كل هذا تخوننى ؟ « .

وفى اليوم التالى قررت أن أتتبعها إلى المكان الذى قالت عنه فى المكالمة ، وصعقت عندما رأيتها تقابل رجلا غريبا لم أتبين ملامحه بالضبط حيث كان يرتدى كاسكيتا ونظارة شمسية ، راقبتهما وهما يتناقشان فى أمر بدا لى أنه مهم ، وأنا أعتصر فى وقفتى من الألم وأنا أرى زوجتى تواعد رجلا غريبا من ورائى ، ولكنى عندما ركزت قليلا فى ملامح هذا الرجل إنصعقت أكثر عندما إكتشفت أنه نفس الرجل ضابط الموساد الذى جندنى من قبل ، وتساءلت مندهشا « ترى أيكون قد جندها هى الأخرى ؟ أيكون قد إبتزها أو هددها ليرغمها على ذلك ؟ « ولكن تساؤلاتى قطعت فجأة عندما رأيتها تنهى المقابلة معه وهى تقترب منه مبتسمة ثم .....

تبادلت شفتاهما قبلة طويلة حارّة .

- إذن لم تكن مادلين تحت أى تهديد أو إبتزاز ، ولكنها كانت وببساطة شديدة عميلة بالموساد .
هذا ما قاله يوسف بك ، وهذا ما رد به أدهم :
- رغم صعوبة هذا الاكتشاف ، إلا أن ما اكتشفته بعد ذلك كان أقسى وأصعب .
- وما كان الأصعب ؟
صمت أدهم قليلاً وكأنه يستعد لتحمل ما سيتذكره من ذكريات مؤلمة ثم قال :
-داريت عليها ما عرفته ولم أبيّن لها أى تغيير فى معاملتها ، بل على العكس إزددت فى تدليلها والقرب منها ، وكانت من أصعب لحظات حياتى ، تلك التى كنت أضطر فيها لتمثيل دور المحب والعاشق ومعانقة عشيقة ما هى إلا خائنة حتى أتمكن من الوصول إلى معرفة دور تلك المرأة على وجه التحديد .
وفى ليلة من الليالى استغليت وجودها فى دورة المياة تأخذ حماماً وأمسكت بتليفونها المحمول ، وأخذت أقلب فيه باحثا عن أى شىء غريب قد يقودنى إلى شىء ، وبعد قراءة سريعة لقائمة الأسماء لم أجد ما يجذب إنتباهى ، وعندما فتحت الرسائل وقلبت بها لم ألتفت إلى شىء أيضا ، ولكنى وبالصدفة البحتة قد لاحظت تكرار عدة رسائل إلى إسم معين موجود فى الرسائل الواردة والصادرة وهو أكثر إسم حدثت معه محادثات ومراسلات متبادلة ، ورغم أنه كان مسجلا بإسم إمرأة تدعى (نبيلة) إلا أننى لم أرتح لنصوص الرسائل حيث تشعر بعدم فهمك لأى شىء مكتوب رغم أنه كلام عادى يحدث بين النساء عن الطبخ والموضة وأثاث البيت ، ولكنك تشعر بأن به ألغاز أو يرمى إلى معانى أخرى غير تلك المكتوبة ، فضلاً عن معرفتى بجميع صديقات مادلين وهن قليلات ولا توجد بينهن من تدعى نبيلة ، ولكن الأمر الذى قطع الشك باليقين هو عندما لاحظت فى رسالة صادرة منها إلى تلك التى تدعى نبيلة قد غلطت أثناء الكتابة وكتبت كلاما لا يمكن أن يكون إلا موجها لرجل وليس لإمرأة عندما كتبت وقالت « قبلتك لا أزال أشعر بها فى أوصالى ” .
هنا تأكدت أن بالأمر لعبة ، فهل يعقل أن تقول صديقة لصديقتها مثل هذا الكلام ؟ وعندما شعرت أنها أنهت حمامها أسرعت فى غلق الموبايل نهائيا وأخفيته فى مكان ما داخل الدولاب حتى لا يتمكن أحد من الاتصال بها عليه ، ليضطرا إلى الحديث فى هاتف المنزل الأرضى ، وبالفعل بعدما خرجت أخذت تبحث عنه كثيرا وسألتنى عنه فنفيت أننى قد رأيته اليوم ، وبل وتظاهرت بمساعدتها فى البحث عنه حتى أقنعتها بأنه من الممكن أن يكون قد سقط منها فى مكان ما ، ورغم خوفها وقلقها من ذلك إلا أنها لم تجد فى النهاية بد من الاستسلام .

وطـوال الليـل كنـت أشـعر بهـا قلقـة فـى حركتهـا بجـوارى وكأن شـىء ذا بـال يقلقهـا ويـأج مضجعهـا ، وفـى قلـب الليل تسـحبت مـن جـوارى كعادتهـا محاولـة ألا توقظنـى وخرجـت إلـى الصالـة وأغلقـت خلفهـا البـاب ، قمـت خلفهـا وفتحـت البـاب فتحـة بسـيطة فرأيتهـا تأخـذ تليفـون المنـزل الأرضـى وتسـحب أسـلاكه إلـى الشـرفة ، فأغلقـت بـاب الغرفـة وجريـت نحـو عـدة التليفـون الموجـودة بجـوار السـرير علـى الكومـود بغرفـة نومـى ورفعـت السـماعة ببطـىء وهـدؤ فوجدتهـا قـد طلبـت رقمـا وتنتظـر الـرد ، وضعـت يـدى علـى السماعة حتـى لا أظهـر أى صـوت ، حتـى جاءهـا الـرد ، وكان هـو صـوت نفـس الرجـل ضابـط الموسـاد ويدعـى دايفيـد مزراحـى ، وكانـت تلـك المكالمـة هـى الفاصلـة فـى علاقتـى بمادليـن ، حيـث إكتشـفت مـن خلالهـا أنهـا قـد كذبـت علـىّ فـى مسـألة حملهـا بالترتيـب مـع الموسـاد ، وأن ذلـك الخبـر قـد أبلغتـه لـى قبـل عمليـة خطفهـا بأيـام حتـى تزيـد مـن حرصـى علـى سـلامتها مـن أجـل مـا تحملـه فـى بطنهـا مـن صلبـى ، وأن عمليـة الاختطـاف هـذة كانـت كذبـة مدبـرة مـن قبـل الموسـاد وأنهـا كانـت طرفـا فـى تلـك الكذبـة وشـريكا فـى تنفيذهـا ، وأن خبـر الحمـل كان ليجعلنـى حريصـا علـى تتبعهـا وإنقاذهـا وبالتالـى يضغطـون بـه علـىّ لأوافـق علـى مـا يريـدون ، وأكتشـفت أنهـا مجنـدة فـى الموسـاد منـذ زمـن كبيـر ، حتـى عندمـا كان أباهـا علـى قيـد الحيـاة حيـث كان أباهـا ضابطـا سـابقا فـى الجيـش اللبنانـى ورجـل لـه علاقـات كبيـرة بكبـار شـخصيات المجتمـع اللبنانـى مـن كافـة الاتجاهـات ، وعـن طريقهـا اسـتطاعوا أن يعرفـوا الكثيـر عـن الجيـش ، وسـاعدتهم كثيـرا عـن طريـق مراقبتهـا لـكل مـن يأتـى إلـى المطعـم.

وبعـد أن انتهـت المكالمـة ، عـدت سـريعا إلـى مـكان نومـى حتـى لا تشـعرأننى قـد اسـتيقظت ، حتـى جـاءت بعـد قليـل متسـحبة ونامـت ، ولكننـى ظللـت مسـتيقظا حتـى الصبـاح أفكـر فيمـا عرفتـه ، وأقلـب كل الأمـور فـى رأسـى حتـى إتخـذت قـراراً كان ولا يـزال أهـم وأشـرف قـرار إتخذتـه فـى حياتـى .

(٥٤)

كمـا كفّـر أبينـا آدم عـن « خطيئتـه « عندمـا طـرد مـن الجنـة ونـزل إلـى الأرض ، قـررت أنـا أيضـا (إبـن آدم) أن أكفّـر عـن خطيئتـى.

قال يوسف بك وقد إستثارت سخونة الأحداث شغفه إلى أقصى درجة :

-أشـتاق لمعرفـة ذلـك أيمـا إشـتياق حتـى تعـود إلـى ذهنـى صـورة أدهـم البطـل ، وتمحـى صـورة أدهـم الـــ ... خائـن.

إبتسم أدهم إبتسامته الذكية رغم ما تثيره إجترار ذكرياته من شجون وقال :

-كان واحدا من أهم زبائنى المستديمين بالمطعم ، أحد أشهر ممثلى المسرح فى لبنان ، كان بالاضافة إلى كونه ممثلا بارعا ، مصمما أيضا لعرائس الماريونيت ، وكانت لديه موهبة خاصة فى صنع الماسكات اللازمة لأداء الشخصيات المختلفة ، وكان لحسن الصدفة موعد إتيانه للمطعم فى صباح اليوم التالى لسماعى لتلك المكالمة التى كشفت لى زوجتى الخائنة على حقيقتها ، وبعد أن نال وجبته المشتهاة من الملوخية المصرية التى يعشقها ، نجحت فى أن أختلى به فى غرفتى لأطلب منه أغرب طلب سمعه منى فى حياته.

كنت قد رسمت خطة إستراتيجية لأمر ما فى رأسى ، كانت أولى خطواتها هى مقابلة صديقى الممثل اللبنانى وأن أطلب منه ما طلبته ، أما الخطوة الثانية فى تنفيذ الخطة كانت هى الأهم والأصعب فى آن ، وهى إيجاد حجة مناسبة تقنع مادلين (ومن وراءها) بالغياب عن المنزل لمدة يومين متتاليين دون أن يثير ذلك شك أحد ، ووجدت الحجة وأبلغت بها زوجتى وبالفعل نجحت فى إقناعها بها .

وكانت الحجة هى مرض صديقى الممثل الشهير مرضا شديدا يستلزم وجود أحد ما معه فى بيته ليرعاه ويكن له سندا نفسيا حتى يتجاوز أزمته ، حيث كان معروفا عن ذلك الفنان عزوبيته رغم كبره فى السن ، وأنه يحيا حياته وحيدا ، وبالفعل ذهبت معى زوجتى إلى بيت صديقى الفنان بحجة الاطمئنان عليه حتى وجدت عنده طبيبا وممرضة يتمان الكشف عليه ، وعندما أخذت الطبيب وحدثته أمام زوجتى عن حالته ، فقال الطبيب (وهو أحد ممثلى المسرح من أصدقاء الفنان) أنه فى حالة مرض شديدة من الممكن أن تكون الأخيرة فى حياته وأنه يحتاج إلى شخص قريب جدا من أصدقاءه حتى يقدم له دعما نفسيا بجوار الرعاية الطبية التى ستقوم بها الممرضة ، فاستسمحت زوجتى أن تتحمل غيابى عنها ليومين فوافقت وهى مقتنعة تمام الاقتناع ، وأبلغت ذلك لضابط الموساد ، ورغم أنه سألها ألف مرة إلا أن دايفيد قرر أن يعين مراقبة على بيت الفنان حتى يلاحظوا دخول أو خروج أدهم فى أى لحظة ، وهنا جاء نفع الخطوة الأولى والطلب الغريب الذى كنت قد طلبته من صديقى الفنان ، وهو أن يصمم لى ماسك لشخصية ما إذا ما ارتديتها لن يعرفنى أحد ، ورغم أننى لم أصدقه القول فى ما أردته من ذلك ، إلا أنه وافقنى لما لى عليه من تأثير كبير أحدثته فى حياته من قبل عندما كان إنسانا ضائعا وكنت أنا سببا فى إعادة شخصيته للحياة من جديد وكنت سببا فى عودته مرة أخرى للفن والتمثيل بعد أن كان قد دمره إدمان الكحوليات ، وبالفعل إرتديت كراكتر الشخصية التى صنعها لى ، وقام بتهريبى من المنزل عن طريق سرداب فى بدروم منزله يؤدى إلى باب خلفى لا يراه أحد ، وحتى لو لاحظه شخص ما لن يعرفنى بشكلى الجديد

، وعن طريق علاقاته كان قد عرفني على شخص دبر لى السفر إلى مصر عن طريق تهريبى فى سفينة متجهة إلى الاسكندرية ، ورغم المخاطرة إلا أننى قررت إستكمال المهمة للنهاية ، حتى وصلت إلى الاسكندرية بسلام ودون عوائق ، ومنها إتخذت طريقى إلى القاهرة .

سأله يوسف بك مستغربا :

-ولماذا ذهبت إلى القاهرة ؟

إتسعت إبتسامة أدهم وقال :

-لأكفّر عن خطيئتى .

زاد إستغراب يوسف بك ، فسأل قائلا :

-وكيف كفّرت عن خطيئتك ؟

فقال أدهم مؤكدا :

-سلمت نفسى للمخابرات المصرية.

(٥٥)

-بعد حوالى ٤٨ ساعة من وصولى إلى القاهرة ، عدت إلى لبنان مرة أخرى .

إعتدل يوسف بك فى جلسته بعد أن سمع جملة أدهم الأخيرة معترضا وقال :

-ما هذا الإهمال وعدم الدقة فى الحديث ؟ أريد معرفة ما حدث بعد أن سلمت نفسك للمخابرات العامة ؟

إبتسم أدهم فى نفسه لأنه كان قد قال تلك الجملة حتى يختبر مدى إهتمام يوسف بك وتوحده مع ما يقصه عليه من تجربة حياته الذاتية ، وكما توقع إستثارة تلك الجملة لفضوله وشغفه ، ثم قال :

-بعد أن ألقيت بنفسى داخل مبنى المخابرات العامة المصرية ، شرحت لهم كل ماحدث معى منذ البداية ، منذ طفولتى وحتى القضية التى هربت من عقوبتها ، ثم هروبى إلى لبنان وحتى نجاح الموساد فى تجنيدى ، وحكيت لهم عن كل الأسرار التى كشفتها لهم ، وعن إكتشافى لعمل زوجتى معهم ، وعندما سألونى عن سر مخاطرتى بحياتى ومجيئى إلى هنا رغم هروبى من ملاحقة قضائية ، قلت :

-أريد أن أثأر من زوجتى ومنهم ، لأنهم جعلوا منى خائنا لوطنى بتدبير حادث إختطافها المزعوم ، ولأكفر عن ذنبى هذا بأى طريقة ممكنة .

وبعد جهد كبير فى محاولة منى لكسب ثقة ضباط المخابرات إتفقوا معى أن أعود من حيث أتيت وأن أستمر فى التمثيل على زوجتى وعليهم بأننى ما زلت

ذلك الخائن العميل وألا أخسر علاقتى بزوجتى مهما كانت درجة كرهى لها ، وعندما سألتهم عن سر ذلك قالوا لى :

-ستكون عميلاً مزدوجاً .

وبالفعل عدت إلى بيتى ببيروت ، وزوجتى تعلم أنى قادم من بيت صديقى الفنان بعد أن إطمئننت على حالته النفسية وإستجابته للعلاج ، وبدأت المخابرات العامة المصرية تتابعنى من خلال مكتبها بلبنان ، وأصبح هناك مندوبا خاصا يتابعنى ، وأصبح من زبائن المطعم الدائمين ، كان يخبرنى دائما بما يجب علىّ فعله ، وما هو مطلوب منى ، حتى جاء يوم وعلمت بفاجعة مقتل زوجتى مادلين فى حادث سيارة مدبر ، لا أعرف حتى الآن من كان صاحب هذا التدبير ؟ هل الموساد ؟ أم المخابرات العامة ؟

-وهل إنتهت فترة عملك بالمخابرات العامة وبالموساد بعد مقتل مادلين ؟

-بل بدأت .

-وكيف كنت تعمل مع الجهازين فى وقت واحد ؟

هنا إبتسم أدهم قائلاً :

-ألم أقل لك أننى أصبحت عميلاً مزدوجا ؟

(٥٦)

-إنتهت مرحلة لبنان ، وبدأت مرحلة أمريكا .

إعتدل يوسف بك لينصت جيدا إلى ذلك الفصل الجديد من رحلة أدهم التى دخلها رغما عنه إلى عالم المخابرات والجاسوسية ، ثم أكمل أدهم قائلاً :

-بعد مقتل زوجتى مادلين ، هاجرت من لبنان إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد أن قمت ببيع المطعم والبيت وتصفية كل ما كنت أملكه بلبنان ، رغبة منى فى غلق صفحتها ، وبداية صفحة جديدة فى حياتى .

وبعد أن وصلت إلى أمريكا تجددت بداخلى أحلامُ كنت أحلمها فى الماضى وأهمها التمثيل ، بعد رحلة غير بسيطة قضيتها فى مطلع صباى منذ أن هاجرت من قريتى إلى القاهرة فى الوقوف على خشبات مسرح محمد على ، وشارع عماد الدين ، وأيضا بعض من مسارح باريس التى سافرت إليها مع العروض المسرحية التى كنت أؤديها وأشترك أيضا فى كتابتها .

وفى أمريكا قابلت صديقى الفنان عمر الشريف ، والذى كان رفيق صباى منذ أن تعرفت عليه لأول مرة عندما كنت فى الثانوية وكنت مشتركا فى عرضا مسرحيا تابع للمدرسة ذهبنا للعرض فى الاسكندرية ، ثم تم إختيارى بعد ذلك

من قبل أحد المخرجين الذين رأؤنى فى العرض للإشتراك فى عرضا مسرحيا آخر كان يشاركنى بطولته عمر الشريف ومجموعة من أصدقائه فى مدرسته بالاسكندرية ، ومنذ ذلك الحين وتوطدت علاقاتنا ، حتى إنقطعت فترة طويلة من العمر ، ذهب فيها كل منّا إلى ما ذهب إليه ، وها نحن نتقابل ثانية ولكن على أرض الولايات المتحدة .

وفى هذة الأثناء نجح عمر الشريف فى أن يعرفنى على مدير إحدى شركات الانتاج السينمائية فى هوليوود ، وتم ترشيحى بالفعل للمشاركة فى الفيلم الحربى المهم ، أطول يوم فى التاريخ عام ١٩٦٢ ، كما تم ترشيح صديقى عمر الشريف إلى المشاركة فى بطولة فيلم لورانس العرب ، ولكن عمر الشريف أكمل ، ولكننى إضطررت أن أتوقف بعد أن عدت إلى غرفتى التى كنت أستأجرها ووجدت ضيفا ينتظرنى بها .

وكان هذا الضيف هو ضابط المخابرات المصرى ، أو المندوب بلغة المخابرات الذى كان مسئولاً عنى فى لبنان ، وأبلغنى بأن جهاز المخابرات العامة يعرض علىَ صفقة من الممكن أن تغيّر من مجرى حياتى إذا ما قبلتها .

- وما هى تلك الصفقة ؟

- أن أهب حياتى كلها ...
لمصر .

(٥٧)

- وكانت تفاصيل الصفقة أن يساعدنى جهاز المخابرات فى إسقاط قضيتى التى حكم علىّ فيها بالسجن ، وأن تشطب تماما من سجلى وأصبح بلا أى إدانة ، فى مقابل أن أوافق على العمل معهم كمجند غير ثابت فى مكان أو فى بلد معين ، وإنما نقّال ، أتحرك وفقا لما تقتضيه الحاجة ، ولكن لم يكن إسقاط قضيتى هى فقط المقابل ، بل عرضوا علىّ رعاية مادية كاملة تغطى كل ما أحتاجه وزيادة ، بالاضافة إلى التكفل بكافة تكاليف حياتى من مسكن ومأكل وملبس وإنتقالات إلى أى دولة بالعالم .

- ولماذا إختاروك لتلك المهمة الأبدية ؟

- لأننى وحيد ، ليس لى أى أحد بعد مقتل زوجتى ، كما أننى أثبت لهم وطنيتى وحبى لوطنى عندما ذهبت وسلمت نفسى لهم ، وعملت تحت أيديهم بمنتهى التفانى والاخلاص ، ولولا موت مادلين لكنت نجحت فى الايقاع بشبكة الموساد فى لبنان .

- وهل وافقت ؟
- بعد طول تفكير فى العرض ، واجهت نفسى بعدة أسئلة أهمها " ماذا أفعل فى حياتى ؟ لا شىء ذا قيمة أستطيع أن أفتخر لأننى عشت من أجله ، ومن لى فى الحياة أخاف عليه ؟ ليس لى أى أحد لا من قريب ولا من بعيد ، فليس لدىّ ما أخسره ، وعلى العكس أمامى الكثير ممايمكننى أن أكسبه ، ليس فقط إسقاط القضية عنى ، ولكن تقديم شىء نافع لوطنى ، خاصة وأن عقدة الذنب التى كنت لا أزال أشعر بها بأننى قد خنت وطنى من قبل كانت أيضا من أكبر الدوافع التى ساعدتنى فى إتخاذ القرار بالموافقة ، وكما كسبت كل هذة الأشياء ، خسرت فى المقابل أهم حلمين فى حياتى .
- وما هما ؟
- التمثيل والكتابة .
- عرفت الكثير عن التمثيل ، فماذا عن حلم الكتابة .
تنهد أدهم أحرّ تنهدة منذ أن بدأ حديثه عن حياته ، وكأن كل ما لاقاه من صعاب كان فى كفة ، وتخليه عن حلم الكتابة فى كفة أخرى ، ثم قال :
-كانت موافقتى أن أصبح عميلا لدى واحدا من أكبر أجهزة المخابرات فى العالم يقتضى ألا أكون تحت أى نوع من الأضواء ، لذلك كان علىّ إتخاذ قرار بأن أعتذر عن المشاركة بدورى فى فيلم أطول يوم فى التاريخ رغم ما كان يمكنه أن يقدمه لى هذا الفيلم إذا ما أردت رفض عرض المخابرات العامة ، وتمسكت بحلم التمثيل ، الكتابة أيضا كانت قد أصبحت من المحرمات فى حياتى ، لأن عملى لم يكن سيسمح لى بأن يكون لى أعمالاً أدبية منشورة تحمل إسمى وتضعنى فى دائرة الضوء .
عشت حياتى أشعر بأننى ناقص ، ثمة شىء ما ينقص روحى ، وكيانى ، وذاتى ، رغم النجاحات التى كنت أحققها دائما فى عملى مع المخابرات ، فلقد جبت بلادا ، وتقمصت شخصيات ، وارتديت مئات الماسكات ، وأصبح لدىّ عشرات من جوازات السفر بأسماء مختلفة وجنسيات مختلفة وأشكال مختلفة ، فمرة تاجر ، ومرة رجل أعمال ، ومرة طبيب ، ومرة مهندس بترول ، على حسب المهمة التى كنت أكلف بها ، عشت ألف حياة ، بألف وجه ، كل ذلك وكتابى الذى حلمت به لم أكتبه بعد .
-وما هو هذا الكتاب الذى مازلت تحلم بكتابته حتى الآن ؟
سرح أدهم بخياله متأملاً وقال :
-عملا أدبيا كبيرا وضخما يحكى رحلة حياتى ، يضم بين دفتيه صورة مصغرة عن الكون والحياة والخلق والنفس البشرية فى مختلف حالاتها ، عملا إنسانيا فى المقام الأول ، يشجع على الترابط ، على الانتماء ، على الحب ، على السلام

النفسى الداخلى ، ومن ثم السلام الخارجى مع العالم ، على التصالح مع الذات ، ومحاولة البحث عنها وبناءها ، وقد وجدت الكثير من تلك المعانى فى رحلتى معك ومع عائلتك ، وأعتقد أننى سأستعين بالكثير منها عندما أتفرغ لكتابة هذا العمل ، والذى سيكون تتويجا لرحلة تصالحى مع ذاتى أنا أيضا وبناءها .

-وما الدافع الذى سيجعلك حريصا على كتابة هذا العمل الأدبى ؟

-العائلة ، نعم فالعائلة هى الشىء الوحيد الذى لم أنجح فى تكوينه أو الحصول عليه ، قدمت لوطنى الكثير مما أفخر به فى حياتى وأمام ربى ، وأمام مجتمعى إذا ما أتيح لهم أن يعرفوا عنى شيئا يوما ما ، ولكن ما غفلت عنه ، وجرى العمر بى قبل أن أنتبه إليه هو أننى وصلت لمحطات عمرى الأخيرة وأنا وحيد ، لا عائلة أحتمى بدفئها ، ولا أبناء يحملون إسمى من بعدى ، ولا ترابط أشعر بأننى موصول به ، وهذا ما جعلنى حريصا على أن أعوضه فى عائلتك ، وأن أحاول إعادة الترابط والتماسك بين أوصالها مرة أخرى .

-ومتى أنهيت عملك بالمخابرات ؟

-منذ أشهر قليلة بعدما أنهيت آخرعملية لى إستطعت من خلالها الايقاع بأكبر شبكة جواسيس كانت تريد العبث باقتصاد بلادنا ، بعدها قررت التقاعد خصوصا مع بلوغ سن المعاش ، وأردت أن أقضى ما تبقى من عمرى فى أخذ راحة طويلة ، وأن أرسو بسيفنتى على شاطىء الاسكندرية التى عشقتها منذ صغرى ، وبعد أن عدت لأصدقائى القدامى سالم مدكور وأسامة التونى ، تعرفت عليك وعلى عائلتك من خلال مكتبه ، وكان لى نصيب أن تكون هذة العائلة هى آخر ما أود أن أعيشه من تجارب كبيرة فى حياتى ، وقبل أن أتفرغ إلى كتابة عملى المنتظر .

سكت أدهم معلنا إنتهائه من سرد سيرة حياته وكشف ما بها من أسرار ، وشعر يوسف بك بأنه قد أتخم من دسامة ما سمعه من حديث أدهم والذي ظل طوال حديثه لا تفارق الدهشة ولا المفاجأة وجهه، وظل يتساءل في نفسه:

”هل هذا معقول؟ هل هذا الرجل مر بكل تلك التجارب والمراحل؟ من طفل في قرية، لصبى في القاهرة، لشاب له طموح أدبي وصحافي وله ميول سياسية، لإخوانجي، لشيوعي، لسجين سياسي، لزوج، لموظف بالجيش ، لناصري، لمزور، لهارب من حكم، لمهاجر، لصاحب مطعم ، لجاسوس خائن ، ثم لمجند مخابراتى وطنى يعمل لصالح بلاده ، لرحالة فى شتى بقاع الأرض بألف وجه وألف حياة ، وأخيرا لإنسان ذي تجربة وخبرة كبيرة فى الحياة وفى النفس البشرية ، إنها حقا لرحلة جديرة بالتأمل»

ـ على الرغم من صعوبة رحلتك إلا أنها صنعت منك إنسانا ملهما يستطيع أن يبنى ما تهدم، ويؤثر في حياة الآخرين.

هكذا قال يوسف بك بصوت أثقله الشجن والتأثر مما سمعه، وتأمله فابتسم أدهم له ابتسامة لا تخلو من تأثر وربت على كتفه قائلاً :

-شكراً لأنك صفيّت الخراج معى .

فضحك أدهم ضحكا عاليا ثم قال :

-لا زال أمامنا مهمة ثقيلة ، وهى أن نكشف للعائلة سر الكنز الموجود داخل الصندوق ، لنعمل على الوصول للشيفرة التى تفتحه .

وفجأة سمعا صوت جرس الباب يدق، ثم بدأت العائلة في التجمع أسرة تلو أخرى، فساعده أدهم في ارتداء عباءته وناوله عكازه وخرج به إلى الصالة وأجلسه على قمة السفرة الكبيرة والتي كانت في غرفة شقته القديمة بالدور الأول والتي كان التراب يغطيها، الآن هى موضوعة بشقة فريد بك، واجتمع عليها كل أفراد العائلة، وبدأت النساء في وضع الطعام أمامهم جميعا.

كان منظرا مبهجا لم يستطع يوسف بك تحمله ففاضت عيناه بدموع الفرح حيث تحقق له حلم كان يعد من ضروب المستحيل أن يرى أولاده وأحفاده من حوله ويجلسون معه وهم متحابين وناجحين في حياتهم، فشجعوه أن يمسح دموعه ويأكل وبالفعل أكل بشهية لم يعهدها هو أو أحد منهم من قبل.

وأثناء تناوله للطعام مال على أدهم والذي كان يجلس بجواره وقال له بصوت يسمعه الجميع:

- ما رأيك يا أدهم في أن يكون مشروعك الذى تحلم به هو أن تكتب عنّا رواية، خصوصا وأنك تعرف تفاصيل حياتنا جميعا؟

ابتسم أدهم لهذا الاقتراح، وتلقى تعليقات من كل الجالسين تشجعه على قبوله؛ فقال بقليل من الخجل:

- بصراحة لقد كنت أفكر بهذا حقا، خصوصا وأنني تعلمت من كل أسرة في تلك العائلة قيمة ورسالة أتمنى أن أنقلها لكل أسرة وعائلة في المجتمع.

فرح الجميع بكلام أدهم وظل بعضهم يتحايل عليه لكي يقول لهم ما تعلمه من كل أسرة فيهم، وعندما أبدى موافقته، انتبه له الجميع ليسمعوا ما سيلقيه فاستعد قائلا:

- كل أسرة في تلك العائلة تدور حياتها وتتمحور شخصياتها حول قيمة من قيم الحياة، والتي إن استطعنا أن ندرك مغزاها الحقيقي ونطبقه تطبيقا صحيحا لاستطعنا إعادة التماسك إلى أسرنا وعائلاتنا ومن ثم وطننا وأمتنا، فمثلا حياة أسرة سلوى كانت تتمحور حول (الفقر) الذي كان بطلا لها وعاملا فاعلا ومؤثرا في حياة كل أفرادها؛ فتعلمت من رحلتى مع تلك الأسرة أن الفقر الحقيقي ليس فقر المال ولكن فقر النفوس، فمتى اغتنت النفس اغتنت حياة الإنسان.

وتعلمت من رحلتي مع أسرة فريد بك أن المال من الممكن أن يحقق للإنسان الرفاهية، ولكنه لا يمكنه وحده أن يحقق له (السعادة) ، وأن الرضا والقناعة كنزان لا يفنيان وهما سر السعادة الحقيقية.
وتعلمت من رحلتي مع أسرة شهيرة أن بيتا بلا حب، كقبر بلا حياة، وأن من يزرع حُبّا يجنى حُبّا، وأننا بقوة (الحب) نستطيع مواجهة دناءة الخيانة، وأن الحب عندما يدخل من الباب تهرب الخيانة وكل الأمراض الأسرية الأخرى من النافذة.
وتعلمت من رحلتي مع أسرة بلال أن (الأخلاق) دستور حياة من يتبعه ينهض، ومن يلفظه يسقط في ظلمات المفاسد،سواء كان ذلك على مستوى الأفراد أو المجتمعات والدول ، وأن الزوجة الصالحة هي أكبر جائزة يحصل عليها الرجل لأنها تحفظه في ماله وعرضه حتى وإن أهانها وأخطأ في حقها.
وأخيراً تعلمت من تجربتي مع أفراد تلك العائلة أن الإنسان منا أحياناً قد يحبس نفسه بنفسه داخل دائرة ثلاثمائة وستون درجة، يظل يدور حولها دون أن يصل إلى نهاية، فكلما انطلق من نقطة البداية وجد نفسه قد عاد إليها مرة أخرى، فمنا من يظل حبيس دائرة عمل لا يحبه، ومنا من يظل حبيس دائرة دراسة لا يحبها، ومنا من يظل حبيس دائرة زواج فرض عليه .. إلخ تلك الدوائر الموجودة فى حياتنا ولا تنتهى، والحل بسيط وهو أن ينجح كل منا فى كسر تلك الدائرة المحبوس بداخلها والخروج منها إلى عالم أكثر رحابة وإتساعاً ووقتها سيحدث التغيير المنشود فى حياته، وهذا ما كنت أحاول أن أفعله مع كل فرد منكم، أن أساعده لكى يسكر دائرته ويخرج منها.
كان الجميع يسمعون أدهم وهم ما بين مبتسم ومتأمل، ولكنهم ضجوا بالضحك عندما سمعوا أباهم يسأله قائلا:
- وأنا ألم تتعلم منى أي شيء؟؛
فالتفت إليه مبتسما، وقال:
- تعلمت منك أن من يترك جذوره يذبل ويموت، وأن من يترك تاريخه يصبح مسخا بلا هوية، وأن الأب كالعمود الفقري للإنسان لا يستقيم ظهره إلا به، وأن احتضان الأبناء خير وسيلة لتربيتهم لأن الشدة والعنف لا يولدان إلا مزيدا منهما.
هنا أومأ يوسف بك برأسه، وقال مؤمنا على كلامه:
- معك حق، لقد أخطأتُ كثيرا في تربيتي لأولادي، ولكن عفا الله عما سلف.
وبعد أن انتهى الغداء، وتناولوا الشاي والفاكهة وجلسوا في مجموعات سمر واسعة ، نظر يوسف بك إلى أدهم نظرة خاصة ثم غمز له بعينه علامة على الانطلاق ، فقام أدهم متوجها إلى غرفة يوسف بك وبعد أقل عدة ثوان خرج

مـن الغرفـة حامـلاً لصنـدوق خشـبى صغيـر ومميـز ، ممـا لفـت إنتبـاه الجميـع لـه ، كانـوا يجلسـون فـى صالـون دائـرى يسـتوعب الجميـع وأمامهـم منضـدة صغيـرة عليهـا بقايـا أطبـاق فاكهـة ، وضـع أدهـم الصنـدوق علـى المنضـدة ثـم وقـف أمامهـم صامتـا لثـوان ثـم قـال :

-عائلـة يوسـف بـك المصـرى ، حانـت الآن لحظـة كشـف السـر الـذى طـال كتمانـه عنكـم ، الآن حانـت اللحظـة التـى إنتظرتهـا طويـلا ، وقمـت مـن أجلهـا برحلتـى الشـاقة التـى قطعتهـا مـع كل شـخصية فـى تلـك العائلـة ، حتـى أهيـىء الجميـع لتلـك اللحظـة .

فهل أنتم مستعدون ؟

كان الجميـع ينظـرون إليـه ثـم ينظـرون إلـى بعضهـم البعـض ببلاهـة وإسـتغراب ، حتـى كسـر فريـد بـك جمـود الصمـت والإندهـاش قائـلاً :

-مستعدون لماذا ؟ وما هذا الصندوق الغريب ؟

ورغم قلقه الذى بدا عليه ولم يستطع إخفائه ، قال يوسف بك :

-إن هـذا الصنـدوق بـه شـىء يخصكـم جميعـا ، تركـه لـى جدكـم قبـل رحيلـه ، وآن لـى أن أسـلمه إليكـم قبـل أن أرحـل .

إرتفـع صـوت الجميـع وتداخـل وهـم يدعـون ليوسـف بـك بالصحـة وطـول العمـر ، ولكـن الحيـرة والدهشـة كانتـا يسـيطران علـى ملامـح الجميـع ، حتـى قـرر أدهـم أن يقطـع كل ذلـك بشـرح كل شـىء مهمـا كانـت عواقبـه ، فأمسـك بالصنـدوق وقـال :

-الحكايـة التـى ستسـمعونها الآن مـن الممكـن ألا تصدقونهـا فـى بـادىء الأمـر ، لأنهـا لا تحـدث عـادة إلا فـى قصـص وحكايـات ألـف ليلـة وليلـة ، ولكـن عليكـم أن تتقبلوهـا رغـم غرابتهـا لأننـا ليـس لدينـا حـل آخـر .

نظر إلى الصندوق بأهمية وإستغراب ، فأكمل أدهم يقول :

-هـذا الصنـدوق كان مدفونـا فـى صنـدوق آخـر كبيـر فـى البـدروم ، أسـفل هـذه الفيـلا ، ومـن المفـروض أنـه يحتـوى علـى « كنـز « هـذة العائلـة وكل مـا تملكـه .

سلوى : ومن إكتشف هذا الصندوق ؟

يوسف بك : وصفه لى أبى قبل موته .

نازك : وما هو هذا الكنز الذى به ؟ هل هى مجوهرات ؟

إبتسـم أدهم لسـؤال نـازك حيث تفتحـت شـهيتها القديمـة لعصـر المجوهـرات ، بينمـا تكلـم بـلال قائـلا :

-وما الذى دفع جدى لأن يفعل ذلك ؟

قال أدهم مؤكدا :

- ليست هذة هى المشكلة ، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن فى كيفية فتحه .

قالت شهيرة مستفهمة :

-هل لايفتح ؟
أشار أدهم على قفل الصندوق الرقمى قائلا :
-هذا الصندوق لا يغلق بمفتاح أو قفل ، وإنما يغلق بكلمة سر .
تبادل الجميع نظرة إندهاش ، فأردف أدهم وقال :
-إنها شيفرة مكونة من خمسة أحرف ، لكن المشكلة فى أن اللغة غير مفهومة ، ليست من اللغات التى نعرفها ، وهذا ما يعقّد مسألة فتحه .
طلب فريد بك أن يمسك الصندوق ليطّلع عليه ، فأعطاه أدهم الصندوق ، ثم بدأ كل شخص يطلبه أيضا ليراه ، فمر الصندوق على جميع الجالسين ، يتفحصونه بقليل من التصديق ، وبكثير من الإستغراب والتعجب ، وأثناء إنهماكهم فى فحصه ، تبادل أدهم ويوسف بك نظرة خاصة تعبر عن تفهمهما لاستغرابهم ، ولرغبتهما فى إنهاء هذا الأمر فى سلام وينجحون فى التوصل لكلمة السر وفتح الصندوق ، وبعد أن إنتهى الجميع من فحصه ، أخذه أدهم ليكمل لهم شارحا :
- كما قلت لكم ، هذا الصندوق مغلق بشيفرة سرية عبارة عن كلمة مكونة من خمسة أحرف ، هذة الكلمة هى التى تغلق القفل ، هذا القفل عبارة عن مصفوفة من الحروف ، يتم ضبطها بشكل متوازى على كلمة معينة يختارها من يريد غلقه ، وعليه أن يضبطها مرتان بنفس الطريقة حتى يغلق القفل فى المرة الثالثة ، وبذلك يصبح الصندوق مغلقا بهذة الشيفرة ولا يستطيع أحد أن يفتحه سوى الشخص الذى أغلقه .
ثم فكّر قليلاً وأردف يقول :
-ولكن جدكم قد قال ليوسف بك جملة هامة أعتقد أنها ستساعدنا على معرفة كلمة السر .
ثم نظر إلى يوسف بك وكأنه يعطيه طرف الحديث ، فقال يوسف بك :
-لقد أكد لى أبى أنكم لم تتمكنوا من إيجاد كلمة السر وأنتم متفرقون ، وأنكم متى اجتمعتم على قلب رجل واحد ، إستطعتم الوصول إلى حل الشيفرة .
هنا قال أدهم باسما :
-وهذة كانت هى مهمتى معكم طوال الفترة الماضية ، وسر تدخلى فى حياتكم ومحاولة إصلاح ما بينكم ، حتى أزيل ما بينكم من سدود وتجتمعون كما أنتم الآن ، والحمد لله قد نجحت .
إتسعت نظرات الجميع عندما سمعوا تلك الجملة وعرفوا سر إهتمام أدهم بهم وبحياتهم طوال تلك الفترة ، فابتسموا من وقع المفاجأة ، وإن كان موضوع هذا الصندوق الغامض لايزال يشغل الحيز الأكبر من تفكيرهم ، فقال « حمادة « مفكرا :

-إذن كلمة السر شىء علينا إستنتاجه من تجمعنا على قلب رجل واحد ؟
هز أدهم رأسه تأميناً على كلامه ، وأخذ الجميع يفكر بعمق فيما يمكن أن تكون تلك الشيفرة ، والمعنى الذى قصده الجد من وراء تلك الجملة ، ومنهم من وقف وأخذ يدور فى الصالة مفكرا ، وبعد فترة صمت وإستغراق فى التفكير أعقبتها سلسلة من الإقتراحات الخائبة التى طفحت فى ذهن كل منهم وألقى بها على مسامع الجميع ، قفزت فى عقل أدهم فكرة أصابته بالانتباه الشديد فجأة ، وكأن ضوؤا قد تركّز فجأة فى عقله ، فقام من جلسته التى كان قد جلسها منذ قليل ، وهو يدور حول المنضدة أمامهم وقد إضيقت عيناه من التركيز ثم قال :
-أشعر بأننى وجدت خيطا .
هنا إنتفض الجميع فجأة وكأن سلكا كهربائيا قد لسعهم ، وتطلعت رؤوسهم نحوه آملين ، وكانت أسرع من إستجاب وعلّق هى نازك ، التى إلتفتت إليه بلهفة وقالت :
-أى خيط ؟
دار أدهم وهو مازال يضّيق عينيه مركزّا ومفكرا وقال :
-أعتقد بأن الأمر أبسط مما نتوقع ، أليس جدكم قد قال أن كلمة السر ستفهمونها إذا إجتمعتم على قلب رجلا واحدا ؟ وقد أخبرنى يوسف بك من قبل أنه قد فعل ذلك لأنه قبل أن يموت لمس منكم جنوحا إلى العزلة والفرقة ؟
قال يوسف بك متحمسا :
-إذن فالكلمة التى نبحث عنها والمكونة من خمسة حروف لن تكون إلا شيئا يعبر عن وحدة العائلة ؟
وفجأة إتسعت أعين أدهم دهشة بعد جملة يوسف بك وتحديدا الكلمة الأخيرة ، فقال :
-ولماذا لا تكون " عائلة " هى كلمة السر ؟
نظر الجميع إلى بعضهم البعض ، وأخذوا يعدّون أحرف كلمة « عائلة « على أصابعهم ليتأكدوا من أنها خمسة أحرف ، ثم صاحوا جميعا مهللين ومكبرين ، ومنهم من إحتضن الذى بجواره ، سعداء بأنهم قد توصلوا إلى كلمة السر .
ولكن قطع أدهم فرحتهم وقال :
-ولكن هذا لايعنى أننا سنتمكن من فتح الصندوق بعد ، لأن القفل حروفه ليست بالعربية ولا حتى الانجليزية ، ولكنها بلغة غريبة كما قلت من قبل .
أصاب الإحباط الجميع مرة أخرى بعد أن كانوا فى منتهى السعادة والبشر ، ورجع الجميع إلى أماكنهم يفكّرون ويعصرون أدمغتهم ، ومر وقت طويل وهم فى نفس الجلسة حتى أن النهار قد إنقضى ولم يصل أحدهم إلى شىء ، وأثناء إستغراق أدهم فى التفكير وإستراجعه للحوار الذى دار بينه وبين يوسف بك من

قبل وهو يخبره بسر هذا الصندوق ، تذكر فجأة الرجل الأجنبى صاحب هذا الصندوق والذى أهداه للجد بعدما عثر له على خاتم زوجته ، ثم قام فجأة وهو يسأل يوسف بك قائلا :

-يوسف بك ، أتتذكر ذلك الأستاذ الجامعىّ الذى أهدى لوالدك هذا الصندوق ؟

فكر يوسف بك قليلا محاولا التذكر ثم قال مؤكدا :

-بالطبع أذكره ، ولكن لماذا فكرت فيه الآن ؟

تطلعت رؤوس الجميع نحوه مرة أخرى وقد عاودها الأمل ، فقال أدهم :

-ألم تقل لى أنه كان أستاذا للأدب اللاتينى فى إحدى جامعات دول أمريكا اللاتينية ؟

-نعم هو كذلك.

فقال أدهم مبتسما :

-ولماذا لا تكون كلمة السر مكتوبة باللغة اللاتينية ؟

تبادل الجميع النظر باندهاش ، ولكن أدهم نظر إلى « حمادة « وقال :

-حمادة ... أريدك أن تدخل على الانترنت من هاتفك المحمول ، وتسأل مولانا « جوجل « عن معنى كلمة (عائلة) باللاتينى ؟

وبسرعة فتح حمادة تليفونه المحمول ودخل على موقع جوجل ونفذّ ما طلبه أدهم منه وإنتظر النتيجة ، وبعد عدة ثوان قال حمادة متفاجئا :

- (چينوس) ، معنى كلمة عائلة باللاتينى هو (چينوس) .

وبسرعة تقدّم أدهم نحو الصندوق وحمله ، فوقف الجميع وإلتفوا حوله فى دائرة مغلقة بما فيهم يوسف بك ، واللهفة والإثارة تملأ كل ذرة فى كيانهم ، وبدأ أدهم فى تحريك مصفوفة الحروف ويكتب حروف كلمة (چينوس) بالترتيب ، ثم أدخلها للمرة الثانية ، وفجأة سمع الجميع صوت طقطقة ، وهنا أطلق أدهم زفيرا طال حبسه ثم نظر إليهم مبتسما وقال :

-لقد فتحنا الصندوق .

(٥٨)

إذا كان فتح هذا الصندوق الغامض هو مايثير كل أفراد العائلة ، فإن معرفة «الكنز» الذى يحتوى عليه كان هو الأكثر إثارة للجميع بما فيهم أدهم ، بالرغم من عدم إستفادته من أى شىء سيكون بداخله سوى أنه سيكون قد حقق حلمه ونجح فى المهمة التى حملها على عاتقه وهو أن يرى كل هؤلاء ملتفون على قلب رجل واحد كما تمنى الجد ، وكما تمنى الأب يوسف بك ، وكما تمنى هو أيضا .

كانت اللحظات التى يرفع فيها أدهم غطاء الصندوق لأعلى هى أكثر لحظات إثارة عاشها كل فرد منهم ، وكان الجميع يشعر وكأنه يعيش داخل أجواء قصة خيالية وغريبة والكل مستمتع بالتجربة التى يخوضونها ، وبعد أن فتح أدهم الصندوق وحصل على الحق الحصرى فى إلقاء النظرة الأولى بداخله ، فاتسعت عيناه دهشة لعدة ثوان ، كان الجميع ينظرون فيها إلى ملامح وجهه ، ويقرأونها وكأنها مرآة تعكس ما يراه بالداخل ، ثم أخفض أدهم يديه حتى يتمكن الجميع من التطلع إلى داخل الصندوق ، حتى وضعه على المنضدة ، ثم إستأذن الجميع أن يسمحوا له أن يمد يده ويخرج ما بداخله باعتباره أنه غريب عنهم ، وأن ما بالداخل هو ملك لهم ، فحثوه أن ينفذّ ذلك دون تفكير ، فمد أدهم يده ببطىء وهدؤ ، والجميع يتابع حركة يده بأعصاب متوترة ، وأخذت يد أدهم تجول وتدور داخل كل أركان الصندوق ثم خرج بظرف مغلق .

نظر الجميع إلى الظرف المغلق باستغراب ، ثم نظروا إلى داخل الصندوق فلم يجدوا شيئا آخر ، فرفعوه إلى أعلى ثم قلبوه حتى يسقط أى شىء منه فلم يحدث ، إذن الكنز فى هذا الظرف .

فتح أدهم الظرف ، فأحدث تمزقه أثناء الفتح صوتا عبّر عن مدى عمق الصمت الذى يغرقون فيه ، ثم أخرج أدهم ورقة قديمة مما كان يطبع عليها فى الماضى قبل تطور الطباعة أقرب فى شكلها إلى ورق البردى ، كانت مبرومة ففككها أدهم حتى اصطدم بعقبة أخرى وهى سؤ الخط المكتوب به الكلام المدون بها ، جاهد فى قراءة العنوان ثم قال مؤكدا :

-إنها رسالة مكتوبة بخط اليد .

قال يوسف بك :

-موجهة إلى من ؟

نظر أدهم إلى الجميع فى نظرة دائرية شملتهم وقال :

-إنها لكل العائلة .

تبادلوا النظر ثم نظر يوسف بك إلى أدهم وقال :

-إقرأها علينا يا أدهم.

شعر أدهم ولأول مرة بالحرج وأخذ ينظر إلى أعين الجميع مرة أخرى وكأنه يستطلع رأيهم ، ولما وجد الجميع يومئون له مؤمنيّن على كلام يوسف بك ، إستعد أدهم للمهمة ونظر فى الرسالة مدققا ثم بدأ يقرأ نصّها قائلا :

-إبنى يوسف .. أحفادى الأعزاء

هذة رسالة من جدّكم الذى لطالما أحبكم ، وحزن لتفرقكم

معنى أنكم مجتمعون الآن وتقرأون تلك الرسالة ، أنكم قد أعدتم التواصل فيما بينكم ، وإجتمعتم على قلب رجل واحد ، لأنكم ما كان لكم أن تصلوا إلى كلمة

السر والشيفرة التى أغلقت بها هذا الصندوق إلا إذا كنتم قد ردمتم الهوة التى اتسعت بينكم ، وأعدتم الترابط بينكم كعائلة مرة أخرى ، وإعلموا كم كنت أتمنى أن أكون حاضرا معكم الآن لأرى هذا المنظر الذى كنت أتمنى أن أنجح فى تحقيقه بعد مماتى بعد أن فشلت فى تحقيقه فى حياتى ، ولكن عزائى الوحيد أنكم إذا وصلتكم هذه الرسالة سأكون قد حققت ما صبوت إليه ، ومتأكد من أن روحى ستشعر بذلك وستحلق حولكم لتبارك لكم عودتكم الى الوحدة والتماسك مرة أخرى .

أحفادى الأعزاء ... لقد قضيت معظم حياتى فى البحر ،وأعيش من خيره على البر ، وكم الدروس التى تعلمتها منه لا تعد ولا تحصى ، ولكن الدرس الأهم الذى اريد أن أنقله إليكم والذى كنت أنفق ساعات طوال أثناء رحلات صيدى فى تأمله هو ، أن الحياة كالبحر ، مهما نظرت إليه واعتقدت أن ليس له آخر ، ستكتشف فى النهاية أنك خدعت ، وأن ثمة شواطىء أخرى موجودة لكى تصل إليها عليك خوض رحلة شاقة وخطيرة حتى تبلغها ، كذلك هى حياة الفرد منا ، رحلة شاقة نعتقد فى لحظات أن ليس لها آخر ، ثم يجرى بنا العمر فجأة لنكتشف أن ثمة شاطىء قد إقترب ، شاطىء سيكون معنى وصولك إليه هو نهاية الرحلة ، وهو الموت . ولكن ليس هذا الشاطىء الأخير هو ما أود أن أحدثكم عنه ، بل الرحلة ما بين الشاطئين هى جل ما أود لفت أنظاركم إليها ، حياتكم ، ستكتشفون مع الوقت أنها أسرع رحلة فى الوجود ، حتى وإن إمتدت لما يقرب من عشرة عقود .

وعلمنى البحر أيضا أن البشر كالأسماك ، لا يعرف أحدهما أن يعيش مكان الآخر ، البشر إذا نزلوا تحت الماء ماتوا ، والأسماك إذا خرجت من الماء ماتت أيضا ، ومن هذا تعلمت أننا لم نخلق عبثا ، وأن لكل مخلوق فى هذة الحياة دور جاء لينفذه ، وحياة جاء ليحياها ، وهذا ما لايعرفه كثير منكم حتى الآن ، لذلك تخبطتم كثيرا ، وسرتم كالتائهين فى مسارات مختلفة ومتضادة ، الأمر الذى إن لم تعالجوه وتدركوا دوركم الحقيقى فى هذة الحياة ، ستكتشفون فجأة أن الرحلة قد انتهت ووصلتم إلى الشاطىء الأخير دون أن تنجزوا شيئا ، ولا مجال للعودة للخلف مرة أخرى.

وتعلمت أيضا أننا نطفو جميعا كبشر فوق مياه كالبحر ، على إمتداده وإتساعه ، ولكن أتعلمون ما يمنعنا من الغرق فى تلك المياه التى نسبح فوقها ؟

إنه الترابط فيما بين البشر ، والتماسك بين أفراد بنى آدم ، والوحدة التى تمكن الانسان من مواجهة كل المخاطر والأعداء سواء أكانوا من الطبيعة أو حتى ممن غلبه الشر وأصبح منهاجه من بنى البشر أيضا .

وبتأمل حياتى وحياة كل من عرفتهم لم أجد ما يوفر للإنسان الترابط والتماسك

والوحدة غير تلك الشجرة الوارفة قوية الجذور ، وارفة الظلال ألا وهى .... العائلة.
نعم العائلة وحدها هى التى تمكن الإنسان من مواجهة كل مخاطر الحياة ، وتشعره بذاته وبأن له جذور يمتص منها القوة والحب والسلام والدفىء والعطاء والأخوة والمشاركة ، لأنه سيخرج من عائلته الصغيرة ليجد نفسه يتعامل فى حياته مع عائلة أكبر وهو المجتمع الذى يعيش فيه ، ثم سيكتشف أنه يعيش فى عائلة أكبر وأكبر إسمها العالم ، والأرض ، فإن كان قد تعلم كل تلك القيم الجميلة فى عائلته الصغيرة ، فسيخرج لعائلته الأكبر فى المجتمع والعالم وهو يحمل نفس الصفات والقيم ، ليكون إنسانا إيجابيا ، لديه القدرة على أن يعطى أكثر مما يأخذ ، ويحب أكثر مما يكره ، ويبنى أكثر مما يهدم ، وينشر السلام أكثر مما يسعى إلى الحرب ، إنظروا إلى العالم الآن وهو ينهار من كثرة الحروب والدمار والخراب الذى حل به ، وإذا نظرتم إلى كل من تسبب فى ذلك أستطيع أن أؤكد لكم أنه لم يتربى داخل عائلة صغيرة تعلم منها الحب والعطاء ، لذلك عندما خرج إلى العائلة الكبيرة « العالم « خرج إليه خاويا وفارغا من أى مضمون سوى الكره وعدم الاحساس بالانتماء إلى جذور متينة وقوية ، لذلك تقتلعه الريح بكل سهولة ، فالانتماء إلى العالم أو إلى الأوطان يبدأ أولا بالانتماء إلى العائلة .
ولقد عاشرت ورأيت فى حياتى أناس من جنسيات ودول ومجتمعات مختلفة ، ورأيت أن مجتمعنا المصرى والعربى قد خسر الكثير فى القرن السابق جراء كثرة الغزو والاحتلال والحكم الاستبدادى الذى سلب من الأمة إرادتها ، ولكنى إكتشفت بالتجربة أننا مازلنا لم نخسر بعد أهم ما يميزنا كأمة ، وما هو ليس بموجود فى أى أمة أخرى على هذا الكوكب ، (العائلة) نعم مازالت تلك الكلمة هى كلمة السر فى حفظ توازننا وبقاءنا على قيد الحياة فى هذا العالم رغم كل مافعل ومازال يفعل بنا ، ولا شك أن الحرب علينا قد بدأت تلتفت إلى هذا الأمر وبالفعل بدأت الأسلحة تتوجه لضرب فكرة وإحساس العائلة فى مجتمعاتنا ، وأصبحنا نلمس مؤخرا تغيرات شديدة قد بدأت تحدث فى مفهوم العائلة لدينا ، وشروخ قد بدأت تصيب آخر جدار نحتمى به ، نرى ذلك فى مناهجنا ، فى إعلامنا ، فى فننا ، فى أدبنا ، حتى فى إعلاناتنا ، فلو لاحظتم كم الاعلانات التى تحقر من العائلة ، وتعتمد على إظهار الأباء والأمهات على أنهم « دقة قديمة « وغير عصريين ومتخلفين وغير متطورين مثل الأبناء ، أو تظهر الأبناء وهم يستهزئون بأبائهم وأمهاتهم ، مما يرسخ فى العقل الباطن إمكانية تمرد أى إبن على أهله وعائلته مما يفسّخ فى العلاقات ، ويهدم فى القيم التى تقوم عليها أصل العائلة ، فبعد النجاح الساحق الذى تحقق فى فقدان إحترام

الطلاب لمعلمهم ، وضياع هيبة المعلم ، جاء الدور على الأب كرمز لرب العائلة ، وكل ذلك يحدث دون رقابة من أحد ، وسواء كان ذلك مقصودا أو غير مقصود فالنتيجة واحدة فى النهاية .. وهى ضرب العائلة .

ففى مجتمعنا فقط تجد العائلة هى من تحتضن الشخص فى صغره ، فيكبر بين عماته وأعمامه ، أو خيلانه وخالاته ، وفى مجتمعنا فقط تجد الشخص يطلق على جده لقب (سيدى) ، وعلى جدته لقب (ستى) مما يعكس قدسية وتقدير العائلة وكبراءها ، وفى مجتمعنا فقط تجد العائلة تحتوى الشخص حتى عندما يكبر ، فيصرفون عليه ، ويزوجوه فى نفس البيت ، وفى مجتمعنا فقط تجد تأثير فكرة العائلة ممتد مع الشخص حتى خارج بيته وخارج عائلته ، فيقول لأى شخص كبير (ياوالدى) ولأى سيدة كبيرة (يا أمى) ، وعن أى فتاة من الجيران (زى أختى) ، وكل ذلك يعكس التأثير القوى لفكرة العائلة على حياتنا ، ولكن ألم تلمسوا معى أن كل ذلك قد بدأ يتلاشى ويختفى تدريجيا ، فلم يعد هناك الاحترام الكافى لأى كبير ، ولم يعد هناك شعور بالأمان من أى فتاة وهى تسير حتى ممن يسكن بجوارها ، وتبدلت كثير من القيم والمفاهيم ، وبدأ مفهوم العائلة فى فقدان الكثير من تأثيره ؟

ليس عليكم التفكير فى كل ذلك ، فقط انظروا إلى أنفسكم ، وإلى حالكم مع بعضكم البعض ، ألم تنجحوا فى أن تتفرقوا ؟ وأن يسير كل منكم فى إتجاه بعيد عن الآخر ؟ ألم تنجحوا فى فسخ وقطع كل ما يربطكم ببعضكم كأخوة ، بل وكل مايربطكم كأبناء بابيكم للدرجة التى قررتم أن ترفعوا عليه قضية حجر لتفرطوا فى أكثر شىء يضمن لكم التجمع والانتماء ، فالبيت كالوطن ، تستطيع أن تهاجر عنه ولكن لا تهجره ، وفرق كبير بين الهجرة والهجر ، قارنوا بين حالكم قبل أن تتفرقوا ، وبين حالكم بعد الفرقة ، ثم قارنوا بين حالكم عندما كنتم متفرقين وبين حالكم الآن ، فى تلك اللحظة التى تقرأون فيها رسالتى ، وكلكم ملتفون حول بعضكم البعض ، بتماسك وترابط لا يمكّن أى عدو من إختراقكم .

الآن عرفتم ما كنت أريد إيصاله إليكم ، وعرفتم لماذا اخترت أن أجعل كلمة السر التى تفتح هذا الصندوق هى كلمة « عائلة « وليس لى شىء أريده بعد ذلك .

ملحوظة : مرفق مع هذة الرسالة عقد تمليك هذة الفيلا وهو كل كل ما تملكه العائلة وهو ليس هينا أو قليلا بالمناسبة لأن هذة الفيلا تساوى الآن الملايين من الجنيهات ، تستطيعون الآن أن تبيعوها إذا أردتم وأن يأخذ كل منكم نصيبه ويسير وحده فى إتجاهه ، وتستطيعون أيضا أن تجتمعوا على قلب رجل واحد وتعيدون بناءها وتسكنون جميعا بها وتملأون كل ركن فيها بالحياة وبروح العائلة ، القرار لكم الآن ، فاختاروا ما تريدون ، وبهذا تنتهى رسالتى إليكم .. والسلام

والحب عليكم.
إنتهى أدهم من قراءة الرسالة بصوت متأثر ، ثم نظر إلى الجميع فوجد آثار الدموع على كل الوجوه ، ثم تبادل الجميع نظرة صامتة وكأنهم لا يجدون كلاما يمكن أن يقال ، فلقد فهموا كل شىء الآن ، فهموا رسالة جدهم التى أراد أن يوصلها لهم ، وأدركوا معنى وقيمة وأهمية العائلة ، وشعروا كم كانوا يرتكبون خطأً شنيعا بتفرقهم ، كما شعروا أيضا كم كانوا يعرضون أنفسهم لخطر حقيقى ببعدهم وقطع ما بينهم من تماسك وترابط ، كما فهموا أخيرا أن « الكنز « لم يكن ياقوتا أو مرجانا أو ذهبا ، إنما كان الكنز فى تلك الرحلة التى قطعوها حتى يعودوا مرة أخرى على قلب رجل واحد.
وفجأة ، شعر يوسف بك بشيء من التعب المفاجيء، والذي أخذ يشتد عليه شيئا فشيئا، فطلب منهم أن يدخلوه إلى سريره.
سرى القلق في أوصال الجميع ونقلوه بالفعل إلى سريره والتفوا حوله جميعا، وجاهد ليفتح عينيه ويتأمل وجوه كل الموجودين من حوله من الأبناء والأحفاد؛ فضغط على نفسه ليرسم على شفتيه ابتسامة، وضغط على يد أدهم الجالس بجواره وحاول أن يتكلم بصعوبة وقال:
- شكرا لك يا أدهم على أنك حققت حلمي وجعلتني أرى هذا المنظر قبل أن أموت.
حاول أدهم أن يثنيه عن تلك الأقاويل، ولكنه ضغط على يده ليصمت ثم أردف قائلا:
- هل تذكر حديثنا الأول معا عن الراحة ؟ عندما قلت لك أنني ظللت أبحث عنها ولم أجدها ودائما ما كنت أقول عنها أنها هناك.. الآن فقط عرفت ما هي...
إنها الأمل.
نعم الراحة هي الأمل
الأمل في الله،
الأمل في الغد،
الأمل في تحقيق الأحلام السعيدة؛
فالأحلام الصادقة والنبيلة لابد وأن تتحقق حتى وإن طال تأخيرها،
الأمل مفتاح كل مغلق في الحياة، فكلما كان عند الإنسان أمل كانت عنده رغبة في الحياة، وأنت يا أدهم كنت هذا الأمل لنا جميعا، جميعنا كان يحتاجك لتعيد الأمل إلى نفسه وحياته، ولقد زرعت فينا هذا الأمل، وها هو الحصاد أمام عينيك ، فإن كان أبى قد أراد أن يوصل لنا أن الكنز فى رحلة الانسان فى بناء عائلته ، فأنت كنت القائد لهذة الرحلة ، والحقيقة أنك قدتها بنجاح باهر.

ثم ترك يد أدهم ورفعها ببطء وضعف ومدها نحو كل الواقفين من حوله، وقال:
ـ والآن عاهدوني على أنكم ستصبحون يدا واحدة وقوة واحدة، وألا تسمحوا للخلاف ولا الشقاق أن يمزقوا وحدتكم بعد ذلك أبدا.
وامتدت أيادي جميع أفراد العائلة إلى يد الرجل من كبيرهم إلى صغيرهم يقبلونها ويمسكون بها معاهدين إياه على تنفيذ وتحقيق ما طلبه منهم.
وفجأة سقطت يده من تحت أيديهم، وسرعان ما هزّ الصراخ أركان الفيلا، ومد أدهم أصابعه ليغمض بهما عينيه، ثم غطى رأسه بالملاءة مؤكدا وفاة يوسف بك ورحيله عن عالمنا.

(٥٩)

ورحل يوسف بك بعدما حقق له أدهم حلمه بأن يرى أولاده ملتفين مرة أخرى من حوله بعد أن انفرط عقدهم من يده وسار كل واحد منهم في اتجاه بعيد عنه.
كان لوفاته بالغ الأثر في نفس أدهم حيث كان قد ارتبط به ارتباطا وثيقا ذكّره بارتباطه بأبيه في بداية عمره؛ فكان يقف في سرادق العزاء فى مسجد القائد إبرهيم بمحطة الرمل يتلقى التعازي بجوار أبنائه كواحد منهم، هكذا كان يشعر هو ويشعر كل من حوله..
وبعد أن انتهى العزاء ذهب الى الفيلا وصعد معهم إلى الأعلى ليودعهم الوادع الأخير، حيث بانتهاء حياة الرجل انتهى سبب وجوده الأساسي في هذا البيت، حتى وإن لم تنته صداقته بأفراد العائلة بعد ذلك.
كان موقفا مهيبا ومؤثرا حقا، حيث وقف بمنتصف شقة فريد بك والتي أصبحت هي مركز تجمعهم الدائم باعتباره أخيهم الأكبر وقائدهم بعد وفاة أبيهم. ووقف الجميع من حوله صامتين لا يجدون ما يقولونه، ولا يجد هو ما يقوله حتى استطاع أن ينطق ويقول:
ـ أستطيع أن أقرأ مشاعركم الآن، وما يدور بصدوركم نحوى، وهي لا تختلف عما يدور بصدري أنا أيضا، ولكنها الحياة التي أرتنا وعيّشتنا فصولا كثيرة، وكان لابد أن ترينا وتجعلنا نعيش أخر فصل فيها وهو الموت.أو الشاطىء الأخير على حد وصف جدكم فى رسالته.
هنا قال فريد بك بصوت مؤثر:
ـ لقد كنت لنا حقا الأمل كما قال أبى، الأمل الذي تحتاجه كل عائلة، كنت لنا أبا روحيا بحق ، كنت لنا الضياء الذي على هداه ونوره يجب أن تسير كل

عائلـة وتبـدأ فـي إعـادة وترتيـب هيكلهـا مـن الداخـل وإعـادة النظـر فـي علاقاتهـا وأواصرهـا وترميـم شـروخها وشـد مـا بحبـال ودهـا مـن تـراخ، وتضميـد جراحهـا، حتـى تعيـد التماسـك إليهـا وإلـى وطنهـا وأمتهـا كمـا قـال جـدى وكمـا كنـت تقـول أنـت أيضـا.

تقدم أدهـم نحـوه واحتضنـه فلـم يسـتطع فريـد بطيبتـه أن يمنـع نفسـه مـن الدمـوع، ثـم انتقـل أدهـم إلـى سـلوى وتبـادل معهـا نظـرات يملؤهـا الابتسـام مـن ناحيتـه، ويملؤهـا الامتنـان مـن ناحيتهـا؛ فقاومـت دموعهـا وقالـت:

- كنـتُ قبـل ظهـورك فـي حياتنـا أشـعر بأننـي امـرأة ممزقـة مليئـة بالشـروخ مثـل حائـط بيتنـا حتـى اسـتطعت بفضلـك أن أرممهـا.

فقال أدهم مداعبا ومستعينا ببسمة ضد فرار دمعة:

- أية شقوق؟ التي بداخلك أم التي - كانت - بالحائط؟

فقفزت منها ضحكة رغما عنها وقالت وهي تغالب دموعها:

- الإثنان حدث لهما الترميم.

ثم انتقل أدهم إلى حمادة فربت على وجهه، وقال:

- لقد وعدتني بأن تذهب بمصر إلى كأس العالم قبل أن أموت.

ولم يستطع الفتى التماسك أمامه فجرى إلى غرفته منفجرا في البكاء.

ثم وقف أدهم أمام نهى؛ فقالت بصوتها الرقيق:

- لولاك لكنت ودعت الحياة.

فقال برقة أبوية تعودتها نهى:

- هـذا أفضـل إنجـاز صنعتـه فـي حياتـي، لقـد أصبحـتِ الآن مذيعـة ناجحـة ولـك جمهـور ومعجبيـن قبـل حتـى أن تنتهـي دراسـتك، خبرينـي كيـف كانـت سـتطيب لنـا الحيـاة بـدون نسـمة رقيقـة مثلـك؟

حطـم هـذا الإطـراء تماسـكها الـذي حاولـت إظهـاره، فانفجـرت باكيـة ولحقـت بأخيهـا حمادة.

وعندما وقف أمام نازك وجد عينيها مليئة بالدموع؛ فقال متأثرا:

- لقد عرفتك أميرة، والآن أتركك ملكة متوجة.

فقالت بصوتها النازكي الجميل:

- لقـد صنعتنـي يـا أدهـم، وكمـا قـال فريـد ، أنـت أبـى الروحـى و سـأظل مدينـة لـكَ بحياتـي مادامـت.

ثم التفت إلى شهيرة، والتي قالت:

- كلنا ندين لك بحياتنا، وسيظل اسمك محفورا على جدران قلوبنا.

أمـا عـن سـالي وطـارق ووحيـد وحتـى عاصـم فلـم يسـتطيعوا احتمـال الموقـف، ولحقـوا بنهـى وحمـادة، ولـم يتبـق سـوى بـلال وإيمـان، فالتفـت نحوهمـا باسـما وقـال:

ـ كنتما بعد نازك أصعب شخصيتين في مهمتي نظرا لتضادكما، ولكني سعيد جدا بأنني تعرفت عليك يا إيمان، فأنتِ نموذج رائع ليته يُعمم، أما أنت يا شيخ بلال فأتمنى أن تكون سعيدا في حياتك الجديدة، وإن كنت أريد أن أنصحك بالوسطية والاعتدال.

فقال بلال بنبرة لم تخل من امتنان:

ـ لن أستطيع أن أنسى ما فعلته معي طوال حياتي، وسأظل أدعو الله لك على كل ما فعلته معنا أيها الأب الروحى.

وبصعوبة بالغة استطاع أدهم أن ينزع نفسه من بينهم، كان يشعر بأنه لا يودع فقط الأشخاص، ولكنه يودع أيضا المكان بجدرانه وأبوابه وبكل ركن فيه، كان يودع تجربة إنسانية حفرت في حياته وذابت داخل وجدانه، وعندما نزل إلى الحديقة وقف أمام الفيلا ورفع عينيه إلى أعلى ففوجيء بهم جميعا يقفون في الشرفات ليلقوا عليه النظرة الأخيرة، فألقى عليهم نظرة عميقة شملت الفيلا الجديدة والعائلة الجديدة، وتراءت له صورة يوسف بك يقف بينهم ضاحكا، فاستطاع أن يرسم ابتسامة على وجهه ثم رفع يده ملوحا لهم وصدره يجيش بالكثير من المشاعر والأحاسيس المختلفة والمتزاحمة، ثم نزع نظراته من وجوههم وولاهم ظهره ثم خلع نظارته ليمسح دموعا طال تأخيرها.

وبعد حوالي شهر زار أدهم قبر يوسف بك وهو يحمل في يده أول وآخر رواية كتبها وطرحت حديثا بالأسواق والتى جعلها بعنوان :

(ثلاثمائة وستون درجة ... الطريق إلى الكنز) ...

والتي مكنته من الصعود إلى دائرة الضوء بقوة والدخول إلى عالم الأدب الذي حُرم منه طويلا رغم أنه فى الستين من عمره، وهنا تذكر أدهم جملة كان قد قالها يوسف بك له ورددها على قبره قائلا:

ـ الأحلام الصادقة والنبيلة لابد وأن تتحقق حتى وإن طال تأخيرها.

وأهدى له نسخة من الرواية وضعها على قبره

ومضى .

تمت بحمد الله

أيمن الشايب
الاسكندرية
(٢٠٠٥ ــ ٢٠١٥)